هوراس دايفيس

القوميّة والاشتراكيّة

النظريات الماركسية والعماليّة حول القوميّة حتّى العام ١٩١٧





المكتبة الاشتراكية

دار الحقيقة - بيروت

القومية والاشتراكية

الطبعة الأولى

آب – ١٩٧٢

هوراس دايفيس

القومية والاشتراكية

النظريات الماركسية والعمالية حول القومية حتى العام ١٩١٧

نقله إلى العربية
فضل شلق

دار الحقيقة للطباعة والنشر في بيروت

هــــذه ترجمة كتاب :

NATIONALISM & SOCIALISM

By : HORACE B. DAVIS

Monthly review press

New york 1967

مقدمة

إن فهم الديمقراطية والقومية والاشتراكية، وهي الحركات الثلاث الكبرى في القرن التاسع عشر، إنما يتطلب فهم العلاقات فيما بينها. لقد كانت الاشتراكية في الأصل فرعاً من الديمقراطية، وثمة عدد من الدراسات يبحث العلاقة بينهما. ولكن رغم ظهور بعض الدراسات الممتازة حول العلاقة بين الاشتراكية والقومية، إلا أننا لم نرَ حتى الآن دراسة باللغة الانكليزية تعالج الموضوع معالجة شاملة *، وتمثل هذه الدراسة المحاولة الأولى لسد هذا النقص. ولما كانت المسألة برمتها قد اجتازت منعطفاً جديداً مع إقامة أول دولة اشتراكية، الاتحاد السوفياتي، فإن إيقاف هذا البحث عند العام ١٩١٧ ربما كان عملاً اعتباطياً. لذا لن نحاول أن نعرض أو نقيّم النظرية السوفياتية حول القومية.

---

* نذكر هنا دراستين ممتازتين: الأولى هي الدراسة التي أعدها سولومون بلوم: « عالم الأمم: دراسة حول المضامين القومية في كتابات كارل ماركس »، (نيويورك، ١٩٤١). وتشكل نقطة الانطلاق في أي نقاش حول كتابات ماركس في هذا الحقل. والثانية هي دراسة رومان روسدولسكي: « فريدريك انجلس ومسألة الشعب بلا هوية »، وهي تنم عن اطلاع جيد على أحوال أوروبا الشرقية وعلى كتابات انجلس بشكل عام، ولكنها لم تنقل إلى الانكليزية، لسوء الحظ. وسيكون واضحاً تأثير هاتين الدراستين على المؤلف.

إن هدفنا بالأحرى هو أن نضع على المحك الرأي الذي انتشر في السنين الأخيرة ، والقائل أن الماركسية ليست مؤهلة لمعالجة المسألة القومية * . سيكون من السهل البرهان على أن معظم النظريات غير الماركسية لا تكفي البتة لمعالجة الموضوع ، وهذا عائد لأسباب عديدة . بيد أننا نعتقد أنه يمكن البرهان على أن الماركسية لا تقدم فحسب المنهج الأكثر فائدة لتحليل هذا الموضوع الشائك ، بل على أن العناصر الأساسية لنظرية صحيحة حول القومية ومسائل الانتماء القومي كانت قد بسطت خلال الفترة التي سبقت عام ١٩١٧ ، رغم أن افكار ماركس وانجلس حول هذا الموضوع كانت قد أصبحت عتيقة في معظمها ، وأن لينين ، أبرز خلفائهما ، قد ضمّن ما كتبه حول هذا الموضوع في مقالات كانت ، رغم عددها الكبير ، غير منهجية وكثيرة الترداد أو التكرار .

تستعمل كلمة « الأمــة » ومشتقاتها « القومي » و « الانتماء القومي » و « القومية »، لتعني أموراً مختلفة عند مختلف الكتاب، وحتى عند الكاتب نفسه في أوقات مختلفة . وكثيراً مــا تكون الاستنتاجات التي يتم التوصل إليها حول القومية ومسائل الانتماء القومي مشتقة من التعريف الخاص المستعمل. ومن الممكن إدراج مجموعة من المعاني المتساوقة للعديد من المفردات ، كما فعل ذلك مثلاً مؤلفو الأثر الذي يعتبر المرجع الأساسي حول هــذا الموضوع : « القومية ، تقرير لجنة دراسة من أعضاء المعهد الملكي للشؤون العالمية »[١] . تشير كلمة « الأمة » إلى هؤلاء الأفراد الذين يؤلفون جماعة Community سياسية أو تجمعاً أقوامياً آخر لأفراد يملكون صفات معينة ، بينما تشير كلمة

---

* وهكذا يقول بوركنو : « في الحقل السياسي ، القومية هي الحقيقة التي تتحطم أمامها النظرية الماركسية » ، ف. بروكنو ، « الشيوعية في العالم » (نيويورك ، ١٩٣٩) ، ص ٩ . أنظر أيضاً لويس نيشر ، صفحة ٢٠٧ وما بعدها .

(١) اوكسفورد ، ١٩٣٩ ، ص ١٦ . فريق الدراسة الذي يرأسه البروفسور ه كار .

« الدولة » إلى السلطة الحاكمة أو الحكومة [٢] .

تعني القومية Nationalism الانتماء لمصالح جماعة معينة ، بينما يمكن أن تعني الوطنية Patriotism الانتماء إلى مصالح دولية معينة . ليس ضرورياً أن تكون القومية أو الوطنية عدوانيتين ؛ ولكنهما تعتبران رذيلتين عندما تصبحان كذلك ، وخاصة عندما تتخذان شكل الغلو القومي والشوفينية . وعلى هذا فقد وصفت الوطنية التي تؤرثها الحربُ بأنها « بوجه عام مزيفة وكاذبة وكارثة على العالم ، وضيقة الأفق ، وهي عاطفة غير عادلة تهدف إلى إثارة دولة معينة من أجل إخضاع وتخريب أمم أخرى » [٣] .

ليس ضرورياً أن تنطوي الوطنية والقومية على سياسة عدائية نحو الأمم الأخرى . فمن الممكن أن تعبرا عن السياسة الأكثر ملائمة لتقدم ورخاء المجموعة التي ينتمي إليها الفرد. فالقومية والوطنية تتوافقان مع الاشتراكية ، في رأي فرنسيس كوكر ، الذي يقول :

« إذا فهمت الوطنية والاشتراكية على أساس الحالات التي تمران بها في الممارسة العادية، الأولى كأخلاص لجماعة معينة،والثانية كبرنامج لتحسين شؤونها ، فمن الواضح أنهما متوافقان » [٤] .

وعلى كل حال ، فإن مشاكل عديدة تبرز إلى الوجود عند التصدي لتعريف الجماعة ، فعندما يكف رخاء الجماعة وتقدمها عن أن يكون مقياس العمل ، فإن اقتراح كوكر يصبح غير ذي بال، إذ أن ذلك النوع من القومية الذي يقدمه غُلاة القومية والشوفينيون والفاشيون لا يتوافق مع الاشتراكية.

---

(٢) المصدر السابع ، ص ١٧ .

(٣) عن تشايننغ : « تعاليم إلى جمهور الناخبين » ، وقد جاءت في كتاب عنوانه « الحرب ضد الجمهوريات الهولندية » ، حرره هـ. ج. آغرث .

(٤) ف. كوكر : « الوطنية » . عن « موسوعة العلوم الاجتماعية » ، المجلد ١٢ ، نيويورك ١٩٦٤ ، ص ٢٨ .

لقد وصف لينين القومية بأنها« تيار ايديولوجي عريض وعميق جداً »[٥]. والحق أنها كذلك ، فلا يوجد ما هو أعمق منها ، فاخلاص الفرد للجماعة كان على الدوام شرطاً لبقاء البشر بما هم جماعة ، فبقاء الانسان مرهون ببقائه جزءاً لا يتجزأ من جماعة معينة . ومن هنا فإن القومية التي كانت في حين ستاراً لتغطية بعض أشنع جرائم التاريخ، كانت في حين آخر الدافع لحركات بناءة أيضاً. والمسألة بالنسبة للماركسي هي أن يميز بين هذين الوجهين للقومية، ليتعلم كيف يرعى الحركات القومية حيث تخدم مصالح التقدم، ويدينها ويقف في وجهها عندما تستعمل في سبيل أهداف معادية للاستراكية . لهذا السبب لا بد من نظرية صحيحة في القومية .

يمكن أن تُعتبر قوة تقدمية تلك القومية التي عملت على توحيد الوحدات الاقتصادية المشتتة في العهد اللاحق للإقطاعية في وحدات أوسع ملائمة للانتاج والتجارة . لقد استحقت انجلترا الأليزابيتية قصائد شكسبير ومارلو الحماسية . وساعدت القومية ُ الهولنديين على زعزعة القبضة الخانقة لسيطرة اسبانيا الرجعية ، وعلى أخذ زمام القيادة في التجارة الأوروبية . وتكونت القومية في فرنسا بشكل أوّلي مع جان دارك ، ووصلت إلى كامل التعبير عن نفسها في أيام « الثورة » ، بل جرى تصديرها إلى البلدان الأخرى من أوروبا التي خرجت من الحروب النابوليونية وهي مصممة على التطور القومي . وساعدت قومية ُ المستعمرات الأميركية على دفعها في طريق تقدم هائل ؛ ومنذ ذلك الحين ، اعتُبِرَتْ الحركات القومية في البلاد المستعمَرة تقدمية لأسباب سياسية واقتصادية . واستُقبِلَتْ الوحدة القومية في كل من ألمانيا وإيطاليا بالترحيب من قبل الذين يتمنون التقدم الاقتصادي .

وعلى العكس، فالامبريالية غير تقدمية ومعادية للمجتمع بطبيعتها. فالشعوب

---

(٥) لينين : « حول العزة القومية عند الروس » ، ١٩١٤ ، المؤلفات الكاملة ، لندن ، ١٩٣٠ ، جزء ١٨ ، ص ٩٩ .

الاوروبية ، التي كانت أول من نال الوحدة القومية (الانجليز ، الاسبان ، البرتغاليون والهولنديون) ، قد استخدمت قوتها الجديدة في توسع قومي معادٍ جداً المجتمع . ولقد عانت الشعوب الأخرى في العالم الكثير من المصائب بسبب الأنانية الاستغلالية للمتروبولات الامبريالية .

القومية اليوم ظاهرة منتشرة انتشاراً شاملاً ، بحيث ننسى أحياناً أنها بزغت حديثاً ، خاصة في بلدان كالبلدان الآسيوية . لقد وقف الشعب الصيني صامداً ببطولة في منتصف القرن السابع عشر ضد الغزاة الاوروبيين في حرب الافيون . ووصف انجلس نضال الصينيين بأنه حرب « سبيل المعبد والدار » (أي في سبيل الوطن) . ولا شك في أن الأمر كان كذلك . وأضاف أنها « حرب شعبية » (ونستطيع قبول هذا الرأي أيضاً) « لصيانة وجود الوطن الصيني [٦] . ولكن لم يكن لدى الصينيين ، في ذلك الحين ، شعور قومي على الطريقة الأوروبية ، والصينية الآن * .

إن السمة المزدوجة للقومية من أكثر الأشياء إرباكاً لهؤلاء العلماء الذين يناقشونها . انها كوجه يانوس ** ، تنظر إلى اتجاهين . فمن ناحية يومي وجهها الأول ، الوجه التقدمي ، إلى الشعوب المستعمَرة وشبه المستعمَرة ، حيث يقدم لها احتمالات ساطعة لتطور اقتصادي خالٍ من الخضوع للامبريالية . أما إذا تأملنا الوجه الآخر للقومية فنراه مرعباً في الواقع . فباسمها تخوض

---

(٦) ميغا ، برلين ، ١٩٥٧ . من مقال كتبه انجلس في ٢٢ أيار ١٩٥٧ .

* إننا لا نعني أن القومية كانت واقعة غير هامة في عصيان تايبنغ الذي يشير إليه انجلس . ولكن ثمة أكاديميين ، مثل جوزيف نيدهام ، يشددون على التقليد الصيني في التضامن الاجتماعي : «المسألة كانت في كيفية الامساك بتلك الأعماق العميقة لعاطفة التضامن الاجتماعي التي كانت من بين القوى المحركة الرئيسية للمجتمع الصيني خلال ألفي عام . ولم يكن باستطاعة قومية من أي نوع أن تفعل ذلك » . — جوزيف نيدهام : « الماضي في حاضر الصين » (نشرة من اصدار ريبورتر الشرق الأقصى ، ١٩٦٥ ؟) .

** يانوس ، هو إليه الأبواب عند الرومان . ويمثل بوجهين متناقضين ومتعارضين ، كالباب مؤلفاً من فلقتين . « المترجم »

أكثر البلدان تقدماً حروباً عدوانية ضد بعضها وضد الشعوب المستضعفة. وهنالك أشخاص، يُظن أنهم أخلاقيون ومستقيمون، — يجدون أنفسهم يبررون بل يرتكبون جرائم ضد الانسانية أشد فظاعة من أية جرائم في التاريخ القديم. وهم لا يملكون، في النهاية، دفاعاً أفضل من دفاع أيخمان. ومع ذلك، ما هو البديل؟ هل يمكن الاستغناء عن القومية برمتها كما اقترح البعض؟

يلجأ البعض إلى القومية «كدواء» للاستلاب. فيكتب دوغلاس ليپان، مشيراً بنوع خاص إلى القومية الكندية الجديدة: «في عالم التغير السريع والاستلاب، وكابوس ليس بعيداً وراء الأفق، يمكن أن تكون القومية أمراً يدعو إلى الراحة». وجهة النظر هذه تشبه وجهة نظر هؤلاء الذين يلجأون إلى السُّكر «كشيء يدعو إلى الراحة»، عندما لا يستطيعون مواجهة مشكلاتهم. فالقومية وحدها ليست دواء لأمراض العالم؛ وعندما تكون في أيدٍ غير مناسبة قد تصبح عاملاً يسهم في جعل ذلك «الكابوس غير البعيد وراء الأفق» أقرب بكثير إلى الواقع. إن طريق الخلاص الذي اقترحه ماركس هو علاج الاستلاب واقتلاع مخاطر القومية في فعل واحد، بتبني الاشتراكية.

كذلك، هناك من يشمئز من تجاوزات القومية وإفراطها، فيدينها حالاً، وهؤلاء هم الذين يجدون فيها الخطر الأكبر على المدنية اليوم. ففي رأي مرجع ثقة، مثل ماكس ويبر، ان الحياة السياسية هي بعمومها لا اخلاقية بالضرورة لا القومية فقط. والواقع أن ويبر كان أحد المعجبين بمكيافيلي:

> «ألقى ويبر قبل موته ببضعة أسابيع خطاباً أخّاذاً وصف فيه التراجيديا الكامنة في النضال من أجل قضية سياسية ... وقد رفض بحماسة كبير الدعوة إلى إزالة الفرق بين الاخلاقية الشخصية والاخلاقية السياسية. ان من يدخل عالم السياسة، حيث تشكل القوة والقسوة وحدهما وسيلتين مشروعتين، يخرج وفي يديه عقد

أتفاق مع قوى شيطانية . وعندما يدين ويبر كل رجل دولة يسعى وراء أهدافه متردداً في استعمال أساليب غير أخلاقية ، فإنه ، أي ويبر ، إنما يتخذ بذلك موقفاً متشدداً إلى جانب مكيافيلي ويطريه باعجاب حين يستشهد بأقواله التي يمدح فيها المواطنين الذين يعطون مصلحة جماعتهم أهمية تفوق خلاص أرواحهم » [٧] .

لقد أدرك ماركس أن لا مفر من استخدام وسائل غير أخلاقية في النضال ضد المستغلين الذين يمسكون بمواقع السلطة . ولكنه بقي مؤمنــــاً باخلاقية أعظم وأكبر. فكما أن الوطن ليس هدفاً في حد ذاته،فكم بالأحرى أن تكون السلطة كذلك . وينبغي لنا أن نفتش عن حل لهذه المفارقة المتعلقة بالسلطة على هذا المستوى الأعلى . لقد كان ماركس يأمل في وضع حد للاستغلال ، فتصبح الأمة دافعاً للتقدم الحضاري،بدلاً من أن تبقى قوة اضطهاد وتدمير.

سنتتبع في هذه الدراسة قصة الاشتراكية والحركة العمالية في أيامهـــا الأولى وموقفها إزاء المسألة القومية وكيف عالجتاها . وسنرى كيف حاولتا الاستفادة من زخمها القوي ورعايته في سبيل أهداف بناءة ؛ وسنفحص أيضاً كيف سعت القومية ، سعياً ناجحاً أحياناً ، إلى استخدام الحركة الاشتراكية في سبيل أهدافها (الشائنة غالباً) ، وذلك حتى العام ١٩١٧ .

---

(٧) فريتز بابنهايم : « استلاب الانسان الحديث »، نيويورك ١٩٥٩ ، ص ٥٠-٥١ .

١

من القومية الى الاممية :
اعادة بنـــاء نظرية هيغل

لقد كانت فلسفة هيغل مسيطرة على المناخ الفكري الذي نشأ فيه ماركس وانجلس . ولقد كان هيغل يميز بين الأمة والدولة تمييزاً حاداً وقاطعاً جداً . يرى هيغل أن شعباً من الشعوب يمكن أن يعيش كأمة فحسب ، ولكنه في هذه الحالة لا يكون قادراً على الاسهام في تطور التاريخ العـــالمي ، وبعض الشعوب ما تزال تعيش حتى الآن « كأمم متوحشة » ، ولكن ثمة دافع داخلي لدى كل شعب إلى تكوين دولة والحفاظ على نفسه بما هو دولة [١] .

يرى هيغل أن الحرية تتجسد في الدولة ، وتاريخ العـــالم هو ديالكتيك أرواح الشعوب معينة لكل منها اسهامه الخاص الذي يقدمه في سبيل تحقيق العقل ؛ ثم يفسح بعد ذلك المجال أمام شعب آخر ليقدم إسهامــاً تالياً . ولا تقدم الشعوب إسهامها بمستوى واحــد ، فبعضها فقط هو الذي يقوم بدور فعال من أجل التقدم . فالقدرة على بناء دولة تقفز قفزة حاسمــة إلى شكل

---

(١) هيغل : « الموسوعة الفلسفية » ، لايبزيـغ ١٩٠٥ ، ص ٤٥٩ .

أعلى وجديد من أشكال الحيـاة إنما تتوقف على بعض العوامل ، كالموقع الجغرافي ، وعلى الصفات الطبيعية والاجتماعية والعنصرية للأمة [٢] .

وفي رأي هيغل أن أرفع واجبات الفرد هو أن يكون عضواً في الدولة [٣] . وإن شعباً لم يعد يعنيه ما إذا كانت دولته ستستمر كدولة سيكف حالاً عن كونه شعباً [٤] . إن على الأفراد والشعوب ، التي تخوض غمار حمل الرسالة العالمية – التاريخية نحو التقدم بالحضـــارة ، أن تزيح ، بالضرورة ، جانباً ، هؤلاء الذين يقفون عقبة في الطريق .

لقد آمن هيغل بنظام الملكية الخاصة ، لكنه كان يعرف جيداً الصراعات المصلحية التي تثيرها . والدولة ، في رأيه ، مؤسسة ضرورية ، حتى وان اقتصر دورها على ضبط الفرقاء المتنافسين ومنع المجتمع من الانهيار والتحول إلى أشلاء . وقد اعتبر الدولة كسلطة مستقلة تقف في موقع خـاص يحف به الاجلال فوق النظام التنافسي [٥] . ان أفكار هيغل في هذه النقطة مماثلة من حيث أهميتها الفكرية لأفكار آدم فيرجسون ، معلم آدم سميث العظيم . لقد وجد فيرجسون ان التجارة ، بما هي كذلك ، ليست بانية للدولة، بل مخربة لها : « إن المحرك الجبار ، الذي نظن أنه قد شكّل المجتمع (أي : الدولة التجارية) ، يميل فقط إلى بعث التفاوت بين أعضاء المجتمع ، أو إلى استمرار تعاملهم بعد تحطيم روابط المحبة فيما بينهم » [٦] .

لقد أدخل هيغل الألمان في عداد الشعوب العالمية التاريخية ، وقال كلاماً

---

(٢) هربرت ماركوز : « العقل والثورة »، الطبعة الثانية، لندن ١٩٥٤ ، ص ٢١٤، ٢٣٦ .

(٣) هيغل : « المجتمع ، الدولة ، التاريخ » ، لايبزغ ، ١٩٣٢ ، ص ١٣٣ .

(٤) هـ . هيلر : « هيغل والسياسة الألمانية » .

(٥) ماركوز « العقل والثورة » ، ص ٢١٥ .

(٦) آدم فيرجسون : « دراسة في تاريخ المجتمع المدني » ، الطبعة الثالثة ، لندن ، ١٧٧٨ ، ص ٣١ .

ينتقص من شأن السلافيين ، وسلاف الجنوب بخاصة . وكان يقف في صف واحد مع المثقفين الألمان في عصره الذين كان معظمهم يطمح إلى توحيد المانيا . لقد كان قومياً المانيـاً . وبعكس الفكرة السائدة لوقت طويل بين أوساط الباحثين ، فإن تبني هيغل الشديد للدولة ، كدولة ، لم يكن ينطوي على تبنٍّ للدولة الواقعيـة ، للدولة البروسية كما كانت آنذاك . بالعكس ، فقد أوضح في محاضراته لعام ١٨١٧ في هيدلبرغ انه يكره الملكية المطلقـة . وقال بأن التجسيد الواقعي للعقل لا يمكن أن يكون سوى الملكية **الدستورية** ، وسوى ذلك لا يمكن أن يكون عقلاً [٧] . وفي كل الأحوال ، فإن هيغل كان تقليدياً في بعض النواحي ، وبخاصة في تبنيه للدين .

لقد كان جزءاً من فكرة هيغل أن الشعوب التي أثبتت أنهـا غير قادرة خلال فترة من الوقت على بناء الدولة لن تكون قادرة أبداً على بنائها . هذا رأي سخيف نوعاً ما ، إذ أنه لا بد أن يكون هناك مرة أولى في كل أمر ، ولِمَ يجب أن يكون شعب قد بنى من قبل دولة تفسخت في موضع أكثر رجحاناً من شعب آخر لم يبن دولة أبداً ؟ ومع ذلك فإن هـذه الفكرة ، مضافاً إليها قومية هيغل الشديدة ، قد هيمنت على أنجلس في أيام شبابه .

قال أنجلس ، في ١٨٤٠ — ١٨٤١ ، وهو يكتب في سبيل المانيا العظمى التي ينبغي أن تقوم :

« قد يكون ثمة تعارض مع وجهات نظر الكثيرين، ممن أشاركهم الرأي إجمالاً ، في انني ما أزال عند رأيي في أن الاستيلاء من جديد على الأقاليم الناطقة بالألمانية في الجهـة اليسرى من الراين هي مسألة شرف قومي : أن جرْمَنة هولندا وبلجيكا ، التي انتزعت في السابق ، ضرورة سياسية لنا . فهل سنستمر في القبول ببقاء القومية

---

(٧) رسالة بتاريخ ٢١ كانون الثاني ١٩٦٦ من وولف غانغ غانسكي إلى المؤلف .

الألمانية مضطهدة في هـذه البلدان ، بينما يصعد وينطلق السلاف في الشرق بشكل أقوى فأقوى ؟ لا شك في أن الحرب آتية بيننا وبين فرنسا ، وسنرى عندها من يستحق امتلاك الضفة اليسرى من الراين.

ما دامت تجزئة وطننا قائمة ، وما دمنا سياسياً لا شيء ، فإن الحياة العامة، والأشكال الدستورية المرعية وحرية الصحافة وكل شيء آخر نطلبه، ستكون أمنيات كاذبة لا يمكن تحقيقها إلا جزئياً »[٨].

وفي العام ١٨٤٢ ، استمر أنجلس في الاتجاه ذاته :

« لقد احتلت كونيغسبرغ ، في بروسيا ، وما تزال تحتل مكانة واعتباراً ينبغي أن يكونا مبعث فرح لكل الألمان . وبالرغم من أن العنصر الألماني قد استبعد من المانيا ، بفضل « مرسوم الاتحـاد » ، فإن الذين ينتمون إلى هذا العنصر قد تضامنوا وطالبوا بأن يكون لهم الاعتبار كألمان ، وبأن يُعْتَبَروا ممثلين لألمانيـا ضد البربرية السلافية الشرقية »[٩] .

ودعا أنجلس أيضاً إلى تطهير اللغة الألمانية من الكلمات الأجنبية غير الضرورية ، وإلى تطهير الفن والعمارة الألمانيين من الأساليب الواهنـة غير السليمة . هذا النمط من القومية المتطرفة كان بالفعل نادراً في ذلك الحين .

يتبنى الشوفينيون في الغالب فلسفة رجعية حول المجتمع، إلا أن أنجلس لم يكن رجعياً البتة ؛ فقد قبل دائمـاً بالسمات الديمقراطية للثورة الفرنسية . ويعتقد كاتب سيرته، غوستاف ماير، أن أنجلس قد تخلص تدريجياً من العنصر القومي في تفكيره[١٠] . وما من شك في أنه قد حاول ذلك ، ولكن بأية درجة من النجاح ؟ هذا ما سنحاول بحثه بتفصيل أوفى .

(٨) أنجلز : « إرنست موتيز آرنذت » ، ميغا ، المجلد ١ ، الجزء ٢ ، ص ١٠٨ ، برلين ، ١٩٣٠ .

(٩) ميغا ، المجلد ١ ، الجزء ٢ ، ص ٢٢٩ .

(١٠) غوستاف مـاير « سيرة فريدريك أنجلز » ، برلين ١٩٣٤ ، الجزء الأول ، ص ٥٣ — ٥٥ .

لقد كان ماركس ، شأنه في ذلك شأن انجلس ، من الشباب الهيغلي ، ولكن بدون شوفينيته . إن إخضاع فلسفة هيغل لأهداف رجعية ، كما كان يجري آنذاك ، ولأنها لم تكن تفي بالمطلوب من بعض النواحي ، قد جعلا اعادة النظر فيها بشكل جذري أمراً ضرورياً وحتمياً .

عند مناقشة مسألة اصدار « الحوليات الفرنسية الالمانية » في العام ١٨٤٣، كتب ارنولد روجه إلى ماركس طالباً النصح والتعاون ، واقترح أن يكون هدف المجلة محاربة « القومية والرجعية »[١١] .

لم يتجاوب ماركس مع هذا الاقتراح المتعلق بالموقف من القومية . لقد كان يُنضج آنذاك فلسفة جديدة للمجتمع ، هي الفلسفة التي ستظهر فيما بعد باسم « المادية التاريخية » .

لقد كانت المهمة الرئيسية التي انطلق لانجازها هي حسم مسألة علاقة الانسان بالمجتمع وبالدولة – وهذه المسألة ليست بالهينة ، خاصة في مناخ ثقافي كان في بداية انطلاقه وتفلته من قيود المفاهيم الدينية والصوفية ، بما في ذلك مفهوم هيغل المثالي حول الدولة . لقد كان ماركس عميق الاهتمام بمسألة الاستلاب،التي كانت قد عادت منذ فترة وجيزة الى احتلال مكان بارز من جديد في العالم الغربي . وقد فتح فيويرباخ الطريق عندما دحض الدين بشكل تاريخي مدمر . إلا أن الكثير مما يجب عمله بقي دون تحقيق . وكانت أنانية نظام الملكية الخاصة واستلاب الانسان من عمله ومن العالم مدار المسألة التي عالجها ماركس .

في ذلك الوقت كتب برونو باور مقالتين أثار فيهما مسألة : « كيف يحرر الانسان نفسه » ، وهاجم اليهود في سياق البحث ، واعتبرهم أبعد من المسيحيين عن الحرية لأنهم بقوا سجناء دينهم « القومي » ، في حين أنه اعتبر

---

(١١) ميغا ، المجلد الأول ، الجزء الأول، ص ٥٧٢ .

المسيحيين أصحاب دين كوني [١٢] . وما يلفت الانتباه هو أن « باور » قد أسند إلى اليهود صفة قومية ، رغم أن هذه الحجة يمكن أن تنطبق على أي مجموعة أقوامية Ethnocentric أخرى .

ولقد رد ماركس على مقالات باور بمقالة عنوانها « المسألة اليهودية »، وهي تُذْكر الآن، بشكل رئيسي، لأسلوبها الطليق . ومن سخرية القدر أن اليهود هم الذين وقعوا ضحية هذا الأسلوب (لقد تحدر ماركس من أصل يهودي) . ولكن القسم الرئيسي من المحاجّة لم يكن له سوى علاقة بسيطة باليهود . في آثار هيغل ، كان الدين عامل توحيد . وربما كان هـذا صحيحاً في عصر سابق ، كما يقول ماركس ؛ لكن كان لطراز المسيحية ، كما تطور في العصور الحديثة ، أثر معاكس .

ففي ظل المسيحية فحسب ، التي تجسد في الخارج ، خارج الانسان ، جميع العلاقـات الانسانية (القومية ، الطبيعية ، الأخلاقية ، والنظرية) ، يمكن للمجتمع البورجوازي أن يسلخ نفسه عن الدولة، ويحطم جميع الروابط التي تصل بين الناس بوصفهم نوعاً ، ويحل مكانها الأنانية ومطالب المصلحة الشخصية ، ويذوب العالم الانساني محولاً إياه إلى عـالم من الأفراد المنعزلين والمتخاصمين [١٣] .

علاقة الانسان بالدولة والأمة

يقول ماركس ، ان نظام الملكية الخاصة الفوضوي في جوهره ، حيث الانسان عدو للآخر ، لا يتماسك بواسطة الدولة فقط ، إذ أنها هي بالذات من صنع البرجوازية ، وهي تطيع أوامر الأخيرة بالتالي . فباسم الحرية ، خلقت

---

(١٢) اوغست كورنو : « كارل ماركس وفريدريك انجلس » ، المجـلد الأول ، ص ٤٦٣ – ٤٦٤ ، برلين ١٩٥٤ . راجع الطبعة العربية الصادرة عن دار الحقيقة .

(١٣) ماركس : « المسألة اليهودية»، الحوليات الفرنسية الالمانيه ، ١٨٤٣ – ١٨٤٤، ميغا ، الجزء الأول ، ٣٧٦ .

الدولة قيوداً جديدة ، حيث أسبغت الشرعية على نظــام الملكية الخاصة ، وأكدت استلاب الذات الانسانية الذي يفرضه هذا النظام على البشر .

الدولة هي الانسان في علاقته بالحكم ، كما يقول ماركس . إلا أن هــذه العلاقة « وهمية وغير واقعية » . ولقد بلور ماركس هذه الفكرة ، على نحو أوضح ، في سلسلة من الكتابات كتبها بالتعاون مع انجلس بين أيلول ١٨٤٥ وتشرين الأول ١٨٤٦ ونشرت تحت عنوان : « **الايديولوجية الالمانية** » .

« بالضبط لأن الأفراد لا يلتمسون إلا مصالحهم الخاصة ، التي لا يرونها مطابقة لمصالحهم الجماعية (والحقيقة أن العام هو الشكل الوهمي للحياة الجماعية) ، ستفرض عليهم الأخيرة كمصلحة مُستَلبة و « مستقلة » عنهم ، كمصلحة « عامة » هي بدورها مصلحة خاصة متميزة ؛ أو سيبقى هؤلاء الأفراد أُسرى هذا التنازع ، كما هي الحال في الديمقراطية أيضاً » [١٤] .

وفي مكان آخر ، تصف « الايديولوجية الألمانية » الدولة ، كل دولة ، على أنها « بديل للجماعة » أو أنهــا « جماعة وهمية » [١٥] . ويقول ماركس أن الطريق إلى التحرر هي محو نظام الملكية الخاصة الاناني، واحلال ملكية الجماعة مكانه ؛ ولكن هذا التغيير لن يأتي إلا عبر الفعل الثوري للبروليتاريا . إن جماعة حقيقية لا يمكن أن تتحقق إلا متى أُزيلت الطبقات وأُزيلت الدولة عينها . ومــع الطبقات ستزول جماعات فرعية أخرى ، كالقوميات :

تمحو « الثورة الشيوعية ... حكم جميع الطبقات وتمحو الطبقات ذاتها، لأنها ستتحقق بواسطة طبقة لن يكون ممكناً منذ الآن اعتبارها

---

(١٤) ماركس وانجلس : « الايديولوجية الالمانية » ، موسكو ، ١٩٦٤ ، ص ٤٥ .

(١٥) المصدر السابق ، ص ٢٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ .

طبقة من طبقات المجتمع ... فهي في حد ذاتها تعبير عن ذوبان **جميع الطبقات**، والقوميات، الخ، في المجتمع الحالي »*[١٦].

هل كان ماركس يعتقد أن ثمة هوية (أو تطابق) بين الأمة والدولة ؟ يبدو الأمر كذلك في بعض الأحيان، ذلك لأنه كان يستعمل تعبير «الأمة» وكأنه يعني الدولة – الأمة أو الدولة القومية القائمة في أيامه . لكن في حين أن ماركس كان يدعو إلى إلغـــاء الدولة، التي اعتبرها أداة قسر خاضعة للتحكم الطبقي، وفي حين أنه كان يعتقد أن القوميات ستذوب، كما ذكرنا آنفاً، في الجماعة الانسانية التي تلي زوال جميع الطبقات، إلا أنه كان يرفض دائماً الانجرار إلى التهجم على الأمة في حد ذاتها . بالعكس، لقد أصر على أن القوميــة هي الشرط الضروري الذي يسبق الأممية الحقة التي تصوّرها في المستقبل .

ولكن حتى إذا تحرر المجتمع من كابوس الدولة الطبقية بتضامنه الوهمي، ألا يحتاج إلى قاعدة تشكل أساساً لتنظيمه وتجسد التضامن الحقيقي في ظل الشيوعية ؟ كيف ستكون الوحدة السياسية – على افتراض أن وحدة كهذه ستكون ضرورية – التي ستحل محل الدولة عندما تتلاشى الدولة وتضمحل ؟

هل كان ماركس يوحي ضمناً بجواب عن هذا السؤال عندما ذكر، في المقطع الذي استشهدنا به قبلاً والذي حظي حتى الآن بانتباه قليل، الروابط (**القومية**، والطبيعية، والاخلاقية، والنظرية) التي تصل بين النـــاس كجنس أو نوع ؟ أليس أمراً منسجماً مع فكر ماركس أن ننظر إلى الأمة

---

* يتحدث ماركس هنا وكأن الطبقة العاملة قد أذابت القوميات ضمن ذاتها في المجتمع الحالي، ولقد سعى لينين بصورة متواصلة (انظر الفصل الثامن) إلى تحقيق هذا الأمل . وبالنظر إلى أن هذا الذوبان لم يتم قبل الثورة البروليتارية، فاننا نفسر هذه الفقرة بمعنى أن القوميات ستذوب تماماً بعد الثورة .

(١٦) المصدر السابق، ص ٨٦ .

(لا الامة في اطار الدولة بل الامــة خالية من مظاهر الدولة الاستغلالية) بوصفها الشكل التنظيمي الممكن في المستقبل ؟

بالطبع يجب أن نتجنب انشاء بناء واسع التفاصيل فوق قاعدة نعرف أنها هزيلة . فليس واضحاً البتة أن ماركس كان يقصد تقديم نظرية حول الأمة . ولكن الوقت قد حان بالتأكيد لكي يواجه الماركسيون المسألة التي لامسها ماركس ولينين ، مسألة ماذا يفترض أن يبقى بعد أن تتلاشى الدولة . فإذا لم تبق الأمة غير الطبقية ، فما الذي سيبقى ؟

« أممية » التجارة الحرة ضد الحمائية القومية

لقد صاغ ماركس وانجلس أفكارهما حول المذهب القومي والانتماء القومي في العقد الذي بلغ فيه مذهب التجارة الحرة القمة ، ثقافياً وسياسياً . حتى الاقتصادي **الحمائي** « فريدريك ليست » ، الذي قدم مذهباً حول حاجة الصناعات المانيفاكتورية إلى سوق وطنية متمتعة بالحماية ، كان مضطراً إلى أن يتملق التجارة الحرة بالقول أنها الهدف المثالي. لقد شهد العالم في الاربعينات من القرن التاسع عشر انجلترا وهي تلغي قوانـــين الذرة Corn Law . وفي ذلك الوقت بلغت فلسفة آدم سميث (التي شاعت بين الجمهور بفضل باستيات وساي) درجة من النفوذ جعلت نابوليون الثالث يتظاهر فيما بعد بتبني نفس الفلسفة الاقتصادية . لا شــــك في أن آدم سميث ، الذي كانت آراؤه تبدو وكأنها حققت انتصاراً كلياً ، كان نصيراً كبيراً لمبدأ حرية العمل والتجارة Laissez-Faire ، الذي نشأ أصلاً في فرنسا والذي كان ما زال شائعاً بشكل واسع هناك . وكانت الخطوات الهائلة التي قطعتها انكلترا في ظـــل مبدأ « حرية العمل والتجارة » ، التي كانت تطبقها على نحو أوسع بكثير من أي بلد آخر ، قد بدأت تعطي هذا المبدأ طابع الفلسفة السياسية التي قدر لهـا أن تسود في المستقبل ، فالتجارة الحرة كانت الفلسفة الاقتصادية التقدمية يومذاك .

كان لهذه الأفكار أثرها على ماركس وانجلس . بيد أنهما لم يكونا من

أنصار التجارة الحرة حسبما نادت بها مدرسة « كوبدن » و« برايت » ؛ بل على العكس ، فقد دعما خصومها الشارتيين (أي الميثاقيين) ، وأصابهما غمّ كبير عندما هجرت الطبقة العاملة البريطانية الشارتيين وقبلت بقيادة أنصار التجارة الحرة .بيد أن ماركس لم يكن يرى أن ثمة فائدة أو ميزة في الحمائية كذلك . لقد أكد أن الأجور في ظل التجارة الحرة ستتراجع أو تبقى في المستوى اللازم للبقاء ، الذي يتحدث عنه مذهب الاقتصاديين الكلاسيكيين أنفسهم ، لذا أعلن تأييده للتجارة الحرة ـ بقدر ما تكون فعلاً وسيلة تبيّن للعمال عدم جدوى محاولة التقدم في ظل الرأسمالية [17] . لقد قبل انجلس حجة « الصناعات الناشئة » لبلدان مثل المانيا والولايات المتحدة ، ولكنه كان يعتقد أنه سيكون من الأفضل لهذه البلدان أن تتبنى ، بعد ٢٥ سنة مثلاً ، نظاماً ما للتجارة الحرة [18] . وهكذا افتقد ماركس وانجلس أحد الدوافع إلى تعزيز الحماس القومي الذي كان له أثره على بعض المفكرين الآخرين ، هذا الدافع هو الايمان بنظام الميركانتيلية – الجديدة ، أو الاقتصادية القومية.

لم يقبل ماركس وصف أي نظام اقتصادي بالنظام « الطبيعي » ، في المعنى الذي كان مستعملاً لدى الاقتصاديين الكلاسيكيين ، واعتبر الاقتصاد القائم على المنافسة أكثر أشكال الرأسمالية تقدماً . ان تحليـــل الاقتصاد الرأسمالي في « **رأس المال** » يرتكز على فرضيـــات مذهب حرية العمل والتجـــارة الخالص . أما اقتصاد ليست « القومي » بدعوته إلى الحماية الجمركية والاعانات الحكومية والتدابير التنظيمية وإقامـــة الاحتكارات المحلية ، فلم يكن ماركس يكنّ له إلا شعور الازدراء . لقد كان هذا النظام

---

(١٧) ماركس : « خطاب حول الحماية والتجارة الحرة والطبقة العاملة» ، أيلول ١٨٤٧ ، ميغا ، المجلد الأول ، الجزء السادس . برلين ١٩٣٢ . ص ٤٢٨ – ٤٣١ .

(١٨) « الحماية والتجارة الحرة » ، مقدمـــة للطبعة الأمريكية لخطاب ماركس حول التجارة الحرة . بوسطن ١٨٨٩ .

عتيقاً فات أوانه ؛ إذ مرت به فرنسا وانجلترا في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكانت ألمانيا الفقيرة تهيء نفسها لتبنيه آنذاك . وقد أيد ماركس « الزُلفرين» أي الاتحاد الجمركي الالماني(حيث دخلت بروسيا بموجبه في اتحاد اقتصادي مع الدويلات الالمانية ، قامت على أثره السوق المشتركة قبل عدة سنوات من ذوبان هذه الدويلات سياسياً فيــــه) لأنه وسع السوق وحطم القيود الاقطاعية . إلا أن ماركس كان يرى أن « نظام الاقتصاد القومي » يقيد المجتمع في تعقيدات كان الانجليز والفرنسيون يعملون لحلها منذ عشرات السنين . ففي إحدى التوريات التي أحبها ماركس كثيراً ، كتب يقول أن المسألة في فرنسا وانجلترا هي مسألة « الاقتصاد السياسي أو هيمنة المجتمع على الثروة » ، أما في ألمانيا فالمسألة هي مسألة « الاقتصاد القومي أو سيادة الملكية الخاصة على القومية » [١٩] .

تفترض الفلسفة التي يرتكز عليها **«البيان الشيوعي»** (١٨٤٨) أن الاتجاه نحو التجارة الحرة هو اتجاه لا يُرد . وستتابع البرجوازية تحطيم الحواجز وتوسيع السوق العالمية ؛ وهي ستتزج بشعوب جديدة في الاطار الرأسمالي . لكن البروليتاريا لن تشارك في غنائم هذا التطور ، أو سيكون نصيبها ناقصاً وغير كاف . وفي البلدان الأكثر تقدماً ستبدأ الطبقة العاملة بالمطالبة بنصيب أكبر لنفسها ؛ وفي آخر الأمر ،فان النظام الرأسمالي العاجز عن القيام بدوره ، إلا بوصفه أداة في يد البورجوازية ، سيصير إلى ضعف قاتل ، وستقود الطبقة العاملة في البلدان المتقدمة الشعوبَ المستعمرة نحو الاشتراكية والحرية .

غير أن التاريخ ســـار في طريق آخر . فالحمائية الألمانية ، لا التجارة الحرة الانكليزية ، هي التي ربحت المعركة ، مؤقتاً على الأقل . فبعد ان طورت المانيا والولايات المتحدة صناعتها إلى درجة أصبح بامكانها منازعــة انجلترا السيطرة على السوق العالمية ، ارتدّت انكلترا منصاعة إلى الحمائية .

---

(١٩) ماركس : « اسهام في نقد فلسفة الحق عند هيغل : مقدمة » ، ١٨٤٣ .

ومع ذلك ، فقد استمرت السوق العالمية في التوسع ، واستمر بعض المنظّرين الماركسيين ، مثل كاوتسكي ، في التبشير بفضائل التجارة الحرة وبنوع من الأممية الزائفة على الطراز البورجوازي . واستمروا في التبشير بذلك فترة طويلة ، حتى بعد أن اتضح أنها لم تعد « تيار المستقبل » . لذا كان محتماً على الماركسية المعاصرة أن تعيد كلياً بناء هـــذا الجزء من نظرية ماركس ، كي تستطيع التغلب على المشكلات التي تثيرها المسألة القومية .

إن قبول ماركس – وهو متذمّر حقاً – بمبدأ التجارة الحرة ، واعتباره نظام الحماية الجمركية نظاماً بالياً رجعياً (في بداية الأربعينات من القرن التاسع عشر) قد انطلقا من الظروف القائمة آنذاك . ان نغمة الدولة القومية أو الدولة ـ الأمة كانت تخف وتهدأ ،وكان يُنسب إلى أرباب العمل (البورجوازيين) فضل كل ما يحدث . ولقد تلونت تصورات ماركس حول الأمة بتأثير هذا المناخ .

انتشار التجارة على صعيـــد عالمي ، « تحطيم الحواجز » ، زج المناطق المتأخرة في السوق العالمية ، انتشار المدنية الغربية في العالم – كل هذه الوقائع قد وُصفت بحماسة في « البيان الشيوعي » ، ولكن لم يقل أنهـــا من صنع الشعوب المتقدمة في حد ذاتها، أو من صنع حكوماتها ، وهي أبعد ما تكون عن ذلك ، بل قيل أنها من صنع البورجوازية . ونادراً ما يرد ذكر للدولة . ويوصف الصراع الطبقي باعتباره صراعـــاً ذا بُعد عالمي ، ولا ينوه كثيراً بتدخل السلطة السياسية . ويعتبر العمل المشترك للبورجوازية ضـــد الطبقة العاملة العالمية السبب الرئيسي لتنظيم البروليتاريا تنظيماً عالمياً . ويضيف الكاتبان ، استدراكاً ، قائلين : « بما أن على بروليتاريا كل بلد أن تستولي أولاً على السلطة السياسية وأن تشيد نفسها كطبقة قومية ، وان تصبح هي نفسها الأمة ، ومن هنا فهي ما تزال قومية ، ولكن ليس بالمعنى البورجوازي لهذه الكلمة » ، و « ينبغي على بروليتاريا كل بـــلد أن تحسم الأمور مع بورجوازيتها هي » . وفي رأي ماركس وانجلس ان الأمر الأكثر أهمية هو

« العمل الموحد للبلدان المتقدمة على الأقل، فهو واحد من أولى شروط انعتاق البروليتاريا » .

كان ماركس وانجلس يعتقدان كل الاعتقاد أن هذا الانعتاق يمكن أن يتم في أية لحظة – والأسرع هو الأفضل . وكلما رأيا أزمة اقتصادية تقترب أو حكومات (رأسمالية) في أوروبا توشك على الوقوع في متاعب شديدة ، كانا يسألان بعضهما عما إذا كان هذا هو « الصراع الأخير » . حتى عام ١٨٩٠ كان انجلس يتوقع أن تستولي الطبقة العاملة الالمانية على السلطة قبل عام ١٩٠٠ مثلاً . **وأبعد من ذلك** ، عندما تصل البروليتاريا إلى السيادة السياسية ، فالغرض من ذلك لن يكون ممارسة « الهيمنة » داخل الدولة الرأسمالية ، كما كان روسدولسكي يقول قبيل ذلك ، ولن يكون « احتلال مكان مهيمن في الدولة والأمة » كما قال الاشتراكي الوطني كونو خلال الحرب العالمية الأولى ، بل سيكون محو الطبقات وتشكيل الطبقة العاملة هي نفسها الأمة وإقامة ديكتاتوريتها هي ، كما قال ماركس في «نقد برنامج غوتا»[٢٠].

في البيان الشيوعي ، دعا ماركس وانجلس العمال إلى الاتحاد أممياً ، لكي يواجهوا مواجهة أكثر فاعلية التنظيم العالمي للرأسماليين .

يقيناً أن البلدان الرأسمالية يمكن أن تتحد في بعض الحالات لقمع حركة الطبقة العاملة ، كما كان الحال في كومونة باريس أو إبان الثورة الروسية ، لكن الأمر الغالب عادة هو انقسام الرأسماليين إلى دول قومية متحاربة ، ترمي كلها (كما لاحظ ماركس وانجلس) إلى زج عمال بلادها في مغامرات دوليــة .

في رأي ماركس وانجلس ، أن « الأممية » التي أتت بها البورجوازية إنما كانت تدويلاً جزئياً لبعض وجوه الحضارة فحسب . ولقد أكدا أن الأممية الحقة إنما تأتي فقط عبر انتصار البروليتاريا في البلدان المتقدمة ، عندما تفقد

---

(٢٠) روسدولسكي ، مجلة « العلم والمجتمع » ، ١٩٦٥ ، ص ٣٣٥ .

الفروقات القومية أهميتها . ولقد هزأ ماركس من الفكرة القائلة بأن الأمم الرأسمالية يمكن أن تلتقي وتتفق على إزالة الحرب ، أو نزع السلاح، أو حتى استغلال البلدان المتأخرة بشكل أكثر فاعلية . إن أممية كهذه أمر مستحيل، إنها سراب .

وأكد ماركس وانجلس أن البروليتاريا فقط هي التي يمكن أن تضع حداً للانقسامات والنزاعات القومية بين الشعوب وتخلق أممية حقة في العالم : « أزيلوا استثمار الانسان للانسان ، تزيلوا استثمار أمة لأمة ... وفي اليوم الذي يسقط فيه التناحر بين الطبقات في قلب الأمة ، يسقط في الوقت نفسه العداء بين الأمم » (٢١) .

موقف العمال من « أرض الأجداد »

لقد فسر البعض ، مثل جان جوريس ، اعلان « البيان الشيوعي » : « العمال لا يملكون وطناً » ، بوصفه تهكماً خطابياً خالصاً . وإذا حملنا هذا الاعلان على محمل الجد ، نجده قابلاً لتفسيرات ثلاث مختلفة :

أولاً ، قد يكون اشارة إلى الافتراض بأن البروليتاري الخاضع للرأسمالية مسحوق ومهان إلى درجة يصبح معها غير قادر على استيعاب الحضارة أو الثقافة القومية بله تطويرها . ليس للبؤس العام خصائص قومية . ففي رأيه أن « القوانين والأخلاق والدين أحكام بورجوازية مسبقة تكمن وراءها مصالح بورجوازية مناظرة » .

ثانياً ، وبالفعل ، ففي هذا السياق يندرج الاعلان المذكور ، لذا فإنه يمكن أن يعني أن ليس للعمال مصلحة في الوطن قبل أن يسيطروا على ادارته أو أن يصبح لهم على الأقل صوت نافذ في الاشراف عليه. وكان «فيليغارديل» هو الذي أطلق هذه الفكرة وشرحها ببعض الاسهاب في كتاب له ظهر قبيل

---

(٢١) « البيان الشيوعي » . طبعة نيويورك ١٩٥٩ ، ص ١١ ، ٢٦ .

وضع مسودة « البيان الشيوعي » . ولقد قرأ ماركس هذا الكتاب وسجل عليه ملاحظات . ان الافتراض الثاني غير متعارض مع الأول . وبالفعل فان « فيليغارديل » قد طرح الافتراضين معاً [٢٢] ، بيد أنهما متمايزان ، منطقياً .

في هذه الأيام ، يبدو مستغرباً الحديث عن طبقة عاملة تفقد ولاءها وشعورها الوطني ، ولكن هذه الفكرة ليست غير معقولة في حد ذاتها ، إذا كان كل شيء يدور حول درجة الاستغلال. وتثبت مسألة الزنجي الأمريكي هذه الفكرة .

لم يكن كثير من الاميركيين البيض يعرف مدى العطف الذي كان شائعاً بين الزنوج الاميركيين إزاء اليابانيين في بداية الحرب العالمية الثانية . ومنذ زمن قصير ، في عام ١٩٦٣ ،ذهل النائب العام روبرت كينيدي بشدة، عندما أعلن فريق من نخبة الزنوج الأميركيين أنه سيكون من الصعب إقناع العديد من الزنوج بأن يحاربوا من أجل الولايات المتحدة ضد كوبا ، وقد نقل جيمس بولدوين عن فتى زنجي في سان فرنسيسكو قوله : « ليس لي وطن . ليس لي عَلَم » [٢٣] .

إذا أخذنا بهذا التفسير للفكرة الواردة في « البيان الشيوعي » سيكون من الصعب استبعاد اللازمة التي استنتجها برنشتاين فيما بعد . ولقد كتب في عام ١٨٩٦ ما يلي :

« إن القول بأن العامل لا يملك وطناً سيتعدل منذ اللحظة الاولى بقدر ما يشارك كمواطن يتمتع بمساواة تامة في الاشراف على الحكومة وفي صنع قوانين بلاده ، وفي امتلاك القدرة على التأثير في مؤسساتها حسب أمانيه » [٢٤] .

---

(٢٢) بلوم ، مصدر مذكور آنفاً ، ص ٢٤ — ٢٥ .

(٢٣) مجلة « ستوون » النصف شهرية ، واشنطن ١٠ حزيران ١٩٦٣ ، ص ١ .

(٢٤) مجلة « الأزمنة الحديثة » (نيو زيت) ، العدد ٢٥ ، تشرين أول ١٨٩٦ ، ص ١١١ — ١١٢ .

ثالثاً ، إن **الافتراض** بأن « العمال لا يملكون وطناً » يمكن أن يعني أن العامل الواعي طبقياً يشعر أنه عضو في الطبقة العاملة أكثر ممـــا يشعر بأنه انجليزي أو فرنسي أو الماني أو روسي . لقد كان هذا التفسير شائعاً بعض الشيء في ألمانيا في العقد الثاني من القرن العشرين ، عندما كان شعار « الاتحاد السوفياتي هو وطن العمال » يتردد كثيراً على الاسماع . وقد كتب باكونين إلى ماركس في عام ١٨٦٨ قائلاً : « إن الأممية هي وطني الآن » * . هـذا التفسير منسجم مع حرفية « البيان الشيوعي » الذي يشدد على أن « العمل المشترك للبروليتاريا، في البلدان المتمدنة على الأقل ، هو أولى شروط تحررها.

يعتقد بلوم اعتقاداً جازماً بأنه لم يكن في نية ماركس وانجلس الايحـاء بأن الأممية البروليتارية تمنع ولاء الفرد ولاءً معقولاً لوطنه ، حتى ولو كان بورجوازياً .

فلكي نفهم ما عناه ماركس وانجلس بالاممية البروليتارية يجب أن نضع نصب أعيننا عدة نقاط :

أولاً ، الاممية ليست الكوسموبوليتية ؛ فالاممية مبنية على الامم . وإذا لم تكن الامم موجودة فينبغي خلقها . فالامم الاوروبية الكبيرة هي ، كما قال انجلس ، « الشرط الذي لا بد منه للتعاون الامي المتناسق بين الشعوب » في ظل السلطة البروليتارية [٢٥] .

ثانياً ، ان الكثير يعتمد على توقيت الأحداث وتسلسلها.فقد كان ماركس وانجلس يأملان ويتوقعان أن يريا الاشتراكية تتحقق في عصرهما ، بدءاً من

---

* ثمة تساؤلات حول اخلاص باكونين، راجع كتاب بوريس نيكولايفسكي وأوتو مانشن هلفن : « ماركس : الرجل المحارب » ، ١٩٣٦ ، ص ٢٨٩ ، وراجـــع أيضاً الفصل الثاني من هذا الكتاب . ومع ذلك فلا بد من القول أن الكثير من العمال ، الأعضاء في الأممية الأولى ، ربما كانوا متمسكين برأي باكونين ، والأرجح أن الأمر كان كذلك بالفعل .

(٢٥) من مقال لانجلس كتبه في العام ١٨٨٧ وأعادت نشره مجلة « الأزمنة الحديثة » في العدد ٢٤ ، شباط ١٨٩٦ ، ص ٦٧٩ .

أكثر الامم تقدماً ، بالمعنى الاقتصادي لهذه الكلمة ؛ ولكن مع فشل ثورة العام ١٨٤٨ وكومونة باريس في العام ١٨٧١ ، أذعنا لما كانا يعتبرانه من قبل إمكانية – نعني أن البلدان الاخرى يجب أن تمر في مرحلة رأسمالية قبل الوصول إلى الاشتراكية . أما الخيار بين الرأسمالية من جهة والاقطاعية أو البربرية ما قبل الرأسمالية من جهة أخرى ، فهو خيار بسيط وبديهي . انه خيار بجانب الرأسمالية ؛ فهي بكل ثغراتها ومعايبها أكثر تفوقاً على نحو لا يقارن ، حتى وان اقتصر دورها على تثوير الانتاج فقط .

ثالثاً ، ان الاممية لا تستدعي بالضرورة المساواة بين الامم . ولقد أظهر ماركس وانجلس منذ البداية تفضيلهما للدول الكبيرة على الصغيرة، لأن السوق السوق الداخلية الكبيرة تمثل شكلاً أكثر تقدماً وتعطي الدول الكبيرة لا القوة الأعظم فحسب بل القابلية الاكبر للنمو والنظام الانتاجي الأكثر تقدماً . لقد كان ماركس وانجلس نافذيّ الصبر إزاء الامم الصغيرة أو الامم التي قد تتكون على نحو يعرقل طريق التقدم الاقتصادي كما رأياه . لقد آمن انجلس لوقت قصير بحقوق القوميات الصغيرة ، لكن ماركس لم يبدِ أي اهتمام بمبدأ تقرير المصير في حد ذاته، ومع الزمن فضَّل انجلس البلدان الضخمة على البلدان الصغيرة .

رابعاً ، ثمة فكرة تنسجم مع الفكرة السابقة، تقول أن الاممية كما تصورها ماركس وانجلس هي أممية أمم صناعية متقدمة . وقد دافعا طوال سنين عديدة عن التوسع الامبريالي الذي لا يرحم ، شرط أن يدفع هذا التوسع نحو تطور اقتصادي يأتي في أعقابه .

الاممية البروليتارية هي نظام تحمل فيه كلمات كالحرية والمساواة والديمقراطية والعدالة والاخلاق معنىً حقيقياً بالنسبة للعامل . فإذا أُفرغت هذه « المبادىء الخالدة » من محتواها الاشتراكي ، فإنها تغدوا مجرد خديعة وسراب . ولم يكف ماركس وانجلس عن إدانه المراءات البورجوازية التي تبني قيمها الاخلاقية على قاعدة من الاستغلال والوحشية . وإذا وقفت إحدى

السياسات التي دعا إليها ماركس وانجلس في وجه أحد هـذه « المبادىء الخالدة» ، فإنهما يجيبان بأن التضحيات ضرورية أحياناً ، لأن المهم هو امتلاك سياسية صحيحة واتباعها مهما كان الأمر . وبما أن القومية ليست واحدة من هذه المبادىء التي اعتبراها صحيحة في حد ذاتها ، فإنها قد كان مهيأين للتضحية بها في أي وقت في سبيل مصلحة سياسية أعلى .

هل « المبادىء الخالدة » صحيحة على المدى الطويل ؟

الجواب : نعم أنها لكذلك ، ولم يبد ماركس وانجلس عكس هـذا الموقف البتة . فهما قد أكدا بالطبع على أنهما لا يحاربان المبادىء العظيمة بل يحاربان من أجلها .

ماذا عن مبدأ القومية إذن ؟ هل هو خالد ، كما قال هيغل ؟

كلا ، ليس كذلك في حـال من الأحوال . إنها غير خالدة ، كما أنهـا لا تنسجم مع المبادىء الخالدة المذكورة قبل قليل. وقد كتب أحد معاصري ماركس وانجلس ، اللورد « اكتون» الكاثوليكي، العدو اللدود للاشتراكية، متحدثاً عن المسألة القومية في العام ١٨٦٢ :

« إن نظرية القومية خطوة تقهقرية في التاريخ ... فنظام المساواة الديمقراطية ، في ادعائه بسمو منزلة الحقوق القومية ، إنما يقفز خارج حدوده القصوى ، ويقع في تناقض مع نفسه ... أن مبدأ القومية هو دحض للديمقراطية ، إذ أنه يضع حدوداً لممارسة الارادة الشعبية ويحل مكانها مبدأ أعلى ... فالقومية لا تهدف إلى الحرية أو الرخاء إذ أنها تضحي بكليهما أمام الضرورة الموجبة لجعل الأمة قالباً ومعياراً للدولة . وسيكون طريقها مميزاً بالخراب المادي والروحي [٢٦] .

---

(٢٦) لورد اكتون : « تاريخ الحرية ودراسات أخرى » ، لندن ١٩١٩ ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

الجوانب الايجابية في القومية

هذه الادانة الشاملة لا نجد صدى لهـــا في كتابات ماركس وانجلس . فموقفهما إزاء الأماني القومية للشعوب المغلوبة لم يكن موقف تعاطف وحسب، بل اعتبرا وجود الأمم أمراً مرغوباً ، وان للأمم وظائف أساسية تقوم بها. فالامة ليست فقط حاملة للحضارة والثقافة ، وإنما هي أيضاً عامل موحِّد تتبلور حوله جهود الناس بشكل ملائم من أجل منفعة الفرد ومن أجل النمو الجماعي . وما كتبه ماركس وانجلس عن « تلاشي الدولة » إنمـــا كان يعني الدولة كجهاز قسري وكأداة بيد الطبقة المسيطرة . لكن الأمة ، بنظرهما ، يجب أن تستمر كوحدة يُبنى حولها مجتمع المستقبل الأممي .

بقي أن توضع تفاصيل الظروف التي يتوافق فيها مبدأ القومية ومبدأ الاشتراكية،توافقاً مؤقتاً على الأقل . وقد بيّن انجلس موقفه في العام ١٨٤٥ بمناسبة اجتماع عُقد في لندن حيث احتفل ديمقراطيون وعمال انجليز وفرنسيون وألمان وايطاليون واسبانيون وبولونيون وسويسريون بذكرى اقامة الجمهورية الفرنسية لعام ١٧٩٢ . ففي مقالة حماسية حول هذا الاجتماع كتبها لجريدة ألمانية ، بدأ انجلس باستنكار موقف « الاشتراكيين الحقيقيين » الالمان الذين سعوا إلى إضعاف وإفساد الاشتراكية الفرنسية والحركة العمالية الانجليزية بجمل فلسفية المانية . لقد حاولت هذه « الزمرة » الأدبية ، كما يقول ، أن تستبعد المسألة القومية نهائياً ، وإلى الأبد ، بقولها : « ما أهمية الأمة ؟ وما أهمية الجمهورية الفرنسية ؟ » ويجيب انجلس :

« هدئي من روعكِ ، ألمانيا العزيزة ! الامة والجمهورية الفرنسية لهما أهمية عظمى بالنسبة إلينا .

إن الأخاء بين الامم ،كما تمارسه الآن أكثر الأحزاب راديكالية، هو نقيض « للتجارة الحرة » القديمة القائمة على الأنانية القومية وأنانية المصالح الخاصة الكوسموبوليتية المنافقة ،وهو أثمن من جميع النظريات الالمانية حول « الاشتراكية الحقيقية » .

والاخاء بين الأمم تحت علم **الديمقراطية الحديثة** ، كما نشأ من خــلال الثورة الفرنسية وكما نمى في الشيوعية الفرنسية والشارتية الانجليزية ، يثبت أن الجماهير والمدافعين عنها يعرفون مــا القضية الآن بشكل أفضل مما تعرفها النظرية الالمانية .

والحقيقة أن تعبيري الديمقراطية والاخاء بين الامم يحملان في الوقت الحاضر فهماً اجتماعياً ويحويان معنى سياسياً ... فالديمقراطية اليوم تعني الشيوعية ... والديمقراطية أصبحت مبدأ جماهيرياً ... وأخيراً ، فإن الاخاء بين الامم يحمل اليوم ، أكثر من أي وقت مضى ، دلالة اجتماعية . فالتخيلات حول جمهورية أوروبية وسلام كوني من خلال تنظيم سياسي قــد أصبحت سخيفة ، كالكلام عن الاخاء بين الامم ، في ظل التجارة الحرة . وبينما تسقط جميع النزعات العاطفية الوهمية من هذا النوع ويبطل الرجوع إليها ، يبدأ بروليتاريو الامم كافة بممارسة الاخاء الحقيقي ، دون جلبة كبيرة ، تحت راية الديمقراطية الشيوعية . والبروليتاريون هم وحدهم الذين يستطيعون أن يفعلوا ذلك . ولأن للبورجوازيين مصالح خاصة في كل بلد ، وبما أن هذه المصالح تحتل المكانة الاولى لديهم ، فإنهم غير قادرين على التقدم إلى ما وراء القومية » [٢٧] .

يبين هذا القول بوضوح أن انجلس قد اعتبر ان المصالح البروليتارية لا تتمثــل في مساعدة أرباب العمل في بلادها لكي يجنوا منافع خاصة على حساب البلدان الأخرى ، بل في بناء الاشتراكية في أقرب فرصة ممكنة . فالانتاجية في ظل الاشتراكية كنظام ستكون أعظم ، بسبب اتحاد القوى الاقتصادية الذي سيصبح ممكناً بفضل الأممية البروليتارية . وستدفع السياسة التي سيتبعها العمال في كل بلد الثورة البروليتارية إلى الأمام دفعاً قوياً . وعلى كل حال فإن الدولة البورجوازية ليست شيئاً يمكن الاستخفاف به أو إهماله .

---

(٢٧) ميغا ، المجلد الثاني ، ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

هنا لا نجد من أثر عند انجلس لتلك « العدمية القومية » التي ستفسد الأممية الثانية فيما بعد .

في العام ١٨٦٦ ، أعلن بعض الأعضاء الفرنسيين في الأممية الأولى ، ان الامة كفكرة قد أضحت مماته فات أوانها : يتعين على الأمم أن تذوب في جماعات صغيرة تشكل بدورها تشاركاً association يحل محـل الدولة . وقد قابل ماركس هذه الفكرة بالاحتقار والسخرية (٢٨) .

ففي رأي انجلس أن وجود الأمة ليس الشرط الذي يجب أن يسبق الأممية فحسب ، بل هو شرط الاشتراكية أيضاً . وينبغي للنظام الاشتراكي أن يكون مؤهلاً أو قابلاً للتطبيق ، أي أن يكون كبير الأبعاد بالتالي . وكذلك الأمر فان على الشعب المضطهد ، الذي يملك حجماً يؤهله لبنـاء دولة قابلة للبقاء ، أن يركز اهتمامه على نيـــل استقلاله قبل كل شيء . ولا يمكنه التفكير بأي شيء آخر قبل تحقيق هذا الهدف الكلي الأهمية . وقد كتب انجلس إلى كاوتسكي في ٧ شباط ١٨٨٢ ، مشيراً إلى بولونيا :

« من غير الممكن تاريخياً لشعب كبير أن يعالج جدياً أية مشكلة داخلية ما دام يفتقر الى الاستقلال القومي ... وحركة البروليتاريا الامية هي على العموم ممكنة فقط بـــين أمم مستقلة ... وإزالة الاضطهاد القومي هو الشرط الأساسي لكل تطور حر سليم .

ليس من مهامنا أن نردع البولونيين عن بـــذل الجهود لتحقيق الظروف اللازمة لنموهم وتطورهم في المستقبل ، أو أن نقول لهم ان استقلالكم القومي برمته أمر ثانوي من وجهة نظر أممية . بـل على العكس من ذلك ، فانني أجده شرطاً لكل تعاون بين الأمم »(٢٩) * .

---

(٢٨) فرانز ميهرنغ : « سيرة كارل ماركس » ، نيويورك ١٩٣٥ ، ص ٤٣٥ .
(٢٩) « رسائل انجلس إلى كاوتسكي » ، فيينا ١٩٥٠ ، ص ٥٠ – ٥٣ .
* لم يدخل انجلس بالتأكيد، بعض القوميات الصغيرة في هذا التعميم، بل لم يدخل ←

كان لدى ماركس وانجلس ، كمعاصرهما باكونين ، إحساس يحميهما من تبني وجهة نظر قومية بشكل غير واعٍ ، وذلك لأنهما عاشا معظم فترة النضج من حياتهما منفيين . لقد طُرد ماركس من وطنه ، وبالرغم من ذلك فقد كان البوليس البروسي يلاحقه طالباً تسليمه ؛ ولكي يرتاح من الملاحقة تخلى عن جنسيته البروسية حتى قبل أن يجد مجال اللجوء النهائي الأمين في انجلترا . وكان لانجلس ارتباطات عائلية وأخرى تتعلق بالعمل في مانشستر ، ولقد تكيف مع الحياة الجديدة في انكلترا . لكن لم يكن أي منهما عرضة لأن يصبح قومياً انكليزياً . وكانت نظريتهما ، كما أشار انجلس ، مزيجاً من الفلسفة الالمانية والاقتصاد السياسي الانجليزي والاشتراكية الفرنسية ، وقد حافظ ماركس على اهتمام نشيط بالشؤون الالمانية ،وكان يأمل،طوال سنوات، بالعودة إلى المانيا ، لكن أحكامه حول السياسة الدولية كانت تحركها في كل الظروف قيم وأهداف أخرى غير الرغبة في رؤية المانيا متفوقة .

حالما باشر ماركس وانجلس سوية عملهما السياسي الفعلي ، جابهتهما مطالب بعض المجموعات القومية من أجل التحرر من السيطرة الأجنبية . وكما عارضا اضطهاد طبقة لأخرى ، عارضا اضطهاد أمة لأخرى . وقد مرّ انجلس بفترة تعاطف فيها مع سلاف الجنوب الذين كانوا يخضعون للنمساويين والمجريين ، ولكن لم يكن أقل عطفاً على البولونيين الذين كان يضطهدهم الالمان والنمساويون والروس.ولم تكن دعوته لإزالة الاضطهاد القومي لتستهدف صالح المضطهَدين وحدهم فحسب ، بل صالح المضطهِدين أيضاً . ولقد رفع انجلس في العام ١٨٤٧ الشعار التالي : « لا يمكن لأمة أن تكون حرة في وقت تضطهد فيه

← جماعات قومية هامة كسلاف الجنوب. وبما أن هذا النص نص مبدئي،لذا فانه يستحق من الاهتمام أكثر مما ناله حتى الآن .

أمماً أخرى »[٣٠] . وطالب بتحرر بولونيا لصالح تحرر ألمانيا . إن هذه الفكرة بالذات قد ازدادت انتشاراً فيما بعد ، عندما كتب ماركس ، بوصفه سكرتيراً للأممية الاولى ، رسالته الشهيرة إلى لنكولن حول تحرير العبيد .

ومهما يكن من أمر ، فإن الطريقة التي يمكن أن تنال بواسطتها الشعوب المضطهَدة حريتها إنما تُقرر على أساس أوضاع كل مرحلة . ومن المفيد لشعب متأخر ،في بعض الظروف ،أن يمدَّن على يد شعب متقدم يمارس إشرافاً سياسياً واقتصادياً على شؤونه .ليس من الممكن فهم مواقف ماركس وانجلس في حالات خاصة معينة إلا بدراسة العوامل المحيطة بها .

في البداية كان ماركس وانجلس ، عام ١٨٤٧ ، يتوقعان اندلاع الثورة الاشتراكية في وقت قريب جداً ، لذا كانا ينظران إلى مطالب التحرر القومي من وجهة النظر هذه . وبالرغم من إصرارهما على الدعوة إلى استقلال بولونيا، فإنهما لم ينصحا البولونيين في العام ١٨٤٧ بتنظيم انتفاضة وطنية . ولم يكن سبب هذا الموقف الفشل الذريع لانتفاضات كهذه كانت قد قامت في بولونيا الروسية في العام ١٨٣٠ وفي بولونيا النمساوية في العام ١٨٤٨ ، بل لأن تفكيرهما كان يسير في خطوط أخرى ، هي خطوط الأممية البروليتارية . ولهذا فإن الرأي الذي تقدم به ماركس في الاجتماع المذكور كان كما يلي : « سيتم تحرير بولونيا لا في بولونيا بل في انجلترا »[٣١] . كيف توصل إلى ذلك الاستنتاج ، الذي يبدو لأول وهلة متعارضاً مع شعاره الآخر الشهير : « لن يتم تحرر العمال إلا بأيدي العمال وحدهم » ؟ . لماذا لا يطبق هذا الشعار ، مع التعديلات اللازمة ، على الصراعات في سبيل التحرر القومي ؟

يقول ماركس ان انجلترا هي الدولة الوحيدة التي بلغ فيها التناقض بين

---

(٣٠) من خطاب لانجلس في اجتماع عقد في لندن في ٢٩ تشرين الثاني ١٨٤٧ ، تأييداً لحرية بولونيا . راجع المؤلفات ، المجلد الرابع ، ص ٤١٧ – ٤١٨ .

(٣١) نفس المرجع ، المجلد الرابع ، ص ٤١٧ .

البروليتاريا والبورجوازية أقصى حدوده . ولهذا فإن انتصار البروليتاريا الانكليزية على البورجوازية الانكليزية سيكون حدثاً حاسماً بالنسبة لانتصار سائر المضطَهَدين على مُضطهِديهم. دع العمال الانكليز ينتصرون في صراعهم، عندئذٍ سينهار النظام القديم على الصعيد العالمي . وانتهى ماركس إلى القول : « أنتم أيها الشارتيون ! ينبغي ألا تظهروا الأماني الكاذبة حول حرية الأمم . ادحروا أعداءكم المحليين ، وعندئذٍ تدركون بفخر أنكم قد دحرتم كل المجتمع القديم » [٣٢] .

ولكن إذا كان ماركس وانجلس قد بشّرا بفلسفة أممية ، بيد أنه من الممكن أن يكونا ما يزالان آنئذٍ متأثرين في بعض أحكامهما الخاصة بوجهات نظر تشرّباها من محيطهما الأول ، في بداية عملهما بخاصة . وربما كانا قوميين في اللاوعي .

لقد تركزت وتبلورت مواقفهما من القومية خلال ثورات عام ١٨٤٨ ؛ وتمسكا فيما بعد بالآراء التي عبّرا عنها آنذاك . ان أفضل طريق لتكوين فكرة عن نظرتهما إلى المسائل الخاصة بالقومية هي دراسة السياسة الخارجية لـ « الصحيفة الرنيانية الجديدة » ، التي كان ماركس رئيس تحريرها،وانجلس محرر الشؤون الخارجية فيها ، خلال الأشهر الثورية في العام ١٨٤٨ .

شهد عام ١٨٤٨ السقوط النهائي للنظام الذي خلقه ميترنيخ في فيينا في عام ١٨١٥ . فالانظمة الرجعية التي قامت في اوروبا عند نهاية الحروب النابوليونية كانت تترنح، وفي العام ١٨٤٨ بدا أن ثمة إمكانية فعلية لانهيارها الواحدة تلو الأخرى . وعندما سقط ميترنيخ وهرب الى انجلترا ، بدا أن دورة جديدة من الثورات قد بدأت .

اعتقد ماركس وانجلس ان الثورة الاشتراكية ستكون من صنع طبقة الشغيلة التي تستند إليها الرأسمالية الحديثة . وبما أن انكلترا هي الدولة

---

(٣٢) المرجع السابع ، الصفحة ذاتها .

الصناعية الأكثر تقدماً وفيها طبقة الشغيلة الأكثر أهمية ، فإنهما توقعا طوال العقد الرابع من القرن التاسع عشر ان يكون الشارتيون في مقدمة الثوريين الأوروبيين . وعندما فقد الشارتيون قيادة الطبقة العاملة لصالح دعاة التجارة الحرة ، تمسك ماركس وانجلس باعتقادهما أن العمال الفرنسيين ، بما يملكون من تقاليد ثورية وتكتيكات حرب الشارع ، سينطلقون من حيث انتهى بابوف وسيحققون الثورة البروليتارية في فرنسا . وعندما صيغ « البيان الشيوعي » كان مقصوداً ان يخدم الانتفاضة المتوقعة في العام ١٨٤٨ في باريس وفي البلدان الأخرى . وعندما سلكت الحركة الفرنسية طريقاً غير التي توقعا وتوخيا ، عاد فعلقا آمالهما على اوروبا الوسطى والشرقية .

هنا كانت الأوضاع ، على كل حال ، غير ما كانت عليه في فرنسا وانكلترا. ففي المكان الأول كانت الرأسمالية ومنظومة الصناعة المانيفاكتورية على درجة ضئيلة من النمو بحيث لم تكن كافية لتكوين بروليتاريا مدينية أياً كان حجمها ، عدا قليل من المدن . حقاً لقد كان يوجد عمال يدويون ؛ لكن الشرائح الغالبة فيهم كانت من بقايا حرفيي القرون الوسطى ، الذين لم تكن رؤاهم على درجة كبيرة من التقدم . وكانت هناك حركة اشتراكية أيضاً ، إلا أنها كانت تحت هيمنة مثقفين من الطبقة الوسطى ، كماركس وأنجلس بالذات. وقد انتشر في صفوف هؤلاء المثقفين ضرب من الشيوعية ذات طابع طوبوي مبتوت الصلة بالتيار الرئيسي للتاريخ . وفي نفس الوقت ، لم تكن البورجوازية في أوروبا الشرقية ممتطية صهوة الجواد بثقة كما في انكلترا ، وفي فرنسا إلى حد ما ، بل كانت ما تزال في كنف نبلاء الأرض والجيش ، وكانوا محافظين بسبب امتيازاتهم ، وكانت سلطتهم تشكل عقبة في وجه تطور الرأسمالية . وأدرك ماركس وأنجلس استحالة القيام بثورة بروليتارية مرتكزة على الأسس الضيقة القائمة آنذاك ، ونصحا الشغيلة بمساعدة الطبقة الوسطى في سبيل تصفية بقايا الاقطاع ، وبعد ذلك فقط ، عندما تتيح الجمهورية البورجوازية جواً أكثر حرية نسبياً ، يمكن القيام بتنظيم وتفجير الثورة البروليتارية .

أما النقطة الهامة الثانية ، التي ميزت مشاكل أوروبا الوسطى عن مشاكل فرنسا وانكلترا ، فكانت المسألة القومية ، التي كان مقدراً لها أن تبقى في مقدمة ما تفكر به الشعوب ما بقي البولونيون والسلاف الآخرون مستعبدين ، وما بقيت ألمانيا وايطاليا غير موحدتين . كان سياسة «الصحيفة الرينانية الجديدة » ، الممثلة لجناح أقصى يسار الحزب الديمقراطي ، تدور حول توحيد ألمانيا تحت قيادة البورجوازية التقدمية أكثر منها حول بروسيا العسكرية أو النمسا الرجعية .

كانت روسيا القيصرية آنذاك « دركي أوروبا » ؛ فكان الجنود الروس يُستخدمون لسحق الثورات الديمقراطية ودعم استمرار حكم الرجعية . وستكون المجر ، عما قريب ، مثلاً على حكومة تقدمية يسحقها الروس ، وكان الجميع يقدر أن الأمر ذاته يمكن أن يحدث لألمانيا عندما تقيم حكومة تقدمية ديمقراطية . ولقد سلم ماركس وأنجلس بهذا الاحتمال ، فسعيا إلى إيقاع الحرب بين ألمانيا وروسيا ، وذلك لأن الحرب ضد روسيا ستحرك جميع القوى التقدمية في ألمانيا وتجعلها قادرة على أخذ زمام القيادة . وسيكون البولونيون حلفاء لألمانيا في هذه الحرب ، ذلك أن حريتهم واستقلالهم ستكون أحد أهداف هذه الحرب . ولقد شرح أنجلس ذلك بعد عدة سنوات :

« كانت الحركة الديمقراطية البورجوازية الصغيرة منقسمة آنذاك إلى قسمين : الألمان الشماليين الذين يمكن أن يقبلوا قيصراً بروسياً ديمقراطياً بسرور ؛ والألمان الجنوبيين المنضوين تحت قيادة بادن والذين كانوا يسعون إلى إقامة جمهورية اتحادية على النمط السويسري في ألمانيا . وكان علينا أن نرفض كلا الاتجاهين . لقد كان كل من «برُوْسنَة » ألمانياً واستمرار فوضى الدول الصغيرة ضد مصالح البروليتاريا . هذه المصالح كانت تستدعي توحيد ألمانيا في أمة واحدة ، هي وحدها التي يمكن أن تشكل حلبة يُستقطب فيها الصراع بين القوى البورجوازية والقوى البروليتارية ، بشكل يخلصه من رواسب المنافسات

الصغيرة التافهة. لكن هذه المصالح كانت، في موازاة ذلك، تتعارض مع سيطرة بروسيا ؛ فالدولة البروسية ، بكل مؤسساتها وتقاليدها وسلالتها الحاكمة، هي العدو الجدي المحلي الأول الذي يجب على الثورة الألمانية أن تدحره ؛ وفضلاً عن ذلك ، لا يمكن لبروسيا أن توحد ألمانيا إلا بتمزيقها ، باستبعاد النمسا . إن انحلال الدولة البروسية وتفسيخ الدولة النمساوية ، وتوحيد ألمانيا فعلياً في حكم جمهوري : هذه هي الشعارات التي لا يمكن رسم برنامج ثوري بدونها ، وسيتم تحقيق ذلك عبر الحرب ضد روسيا ليس إلّا » (٣٣) .

لقد حبذ ماركس وأنجلس ، إذن ، تفسيخ المملكة النمساوية - المجرية ، بحيث يدخل النمساويون والتشيكيون والجماعات المجاورة في ألمانيا موسعة وتقدمية ، ويدخل بولونيو غاليسيا في بولونيا التي ستبنى من جديد ، ويشكل المجريون دولة مستقلة بالاشتراك مع القوميات المجاورة .

والنقطة الأخيرة في السياسة الخارجية التي انتهجتها « الصحيفة الرينانية الجديدة » هي المعارضة التي لا هوادة فيها للرابطة السلافية ، وهي الحركة التي كان القيصر الروسي يرعاها لكي يؤمن لنفسه قيادة السلاف في أوروبا الوسطى والبلقان . لم يكن رفض باكونين للقيصر وحكومته بأقل من رفض ماركس وأنجلس لهما ، غير أن باكونين جابه مسألة الرابطة السلافية بطريقة مختلفة ، الأمر الذي أثار نقاشاً هاماً تم من خلاله إعـــادة النظر في المسألة القومية .

ملحق

كتب هنريخ كونو خلال الحرب العالمية الأولى محاولاً التأكيد على أن ماركس وأنجلس أرادا بالفعل القول في « البيان الشيوعي » أن العمال يملكون

---

(٣٣) أنجلس : « ماركس والصحيفة الرينانية الجديدة - ١٨٤٨ - ١٨٤٩ » ،ميغا، المجلد ٢١ ، ص ١٩ - ٢٠ .

وطناً ، أو على الأقل سيملكون وطناً عندما « يشكلون هم الأمة » ، ولو تم ذلك بدون بناء الاشتراكية .

والمقطع المتعلق بذلك هو كما يلي : « بما أن على بروليتاريا كل بلد أن تستولي أولاً على السلطة السياسية وأن تشيد نفسها كطبقة قومية ، وأن تصبح هي الأمة نفسها ، ومن هنا فهي قومية إلى هذا الحد ، ولكن ليس بالمعنى البورجوازي للكلمة » .

أخذ لينين هذا المقطع بالمعنى التالي : في المراحل المبكرة من **التطور الرأسمالي** ، يصبح العمال أقوياء بتضامن جميع قواهم وبتطوير أنفسهم كأمة (لكن ليس بالمعنى البورجوازي للكلمة) . ولكن بما أن تطور الرأسمالية يحطم الحدود القومية ، لذا ينمو لدى العمال وعي طبقي يرجح على الوعي القومي ، ويقترب العمال رويداً رويداً إلى وضع يصبحون فيه «لا وطن لهم».

يشير روسدولسكي إلى أن تفسير كونو لا يأخذ بعين الاعتبار عبارة « قومية إلى هذا الحد » — فالعمال قوميون فقط بدرجة ما يكونون هم أنفسهم قد شكلوا الأمة ؛ ومن غير المنتظر أن يبقوا قوميين إلى الأبد . ولكن كيف يمكن ألاّ يكون للعمال وطن ، رغم أنهم « قوميون إلى هذا الحد » حتى بعد استيلائهم على السلطة ؟

يقول روسدولسكي اننا نجد الجواب على ذلك في تحليل مصطلح الأمة nation والقومية nationality . يستعمل ماركس وأنجلس المصطلح الأول للاشارة إلى شعبِ دولة ذات سيادة ، بينما يستعمل المصطلح الثاني للاشارة إلى « الشعوب اللاتاريخية » التي تملك لغة ، وخلفية مشتركة ، دون دولة . ولقد أطرى ماركس وأنجلس الصراع « القومي » للعمال بمعنى معين ، لكنهما استهجنا النزعة القومية . فنضال البروليتاريا من أجل السلطة لا يمكن أن يكون ناجحاً إلا إذا نظم على أساس **قومي** بدلاً عن النضالات المحلية المتعددة. والنضال « القومي »إنما يوضع على قدم المساواة مع النضال الطبقي ويؤيَّد في **صيغته هذه** .

لقد تعثر روسدولسكي حول هذه النقطة . فهو يتكلم عن البروليتاريا التي تنتفض لكي تصبح « الطبقة القائدة في الأمة » ، ولتملك « الهيمنة » بعد انتصارها . ولا يقول أن توجد هذه النصوص لماركس وأنجلس. يبدو واضحاً في صياغة « البيان الشيوعي » أنه أمر مرتقب أن تمتلك البروليتاريا «الهيمنة» السياسية وأن « تصبح هي نفسها الأمة » ، وذلك بخروجها ظافرة من الصراع الطبقي وبتصفيتها البورجوازية كطبقة . عندئذ لن نجد إلا طبقة واحدة هي الطبقة العاملة، وستمضي قدماً في إزالة الفوارق القومية، وبأسرع مما يحدث في ظل الرأسمالية .

يبدو وكأن كونو يحاول إنقاذ الفكرة القائلة أن العمال سيتابعون ولاءهم للدولة (الرأسمالية) حتى بعد استيلائهم على السلطة السياسية فيها . ذلك أمر طبيعي تماماً شرط أن ينسى العمال الثورة الاشتراكية . ولكن هذا الأمر لم يكن في ذهن ماركس وانجلس بالطبع . كما ان ماركسيي الجيل اللاحق لم يستطيعوا أن ينسبوا هذه الفكرة إليهما. إن روسدولسكي لعلى حق في اعتقاده ان ماركس وانجلس قد نظرا إلى الدولة الاشتراكية كمرحلة انتقالية في الطريق إلى عالم المستقبل اللاطبقي . ولكن لا يمكن للعمال أن « يصبحوا الأمة نفسها » دون تصفية الطبقات * .

* انظر روسدولسكي في مجلة « العلم والمجتمع » ، مجلد ٢٩ ، عدد ٣ (صيف ١٩٦٥)، ص٣٣٠ – ٣٣٧ . نص لينين مأخوذ من « تعاليم كارل ماركس » (١٩٣٠) صفحة ٣١.

٢

خلافات ماركس وانجلس مع باكونين ولاسال

اختلف ماركس وأنجلس مع باكونين ولاسال حول نقـــاط عديدة في التكتيك والفلسفة، إلا أن الانفصام الرئيسي مع كلا الرجلين كان يدور حول مسألة المذهب القومي . لقـــد نظر الماركسيون بعطف متحيز إلى مؤسسي الاشتراكية العلمية ، وأعطوا لخصومهما ، في بعض الأحيان، أقل من حقهم من الانصاف. ولقد كان لدى باكونين نقاط معينة اضطر لينين إلى تبنيها فيمابعد. لكن باكونين لم يكن محقاً في كل النقاط .

في العام ١٨٤٨ قامت مناظرة بين انجلس وباكونين ، واستمرت متقطعة عدة سنوات . لقد كان أنجلس يفضل ما يسمي بالحــل « الأوروبي الغربي » للمسألة القومية في أوروبا الشرقية . وقـــد أشار أنجلس إلى أن المقاطعات الفرنسية قد اضطرت ، خلال عملية التوحيد القومي في فرنسا ، إلى إسقاط لغاتها ولهجاتها المتعددة وتبني لغة المركز (باريس) ؛ وفي الوقت ذاته انتشرت اللغة الانجلوسكسونية التي انبعثت في انجلترا،وسادت في معظم أنحاء بريطانيا

العظمى . ورحب أنجلس بهذا الاتجاه لأنه ساعد على نمو وحدات اقتصادية واسعة .

كان سلاف أوروبا الوسطى والجنوبية مستعبدين في أواسط القرن التاسع عشر . فكان التشيك ، في بوهيميا ، محرومين من وظائف الدولة التي كان يحتكرها ألمان السوديت والنمساويون . وكان الكرواتيون محكومين من قبل المجريين . وكان الأتراك ما يزالون يمارسون سلطة الحكم على الملايين من السلاف في البلقان . وكان البولونيون مربوطين بالبروسيين والنمساويين ، وبالروس وهم سلاف مثلهم .

في كل من هذه المناطق كانت القومية الحاكمة تصر على استعمال لغتها الخاصة في جميع الاجراءات والمعاملات الرسمية . هذا الوضع كان يضيم بالدرجة الأولى الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى السلافية ، التي لم تكن ثنائية اللغة (أي لا تجيد لغة أخرى سوى لغتها القومية) والتي كان من الممكن أن تشارك في الادارة في ظروف أخرى. ولقد وجدت الطبقات السلافية الأكثر فقراً نفسها في ظروف غير مواتية ، إذ كانت المحاكم والسلطات الرسمية عموماً تستعمل لغة غير التي تتكلمها البروليتاريا . والفلاحون من جانبهم لم يكونوا بأي حال مخيرين في دفع الضرائب . فالخضوع للابتزاز والانقسام الطبقي والاقتصادي غالباً ما كان يطابق الانقسامات الاقوامية ، كأن يكون الفلاحون من القوم السلافي والملاكون من التيوتونيين والمجريين والأتراك . وفي بعض الأحيان ينتمي الفلاحون والملاكون الى قوم واحد،ولكن حين لا يكون الامر كذلك ، « فإن المسألة القومية هي التي تجعل المسألة الاقتصادية أمراً غير ممكن احتماله » .

عندما نمت المدن في المناطق السلافية في أوروبا الوسطى في القرنين الثالث والرابع عشر ، كان معظم الحرفيين وأصحاب المهن قد أتوا إليها من ألمانيا ، وكانت الطبقة الوسطى المدينية في هذه المناطق ألمانية الأصل حتى في القرن

التاسع عشر. وقد تحركت هجرة الالمان واليهود إلى بولونيا برعاية مقصودة من الملك البولوني الذي اتخذها وسيلة لبناء وتحديث بلاده.

إن الاهتمام المتجدد بالأدب والتاريخ السلافيين، الذي قاده بالاكي، في بوهيميا مثلاً، كان ذا أساس اقتصادي رغم أنه اتخذ شكل البعث الثقافي الذي يشدد على تطوير المؤسسات التعليمية والفنون الشعبية السلافية. هذا الانبعاث لقوميات قديمة، أو هذه الولادة لقوميات حديثة، لم تقتصر على اوروبا الشرقية وحدها؛ فقد كان لها أثراً في ايرلندا وكاتالونيا وبلاد الباسك، بل في بروفنس، ثم أثرت في القوميات المغمورة في آسيا وأفريقيا والمكسيك والبيرو. لقد كنا إزاء حركة كونية.

سعى قيصر روسيا إلى الاستفادة من البعث السلافي، وقدم نفسه كحامٍ للسلافيين المضطهَدين في كل مكان. ورأى ماركس وانجلس في دولة النمسا ـ المجر حاجزاً ضد قيصر روسيا الرجعي وتطلعاته إلى رابطة سلافية شاملة. وسيكون هذا الحاجز أكثر فعالية لو حكمه الألمان والمجريون، الذين رأى فيهم ماركس وانجلس قادة طبيعيين في كل الأحوال نظراً لأنهم على درجة أعلى من التقدم. ولقد حبذا ذوبان سلاف النمسا ـ المجر في الالمان والمجريين، مع « الديمقراطية كتعويض »، وذلك بنفس الطريقة التي تخلى بها جنوبي فرنسا عن قوميتة خلال الثورة عام ١٧٨٩ [1].

لقد أجبرت ثورات عام ١٨٤٨ ماركس وانجلس على اتخاذ موقف. فعند انعقاد « مؤتمر فرنكفورت » في حزيران ١٨٤٨، قامت انتفاضة في براغ، لكن النمساويين قمعوها بسرعة. في ذلك الوقت، كانت « الصحيفة الرينانية الجديدة » (ماركس وانجلس) تنظر إلى الالمان كقادة للثورة الديمقراطية، رغم أن أعمال « مؤتمر فرنكفورت » قد كشفت الأساس الهزيل لهذا الأمل؛ وفي حزيران ١٨٤٨ كتب انجلس مقالة هستيرية،

---

(١) « الصحيفة الرينانية الجديدة »، ٣ أيلول ١٨٤٨، المؤلفات، المجلد ٥، ص٣٥٤.

لا تدين التشيكيين في حد ذاتهم – لكنها تتخذ موقفاً يقول أن التعايش بين التشيك والألمان لم يعد أمراً ممكناً :

« إن حمّام دم جديد يدبر في بوهيميا . وإن العسكرية النمساوية قد أغرقت في دماء التشيكيين إمكانية التعايش السلمي بين البوهيميين والالمان ... ومهما كانت نهاية الانتفاضة فإن حرب إبادة ألمانية ضد التشيكيين تبقى هي الحل الوحيد الممكن » [٢] .

لقد قال انجلس بعد ذلك أن ما عناه لم يكن إبادة جميع التشيكيين ، بل الحكم على وضع التشيكيين كقومية بالزوال . ويقول انجلس أن سبب هذه النتيجة الشنيعة هو انجراف التشيكيين ووقوعهم بين أيدي الروس . اذن :

« ... إن سقوطهم أمر أكيد . ففي الحرب الكبرى التي ستقع عما قريب بين اوروبا الشرقية واوروبا الغربية – ربما خلال بضعة أسابيع – سيكون قدر التشيكيين الحزين هو الوقوع في صف الروس . وستنتصر الثورة ، وستجتاح التشيكيين أولاً » [٣] .

كان موقف انجلس اتجاه الكروات أشدة قسوة . كان الكروات في هنغاريا محكومين من قبل المجريين ، الذين كانت لغتهم هي اللغة الرسمية . وعندما جاء نظام « كوشوت » الليبرالي ، الذي استولى على السلطة في ثورة العام ١٨٤٨ ، لم يحرر البنى القومية . وعندما تقدمت الجيوش الروسية لإزاحة كوشوت ، انقسمت مشاعر الكروات . بعضهم حبذ المقاومة ، والبعض الآخر لم يستطع هضم القتال إلى جانب مضطهديه ، المجريين . كانت النتيجة أن أُخرِجَ الكروات من القتال ، ومضى الروس في خطة « التهدئة » أمام مقاومة فاترة .

(٢) ميغا ، المجلد الخامس ، ص ٨٢ .
(٣) روسدولسكي ، مصدر مذكور آنفاً .

أدان انجلس الكروات ودعا إلى « أشد الارهاب تصميماً » ضد سلاف الجنوب كافة ، الذين صنفهم مع التشيك . لقد كان يعني زعماءهم . ولكن ما كان ممكناً أن تكون هذه الادانة للزعماء فقط واضحة بالنسبة لعموم التشيك والكروات . ويلخص روسدولسكي موقف « الصحيفة الرينانية الجديدة » بخصوص المسائل القومية في ذلك الوقت على الشكل التالي :

« إن الاضطهاد القومي وحده واقعة لا تفرض على الديمقراطية واجب الوقوف إلى جانب القومية المضطهَدة في كل الأحوال ؛ ولا ينشأ هذا الواجب إلا عندما تتخذ النشاطات السياسية لهذه القومية صفة ثورية تخدم الأهداف الديمقراطية بنوع خاص ؛ وما عدا ذلك ، لا تستطيع الحركة « المسماة » قومية أن تزعم بأن لها حقاً بالحماية »[٤] .

هذا تصريح عنيف – وربما بالغ العنف . ولكن ماركس وانجلس قد عدّلا ، كلاً على حدة ، موقفهما حول هذا النقطة في الخمسينات من القرن التاسع عشر . وسنورد الآن أمثلة عن مواقف كل منهما ، حيث التزما جانب القوميات المضطهَدة في **حد ذاتها** ، وليس فقط عندما تكون أفعالها السياسية ذات صفة ثورية .

انصب النقد على انجلس بحدة بسبب موقف «الصحيفة الرينانية الجديدة» من سلاف الجنوب ، ذلك الموقف الذي كان ماركس يشارك ، بوصفه محرراً ، في تحمل مسؤوليته . أولاً ، تتمحور حجة انجلس بكاملها على تحليله للأوضاع السياسية ، وعندما ثبت خطأ هذا التحليل (لم تدخل ألمانيا الحرب ضد الروس) ، بقي متروكاً يغازل الظلم لمصلحة الخير الأكبر المأمول الذي لم يتحقق ، ولم يكن ممكناً أن يتحقق ؛ ولكن القائد الذي يغازل الظلم يهيىء فراشاً من الشوك لأتباعه .

---

(٤) مصدر مذكور آنفاً .

ثانياً ، كان انجلس يعمل على أساس معلومات في علم الشعوب ، معلومات إتنولوجية ، ثبت عدم صحتها ، كما قال هو بالذات بعد ذلك بوقت غير طويل [٥] .

ثالثاً ، كان انجلس يستخدم نظرية « الشعوب اللاتاريخية » ، التي تقول ان الشعوب التي لم تشكل البتة دولة في الماضي لا يمكنها أن تشكل دولة قابلة للحياة في المستقبل . هذه النظرية كانت واحـــدة من أضعف جوانب فلسفة هيغل حول الدولة ، وهي النظرية التي قطع ماركس وانجلس كل صلة لهما بها بشكل صريح . ومن المستغرب جداً أن يبعث انجلس فكرة هيغل هـذه بعد ذلك .

رابعاً ، كان على انجلس أن يحرّف التاريخ لكي يجعـــل هذه النظرية تنطبق على التشيكيين ، الذين لم يكونوا بأي حال من الأحوال بـلا تاريخ بالمعنى الهيغلي . وان انجلس بالذات قد لفت الانتباه في مكان آخر « إلى الحرب الفلاحية التشيكية تحت علَم ديني (هوسيت) ضد النبلاء الألمان والحكم الامبراطوري الألماني » [٦] .

خامساً ، حاول انجلس أن يبرر تأييده للمجريين ضد الكروات ، على أساس أن المجريين كانوا متطورين اقتصادياً . والحقيقة أنهم كانوا أقل تطوراً من الناحية الاقتصادية من التشيك ، ولم يكونوا أكثر تطوراً من الكروات ؛ فهم قد تعلموا – أي المجريين – أساليبهم الزراعية ، على ما كانت عليه ، من السلاف أولاً بأول . (ينقل هيرمان ويندل عن ميجو رادوشفيك قوله ان أسماء الأدوات الزراعية في اللغة المجرية مقتبسة من السلافية [٧]) . لقد كان

---

(٥) رسالة الى ويدماير ، ١٢ نيسان ١٨٥٣ .

(٦) فرانز ميهرنغ : «من التراث الأدبي لكارل ماركس وفريدريك أنجلس وفرديناد لاسال » ، شتوتغارت ١٩٠٢ ، المجلد ٣ ، ص ٢٣٨ .

(٧) هيرمان ويندل : «الماركسية ومسألة سلاف الجنوب» ، برلين ١٩٢٤ ، ص١٥٩ .

المجريون ما يزالون في طور ما قبل صناعي وما قبل تجاري ، كما كان حال البولونيين ، الذين أيدهم انجلس [٨] .

إن الافتراض بأن الشعوب السلافية في النمسا ستكون مخالب قط القيصر الروسي ، كان افتراضاً اعتباطياً تماماً . فقد عقد « مؤتمر سلافي » في براغ في ٣١ أيار (مايو) ١٨٤٨ ، وحضره ٣٤٠ شخصاً ، من بينهم ٢٣٧ تشيكياً وسلوفاكياً ، و٤٢ سلافياً جنوبياً ، و٦٠ بولونياً وروتينياً ، وروسياً واحداً ، (باكونين) ، لم يكن ممثلاً لروسيا القيصرية . وقد أعلن « بالاكي » ، الذي وجه الدعوة للمؤتمر ، بوضوح موقفه من الرابطة السلافية القيصرية :

« إننا مصممون على أن نبقى أوفياء لعائلة هابسبورغ – لورين . . . وعلى أن نحافظ على وحدة أراضي الامبراطورية واستقلالها بكل الوسائل التي نملكها . . . وبناء على ذلك ، فنحن نرفض جميع اتهامات الانفصالية أو الرابطة السلافية أو الروسية ، التي يمكن أن تنهال علينا من المتهمين سيئي النية » [٩] .

لم يكن القادة القوميون التشيكيون ، في ١٨٤٨ ، من أمثال بالاكي وهافليتشيك وريجر من أنصار الرابطة السلافية ، بل كانوا يملكون وجهة نظر تقدمية نسبياً [١٠] * ويرى روسدولسكي أن بضعة تنازلات لصالح

---

(٨) هـ. ويندل : « الماركسية ومسألة سلاف الجنوب » ، عن «المجلة السلافية» ، المجلد ٢ ، لندن ١٩٢٣ – ١٩٢٤ ، ص ٢٩٤ .

(٩) هاريسون تومسون : «قرن الوهم : الرابطة السلافية وسلاف الغرب » ، عن « مجلة شؤون اوروبا الوسطى » ، كولورادو ، العدد ١١ ، كانون الثاني – نيسان ١٩٥١ ، ص ٦٠ .

(١٠) ر. شليسنغر : « النزعة الاتحادية في اوروبا الوسطى والشرقية » ، لندن ١٩٤٥ ص ١٦٠ – ١٦١ .

* وعلى كل حال ، فان أعضاء هذه الجماعة ، كما يشير أوتو باور بعد ذلك بوقت طويل ، لم يرتفعوا فوق مستوى أصولهم الطبقية . كان « بالاكي » معارضاً لحق الانتخاب بدون قيود ، وقد حارب الشيوعية بالحجة القديمة حول عدم مساواة الجنس البشري ، وتكلم عن ←

تطلعاتهم الوطنية الناشئة ، مضافاً إليها بعض الاصلاحات الاقتصادية التي حان أوانها منذ زمن ، كان يمكن أن تضعهم في صف الثورة ضد الرجعية الروسية . والتنازلات التي قدمها المجريون إلى الكروات كانت قليلة جداً وبالغة التأخر [١١] .

يفترض عادة أن حكم انجلس القاسي على الكروات إنما كان بسبب اشتراك الجنود الكرواتيين في قمع ثورة اوكتوبر في فيينا، مع أن الجنود الناطقين بالالمانية شاركوا أيضاً في القمع ، ولم يفسر أحد أبداً لماذا كان موقفه من الجنود (الانفار) السلاف أشد قسوة من موقفه من ضباطهم الالمان . ولقد بينت البحوث اللاحقة أن هذا الحكم السلبي إزاء السلاف قد تكوّن في وقت سابق. فمراسل « الصحيفة الرينانية الجديدة » في مدينة بست ، الذي زوّد ماركس وانجلس بالمعلومات عن الحالة في المجر ، كان قد عرض منذ البدء وجهة نظر متفقة مع الدعاية المجرية التي ترفض كل مطالب سلاف الجنوب المتعلقة بتأكيد قوميتهم ، والتي تؤكد أن مخاوف سلاف الجنوب لا مبرر لها [١٢] . ولم يصحح محررو المجلة وجهة النظر هذه .

ثمة نقد سادس هام يمكن أن يوجه إلى موقف «الصحيفة الرينانية الجديدة»، وذلك لأنها أيدت قرار « رايخستاغ فيينا » (١١ أيلول ١٨٤٨) في جعل الالمانية اللغة الوحيدة في مناقشاته . وبنتيجة هذا القرار فإن بضع عشرات من النواب البولونيين والاوكرانيين والرومانيين لم يعد لهم صوت فعال فيه ، رغم أنه قد كان لهم الفضل في أنهم استطاعوا المشاركة من المناقشات إلى حدٍ

← البروليتاريا بوصفها الخطر الداهم في العصر . كما حارب «هافليتشيك» الاشتراكية ، وبينما كان يعلن تأييده لحق الانتخاب بلا قيود ، كان يعتقد أن ذلك يجب أن تصحبه مؤهلات الملكية الخاصة (أوتو باور : « المسألة القومية والاشتراكية الديمقراطية » ، الطبعة الثانية ، فيينا ، ١٩٢٤ ، صفحة ٢٣٣ — ٢٣٤) .

(١١) ويندل : « مجلة السلافية » ، العدد ٢ ، ص ٢٦١ .

(١٢) روسدولسكي : « فريدريك انجلس ... » ص ١٠٨ .

ما . وكان فلاح من غاليسيا ، اسمه سادكا ، قد أنحى باللوم على النبلاء لأن الفلاحين لا يستطيعون الكلام بغير لغتهم ولهجتهم ؛ إذ لم تتح لهم فرصة الذهاب إلى المدرسة وتعلُّم اللغة الالمانية . خلال الثورة الفرنسية ، ربط بعض قادة اليعاقبة لغة الأقليات بالخرافات والرجعية ،وقد حرم عليهم التحدث بلغاتهم الأصلية في عهد حكم الائتلاف عام ١٧٩٣ . وقد أيد انجلس تحريم لغات الأقليات في فيينا ؛ ولكن في ظروف كانت مختلفة [١٣] .

في مواجهة الاختيار الصعب ، اتخذ القادة التشيك والكروات قراراً خاطئاً : فقتالهم في سبيل الحفاظ على الملكية النمساوية – المجرية كان قتالاً ضد حريتهم بالذات . لكن انجلس ذهب في إدانتهم إلى أبعد مما كانت تستدعيه الظروف. فلدى السلاف من الأسباب ما يبرر عدم ثقتهم بالبورجوازية الالمانية ، التي كان لديها برنامج يستهدف بناء المانيا الكبرى ؛ وبعض الالمان الديمقراطيين كانوا يريدون إقامة أمبراطورية المانية تمتد حتى البحر الأسود . هنا لم يُضِيع ماركس وانجلس فرصة إلا وتوجّها بها بالنقد والسخرية إلى القيادة البورجوازية في «مؤتمر فرنكفورت» ؛ لكنهما كانا ما زالا منضمين إلى الجناح القومي الديمقراطي (ويمثل أقصى اليسار) ، وقد هوجما على أساس انهما لم يتخليا تماماً عن الأهداف القومية لهذا الجناح ، ولأنهما لم يقدما برنامجاً ايجابياً للتشيك والكروات .

يرى ليختهايم أن ارتباك موقفهما من المسألة القومية كان سبباً رئيسياً للانشقاق، الذي استمر حتى العام ١٨٧٥ في صفوف العمال الالمان ، بين أنصار بروسيا ومعارضيها [١٤] . بيد أن ليختهايم يشتط ويغالي في نقده ، وذلك

---

(١٣) المصدر السابق ، ص ٩٩ – ١٠١ .

(١٤) جورج ليختهايم : « الماركسية : دراسة تاريخية ونقدية » ، لندن ، ١٩٦١ ، ص ٧٤ .

لأن ماركس قد شجب التعصب النمساوي عند ولهلم ليبكنخت والايزناخيين* بدرجة لا تقل شدة عن شجبه النزعة القومية البروسية عند لاسال .

في أواسط القرن التاسع عشر بدأ سلاف الجنوب يتغلغلون في مدن أوروبا الشرقية ، رغم أنهم بقوا محرومين من الوظائف التي يحتلها عمالها المهرة . لقد كان موقف انجلس إزاء السلافيين الجنوبيين ، حسب ما يقول رودولف شليسنغر ، يساعد ويطمئن الالمان الذين كانوا يريدون الحفاظ على احتكارهم للوظائف التي تحتاج إلى مهارة ، ويميل إلى أن يضع الماركسية في الجانب المحافظ من ذلك الصراع غير المبدئي (١٥) . هذه بكل تأكيد تهمة متحيزة بعيدة عن الحقيقة .

لقد نوهنا في الفصل السابق بأن ماركس وانجلس كانا يحبذان فصل أو فسخ المملكة النمساوية – المجرية ، ولكن ليس وفق الخطوط أو الحدود التي اعتُمدت في النهاية . ولم يكن لديهم اعتراض على استمرار هذه المملكة ثنائية القومية ، وقدرا أن ثمة إمكانية في أن تصبح دولة موحدة من خلال التأثيرات الموحدة للمواصلات والتجارة . كتب انجلس في كانون الثاني ١٨٤٨ :

« إن جدران الغرانيت» التي يدافع من ورائها كل إقليم عن قومية منعزلة ووجودٍ محلي محدودٍ ، قد بدأت تكف عن أن تكون سياجاً مغلقاً . فمنتجات الصناعة الكبيرة والآلات أخذت تخترق فجأة ودون كلفة نقل تقريباً أقصى زاوية في المملكة ، وتقضي على العمل اليدوي القديم ، وتقتلع البربرية الاقطاعية من جذورها . إن تجارة الاقاليم فيما بينها ، والتجارة مع العالم الخارجي المتمدن ،

---

* الايزناخيون هم أعضاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني الذي تأسس في العام ١٨٦٩ في مؤتمره التأسيسي بمدينة إيزناخ. وكان بيبل وليبكنخت زعيمي الايزناخيين ومتأثرين فكرياً بماركس وانجلس . وكان هناك حزب اشتراكي ديمقراطي الماني آخر زعيمه لاسال ، كان ايجابياً إزاء وحدة المانيا في ظل قيادة بسمارك . «م» .

(١٥) ر. شليسنغر : « ماركس : عصره وعصرنا » ، لندن ١٩٥٠ ، ص ٣٣٤ .

أخذت تشغل مكانة لم تُعرف في السابق ... والانخراط في سائر حقول نشاطات الدولة وفي أحداث العالم الخارجي أخـــذ يصبح أمراً ضرورياً . وأخذت البربرية المحلية تزول »[١٦] .

سارت تأملات ماركس في الخط نفسه من حين لآخر[١٧] . لكن عندما اقترحت إحدى لجان المجلس الاستشاري النمساوي (لاندتاغ) في العام ١٨٤٩ منح الحكم الذاتي للكروات والسلوفينيين والدلماسيين داخل المملكة النمساوية – الهنغارية ، رفضت « الصحيفة الرينانية الجديدة » هذه المبادرة .

يعتقد رودولف شليسنغر أن انجلس قد تراجع مع الأيام بعض الشيء عن رأيه غير المؤيد لسلاف الجنوب ، بما فيهم سلاف البلقان[١٨] . ولكن من الصعب أن نأخذ بهذا الكلام ، إذ أن انجلس قد ردد في وقت متأخر ، في العام ١٨٨٢ ، في رسالة له إلى برنشتاين ، أحكامـــه غير الملائمة ودافع عن الموقف الذي اتخذه في العام ١٨٤٨ ، وهو الموقف غير المبرر[١٩] . وفي رسالة إلى بيبل في العام ١٨٨٥ ردّد تجريحات هيغل لسلاف البلقان[٢٠] . وقـد قال في رسالة إلى كاوتسكي ، في ١٨٨٢ ، أنه لا يجب السماح لدولة سلافية في البلقان أن تقف في طريق سكة حديدية تصل بين المانيا والقسطنطينية[٢١] .

لقد تأمل انجلس مستقبل الامبراطورية النمساوية – المجرية عند انتصار ثورة اجتماعية ظافرة في روسيا ، وقال : في هذه الحالة ستتفكك هـــذه الامبراطورية ثنائية القومية من تلقاء ذاتها ، وذلك لأنها لم تحافظ على تماسكها إلا لحاجتها إلى مقاومة الأتراك ، ثم خوفاً من سيطرة روسيا بعد ذلك .

---

(١٦) ميغا ، المجلد ٦ ، ص ٥٠٨ .

(١٧) مقال لماركس في جريدة : « نيويورك هيرالد تريبيون » ، ٩ حزيران ٨٥٩ .

(١٨) شليسنغر : « النزعة الاتحادية ... » ص ١٥٧ .

(١٩) « المراسلات بين انجلس وبرنشتاين » ، برلين ١٩٢٥ ، ص ٥٥ .

(٢٠) « المراسلات بين انجلس واوغست بيبل » ، برلين ١٩٦٥ ، ص ٢٤٤ .

(٢١) « رسائل انجلس إلى كاوتسكي » ، فيينا ١٩٥٥ ، ص ٥٣ .

ولقد اعتقد انجلس أن ثمة إمكانية لتشكل دولة سلافية جديدة حول الصرب . ولم يكن خائفاً من انجراف دولة كهذه في فلك الرابطة السلافية . فقد أشار إلى أنها ستملك مصالح تتعارض مع قيصر روسيا [٢٢]. أما بالنسبة إلى الأتراك فقد ثبت أنهم غير قادرين على تطوير وانماء المنطقة .

لا يبدو أن استنتاجات انجلس كانت مستخلصة من المعلومات الأولية التي عرضها . فهو يدرك إدراكاً كاملاً أن سلاف الجنوب ضعفاء ومنقسمون على أنفسهم :

« لقد كانت نزعة الرابطة السلافية – النمساوية تفتقر إلى جميع عناصر النجاح . لم تكن تملك لا القوة ولا الوحدة في آن : كانت تفتقر إلى القوة لأن حزب الرابطة السلافية لم يكن يضم سوى جزء من الطبقات المثقفة فقط ولم يكن يمسك بقيادة الجماهير ، فضلاً عن أنه لم يكن يملك قوة قادرة على مقاومة كل من الحكومة النمساوية وكذلك القوميتين الألمانية والمجرية حيث دخل حلبة الصراع ضدها؛ وكانت تفتقر إلى الوحدة لأن مبدأها التوحيدي كان أمراً طوبوياً يتحطم عند أول محاولة لتحقيقه بسبب الاختلافات في اللغة »[٢٣].

فهل تتحد هذه العناصر الخطرة ، وتجتاح أوروبا بكلمة واحدة من القيصر ، كما تنبأ ماركس وانجلس مراراً [٢٤] .

---

(٢٢) من مقالة لانجلس نشرت في جريدة « نيويورك تريبيون » بتاريخ ٢١ نيسان ١٨٥٣ .

(٢٣) انجلس : « المانيا والرابطة السلافية » ، المؤلفات ، المجلد ١١ ، ص ١٩٧ . ولقد نشر هذا المقال للمرة الأولى في « صحيفة الأودر الجديدة » ، بريسلو ، ٢٤ نيسان ١٨٥٥ . وعندما أعيد نشره في جريدة « نيويورك تريبيون » بتاريخ ٧ أيار ١٨٥٥ تحت عنوان : « ضعف النمسا » جرى تعديل بعض فكراته .

(٢٤) « المؤلفات » ، مجلد ١١ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ ، ولقد أعيد نشر الجزء الأول من المقال المذكور قبلاً في جريدة « نيويورك تريبيون » ، ٥ أيار ١٨٥٥ ، مع بعض التعديلات أيضاً .

إن الخوف الذي لازم ماركس من الرابطة السلافية وعدم ثقته بالقيصر الروسي لا يمكن بالطبع أن يفسرا كعداء دائم لروسيا أو للشعب الروسي. وعلى هذا فإن ظهور المجلد الصغير، «التهديد الروسي لأوروبا»، مؤخراً، ليردد بعض هجمات ماركس العنيفة على روسيا القيصرية ويوحي بأنها تنطبق على الاتحاد السوفياتي – هذا الأمر يبدو مدعاة للضحك [٢٥]. ومدعاة إلى الضحك أيضاً طبع مجموعة أخرى من كتابات ماركس تحت عنوان «موقف ماركس من روسيا» [٢٦].

يبدو أن كلاً من ماركس وانجلس قد احتفظ باعتقاد معيّن حول رسالة المانيا التمدينية في أوروبا الشرقية. بـل لقد تذبذب انجلس في إخلاصه لهدف استقلال بولونيا الذي أيده هو وماركس في أيام «الصحيفة الرينانية الجديدة». وتكلم في رسالة معروفة جيداً إلى ماركس عن بولندا كأمة ميؤوس منها nation fautue، واستنتج بعد إبداء أحكام سافرة عديدة أنه هو وماركس لا يقبلان أية التزامات ايجابية نحو بولونيا سوى الالتزامات التي لا مناص منها [٢٧].

ومع ذلك فإن انجلس كان بعيداً عن الاعتقاد بـ «عرق سيد»، فكان يشير باستمرار إلى الألمان في المدن البولونية بوصفهم «Spiessburgers»، وهو تعبير ازدرائي يطلق على من هو غليظ ومنتم إلى الطبقة الوسطى من سكان المدن في المانيا. إلا أنه انكفأ إلى ثرثرة شوفينية في أكثر من مناسبة. وقد كتب في العام ١٨٥٢ في جريدة «نيوريوك تريبيون»:

«إن تاريخ ألف عام ينبغي أن يبين لقوميات في طريق الزوال، قوميات البوهيميين والكارنيثيين وغيرهما، انه إذا كانت منطقة

---

(٢٥) نشره بلاكستوك وهوزلير. كلانكو، ١٩٥٢.
(٢٦) نشره دورينغ. نيويورك ١٩٦٢.
(٢٧) رسالة مؤرخة في ٢٣ أيار ١٨٥١.

شرقي الألب والسال كافة قد وقعت في وقت ما تحت حكم أقربائهم السلوفينيين ، إلا أن هذه الواقعة تكفي لإثبات **النزوع التاريخي للأمة الالمانية وقدرتها المادية والفكرية** على إخضاع وتمثل جيرانها القدماء ، وهذا النزوع نحو التمثل عند الألمان كان دائماً ، وما يزال، واحـــداً من أقوى الوسائل التي انتشرت بواسطتها مدنية أوروبا الغربية في شرقي القارة ، ولن تتوقف هذه العملية إلا عندما تصل عملية « الجرْمنة » إلى حدود أمة كبيرة متراصة متلاحمة ، وقادرة على المضي في حياة قومية مستقلة ، كالأمة المجرية ، والبولونية إلى درجة ما . وعلى هذا فإن القدر الحتمي والطبيعي لتلك الأمم الآيلة إلى الزوال هو أن تفسح المجال لعملية تذويبها وتمثّلها في جيرانهـا الأقوياء لكي تكمل نفسها » [٢٨] .

ثمة إغراء إذن للنظر إلى ماركس وانجلس وكأنهما غير متعاطفين مـع مشاكل وتطلعات القوميات الصغيرة في اوروبا الوسطى والشرقية . وهذه ، بالتأكيد ، وجهة نظر بعض أحسن الباحثين الحديثين اطلاعاً ، ومعهم بعض الماركسيين . وبالمقابل فإن هناك وجهة نظر أخرى ترى أن ماركس متفهم لتطلعات السلاف القومية في تلك المنطقة (أوروبا الوسطى والبلقان) ، ومؤمن بأن منافسات الدول الكبرى تحول دون نجاح أية حركة من أجـــل الاستقلال فيها ، آنئذ على الأقل .

لكي نحسم هذه المسألة ، يمكن أن نلقي نظرة على ملاحظات ماركس حول رومانيا ، وهي ملاحظات دوّنها ماركس لاستخدامها في مقالاته في « نيويورك تريبيون »، التي كان مراسلها في الخمسينات من القرن التاسع عشر. لقد نشرت هذه الملاحظات مكتوبة بأسلوب وبلغة ماركس الخاصين متعددي اللغات حيث كان يستعمل الانجليزية والفرنسية والالمانية سوية ، وفي جمـلة

(٢٨) نيسان ١٨٥٢ ، المؤلفات ، المجلد ٨ ، ص ٨١ .

واحدة أحياناً . ولقد كتبها ماركس عندما كان يحضّر المواد الأولية لمناقشة أحابيل القيصر الروسي في البلقان .

يبدو واضحاً منذ الوهلة الأولى أن ماركس كان عميق التعاطف مع نضال الفلاحين المستَغلين في تلك المنطقة . فهو قـــد تتبع الطريق التي سلكوها للتخلص من مضطهِد (تركيا) ليقعوا فريسة آخر (روسيا القيصرية) . وفيما يخص التطلعات القومية ، لاحظ ماركس أن ثمة حركة أدبية رومانية تعود أصولها إلى القرن الثامن عشر : « عندما حُظرت اللغة الرومانية في والاسيا ومولدافيا ، حافظ الرومانيون في ترانسلفانيا بأمانة على لسان أسلافهم » [٢٩] . هل يخطر في البال أن هذه افكار رجل يتوقع امتصاص « أشلاء الامم الصغيرة » في جيرانها الأقوياء و « الأكثر تقدماً » ! لا نعتقد ذلك . فعواطف ماركس الأساسية لم تكن موضع تساؤل ، مهما كان تأثير مقتضيات سياسات الدول الكبرى على أحكامه في الحالات الخاصة والعيانية . ينبغي دعم الضعفاء والمستَغلين وتشجيعهم في نضالهم : هذه هي الرسالة التي تشعّ من كل صفحة في هذه الملاحظات فائقة الأهمية . وبالمقابل ، فإن انجلس قد هزأ بدعوة الرومانيين التي أعلنوها في سبيل قومية مستقلة ووجود قومي مستقل .

إن انجلس ، الذي أصابه بحق الكثير من سهام النقد القاسي الموجّه إليه بسبب بعض آرائه حول مشكلات اوروبا الشرقية ، قد وقع في أخطاء تعود في غالب الأحيان إلى سوء اطلاعه على أحوال المنطقة أكثر منها إلى موقفه من مصير سكانها السلاف . ولقد أصيب بصدمة عندما اكتشف أن مطالبته بأن تكون حدود بولونيا هي الحدود المرسومة في عام ١٧٧٢ ، إنما كانت تعني عمليـــاً الدعوة إلى سيادة بولونيا في مناطق لم تكن أكثريتها بولونية . وبالفعل فقد كتب يعتذر في رسالة إلى ويد ماير :

---

(٢٩) نشر هذا النص في بوخارست عام ١٩٦٤ ، نقلاً عن المخطوط الأصلي الموجود في المعهد الدولي للتاريخ الاجتماعي في امستردام .

«أما بخصوص المناطق البولونية السابقة في هذه الجهة من (نهري) « الدفينا » و« والدنيبر » ، فإنني لم أعد أريد أن أسمع شيئاً أكثر مما قيل بعدما علمت أن الفلاحين هناك أوكرانيون ، بينما النبلاء ، بالاضافة إلى بعض سكان المدن ، بولونيون ، وان إعادة بولونيا إلى وضعها السابق ستكون بالنسبة للفلاحين هناك مجرد عودة كاملة الى حكم النبلاء القديم ، كما كانت الحالة في غاليسيا الاوكرانية عام ١٨٤٦. هناك ، في جميع هـــذه المناطق ، أي خارج مملكة بولونيا بمعناها الضيق ، يعيش ما يقرب من ٥٠٠,٠٠٠ بولوني » * .

لكنه عاد بعد ١٣ عاماً الى المعسكر الامبريالي البولوني ، مطالباً بإعادة بولونيا الى وضعها السابق في حدود العام ١٧٧٢ .

لم يكن لدى انجلس أي اعتراض من نوع معيَّن على الدولة متعـــددة القوميات في حد ذاتها . فقد كتب في العام ١٨٦٦ : « ليس في أوروبا بلد واحد لا يحوي قوميات عديدة تحكمها حكومة واحدة ... وعلى الأرجح سيبقى الأمر كذلك إلى الأبد » . إن احتواء أجزاء صغيرة من أمة معيّنة في دولة مجاورة ، عندما ترغب هذه الأجزاء في الانفصال ، هو أمر مفيد من وجهة نظر الأمة الكبيرة ، في رأي انجلس ، لأن هذه الحالة توطد الصلة بين تلك الأمة والأمم المجاورة ، وتنوِّع « ما هو ، في غير تلك الحالة ، تماثلاً رتيباً جداً للخاصية القومية » .

ولكن انجلس يضيف قائلاً ان من السخف المطالبة بأن تشكل كل « بقايا هذه الشعوب الصغيرة » في شرقي اوروبا أمة منفصلة ، ودعـــا الى إعادة

---

* كان من العدل أن يلفت روسدولسكي الأنظار إلى هذه الرسالة ، وهو الذي عهدناه يدعم على العموم نقده لانجلس بالوثائق . أنظر مقالته : « فريدريك انجلس ... » صفحة ١١٩ ، عدد ٤٧ . رسالة انجلس في ٢ نيسان ١٩٥٣ ، منشورة في « رسائـــل مختارة لماركس وانجلس » ، بالانجليزية ، موسكو ، ص ٩١ .

توحيد البولونيين والليتوانيين والروس البيض وأهالي روسيا الصغرى في «دولة مؤلفة من أربع قوميات على الأقل »[٣٠] .

باكونين والجامعة السلافية وحق تقرير المصير

كان لباكونين أفكار خاصة حول الجامعة أو الرابطة السلافية. فهو الذي أطلق فكرة دقرطة روسيا وتحرير السلاف في بقية أوروبا من أغلالهم . وهذه الفكرة بالتالي هي ضرب من « الرابطة السلافية الديمقراطية » . وبدلاً من أن يفقد سلاف وسط وجنوب شرق أوروبا هويتهم السلافية ، يجري توحيدهم مع اخوانهم سلاف شرقي اوروبا في اتحاد ديمقراطي .

لقد وقف باكونين بشكل قاطع الى جانب مبدأ تقرير المصير . ونقطة انطلاقه تشبه ، ظاهرياً ، شبهاً كبيراً نقطة انطلاق ماركس وانجلس . وفي حين أن انجلس كان يقول : « لا يمكن لأمـــة أن تكون حرة في وقت تضطهد فيه أمماً أخرى » (١٨٤٧) ، كان باكونين يقول في كتابـــه ، « نـــداء إلى السلاف » (كوثن ، ١٨٤٨) : « لا يمكن ضمان رفاه الأمم ما دام ثمة شعب واحد في أية بقعة من اوروبا يعيش مضطهَداً »[٣١] . وبما أن جوهر الشيوعية هو التحرر من الاضطهاد ومحو الاستغلال ، لذا فإن باكونين إنما يطبق ، في دعوته الى تقرير المصير ، بطريقة ما ، مبدأ الوقوف الى جانب المستضعفين تطبيقاً أكثر استقامة من ماركس وانجلس بالذات . ولكنه فعل ذلك بشكل سلفي غريب : باسم « الحق الطبيعي » . فقد دعـا الى انحلال جميع الامبراطوريات التي تكونت بالقوة ، وسعى الى إقامة اتحاد للجمهوريات الاوروبية بدلاً عنها :

---

(٣٠) انجلس : « في الكومنولث » ، لندن ، ٣١ آذار و ٥ أيار ١٨٦٦ ، وهي منشورة في المؤلفات ، المجلد ١٦ ، ص ١٥٧ — ١٦١ .

(٣١) باكونين : « نداء الى السلاف » ، براغ ، ١٩٣٦ ، ص ٢٧ .

« لتسقط الحدود المصطنعة التي نصبتها بالقوة تجمعات استبدادية على أساس ما يدعى بالضرورات التاريخية والجغرافية والاستراتيجية! ينبغي أن لا تبقى بعد الآن حواجز بين الأمم إلا تلك التي تطابق الطبيعة والعدالة ، وتُرْسَمُ وفق اتجاه ديمقراطي تعبّر عنه إرادة شعب ذي سيادة على أساس خصائصه القومية » [٣٢] .

ستزول الدولة كأداة للقمع السياسي في مجتمع المستقبل الحر الذي تصوره باكونين . سيكون ثمة أمم بكل تأكيد ، ولكن ككينونة حضارية وثقافية واقتصادية ، ولن تمتلك الأداة أو الوسائل لاخضاع الأمم الأخرى . ستبقى الوطنية ، وستؤدي إلى تنوع شيّق ثمين ؛ لكن الولاء الحق للانسانية سيتجه الى الانسانية ككل [٣٣] .

إن نتيجة حركة الرابطة السلافية الديمقراطية ستكون بكل تأكيد تحرير سلاف الجنوب والتشيك من سيطرة المجريين والنمساويين والأتراك . إلا أن باكونين لم يكن مؤيداً لسيطرة جديدة تفرضها روسيا حتى إذا تغيرت . فقد كتب في عام ١٨٦٢ :

« إنني أطلب شيئاً واحداً فقط : أن يكون لكل شعب ، لكل قبيلة صغيرة كانت أم كبيرة الحق بأن تفعل ما تشاء طبقاً لإرادتها . إذا أراد شعب أن ينضم الى الروس أو البولونيين فلينضم إليهم . أيريد أن يكون عضواً مستقلاً في اتحاد سلافي مشترك ، بولوني أم روسي ؟ فلندعه يصل الى ذلك . أخيراً ، هل يريد أن ينفصل نهائياً عنهم جميعاً ويحيا في دولة مستقلة ومنفصلة تمام الانفصال ؟ فلندعه ينفصل بحقّ الله » [٣٤] .

---

(٣٢) المرجع السابق .

(٣٣) صموئيل ريزنيك : « سياسة باكونين ونظريته الاجتماعية » ، « مجلة العلوم السياسية الأمريكية » ، العدد ٢١ ، أيار ١٩٢٧ ، ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٣٤) نشرها هرزن ، لندن ، ١٥ شباط ١٨٦٢ ، ص ١٠٢٧ .

ما يحرك ماركس وانجلس ، وكذلك أنصارهما ، لم يكن نداءات كـ«بحق الله»،وقد كانا ، بالاضافة الى ذلك، نافدي الصبر بالنسبة لنظرية الحق الطبيعي . إن تكوّنهما الفكري على المنهج الهيغلي جعلهما يتكلمان عن الحق لا عن الحق الطبيعي . ولقد أدركا أن الحق نسبي في الزمان والمكان، وهو يقيّم على ضوء الاسهام الذي يؤديه في التطور الجدلي للمجتمع نحو غايته ، أي نحو الشيوعية ، كما كانا يعتقدان .

قال انجلس أن الجمهورية الاتحادية الاوروبية المأمولة لن تتحقق إلا من خلال معارك دامية . والواقع أن نقده لفكرة باكونين الضبابية كان نقداً مدمراً . لكن باكونين كان ، بالرغم من ذلك ، أكثر واقعية من القوميين الرومانسيين . فقد رأى في القومية حقيقة واقعة ، لا مجرد مبدأ : « الحق القومي هو بالنسبة إليّ نتيجة طبيعية لمبدأ الحرية الأسمى ؛ وعندما يقف عقبة في وجه الحرية ، فإنه يكف عن كونه حقاً » [٣٥] .

لقد أيد باكونين استقلال السلاف الثقافي ضد محاولات الالمان لتكييفهم ثقافياً ، وهي المحاولات التي استمرت ألف عام وفشلت . وقد كتب ساخراً وهو يشير اشارة خاصة الى انجلس :

> « إن سائر أنصار الرابطة السلافية هم في أعين الالمان سلاف يرفضون رفضاً غاضباً ومشاكساً الثقافة التي يريد (الالمان) فرضها عليهم . إذا كان هذا هو المعنى المعطى لكلمة « الرابطة السلافية » فإنني من أنصار الرابطة السلافية من صميم القلب » [٣٦] .

في عامي ١٨٤٨ – ١٨٤٩ كان الدور الموضوعي للالمان والمجريين والبولونيين دوراً ثورياً على العموم ، بينما ساعد قتال سلاف النمسا – هنغاريا الثورة المضادة . وكان باكونين مستعداً لكي يضحي بسلافيته على مذبح ثورة ١٨٤٨

---

(٣٥) نقلاً عن روسدولسكي ، مرجع مذكور قبلاً ، ص ٢٣٤ .

(٣٦) باكونين ، المؤلفات ، المجلد ٣ ، ص ٩٢ .

– ١٨٤٩ كما طلب المجلس. ولقد رمى من وراء كل من « دعوتيه الى السلاف» الى تعبئة دعمهم لكوشوت والديمقراطيين الالمان ضـــد القيصر والرجعيين النمساويين : « لا تسمح الثورة بالسير نصف الطريق ولا بالمهاحكة ... ومن الواضح اننا يجب أن نعلن موقفنا وأن نكون،في هنغاريا ، الى جانب المجريين ضد ويند شكراتز*[٣٧] . وعندما دخل الروس ، صاح باكونين : « أطردوا القادة الخونة ! » [٣٨] .

ولهذا كان لدى باكونين الفطنة لكي يدرك النتائج المضادة للثورة التي كان يمكن أن تؤدي إليها نزعة « السلافية الديمقراطية » . لكن هـل بقي يؤمن بالرابطة أو الجامعة السلافية كغاية في حد ذاتها ، بلا زركشات وبلا علك .

لقد كتب باكونين بعض المقاطع الغنائية حول خصائص الشعب الروسي على نحو يضاهي أقوال هيغل عن الالمان :

« الروسي ليس فاسداً ؛ إنه عديم الحظ فقط . فطبيعته نصف البربرية تنطوي على كثير من النشاط والانفتاح ، ووفرة من الشعر والعاطفة والروح ، التي يستحيل معها أن نعرفه دون أن ندرك أن له رسالة عظيمة يجب أن يؤديها في هذا الزمان » [٣٩] .

في العام ١٨٦١ تجاوب باكونين،كقومي روسي (باسم روسيا الديمقراطية المقبلة ، بالطبع) ، مع فكرة كانت تلوح في الأفق آنذاك ، وتقضي بضم النمسا – هنغاريا في دولة إتحادية يسود فيها العنصر السلافي . فقـــد كتب

---

* جنرال نمساوي قمع الثورات المجرية والبوهيمية آنذاك .

(٣٧) باكونين ، مرجع مذكور قبلا ، ص ٣٩ .

(٣٨) ج . سيجشان : « باكونين في بوهيميا » ، ١٩٢٨ ، ص ١٩٣ ، ١٩٦،١٩٨ .

(٣٩) هـ. لاغارديل : « التناقضات القومية عند ماركس وباكونين » ، في مجلة «الحركة الاشتراكية » ، العدد ٢٥١ – ٢٥٢ ، أيار – حزيران ١٩١٣ .

باكونين الى كاتكو قائلاً : إذا أصبحت النمسا سلافية ، « فإلى ماذا تصير روسيا ؟ هل تعتقد أن بولونيا ستبقى مجزأة ؟ هذا مستحيل ؛ ستتحد تحت رعاية النمسا — السلافية ، وستأخذ منا (كذا) ليتوانيا وروسيا البيضاء وأوكرانيا وروسيا الصغرى ، واحدة بعد الأخرى » [٤٠] .

وكما أن ماركس وانجلس كانا يُنسبان ، ولو نسبةً بعيدة ، إلى صف التوسعيين الالمان الذين كانوا يحلمون بدولة المانية (تقدمية) تمتد حتى البحر الأسود ، كذلك اعترف باكونين في العام ١٨٥٧ بأن لديه رؤى عن امبراطورية الشرق « المتحدة الحرة » ، كدولة فيدرالية لكل السلاف ، « عاصمتها القسطنطينية » [٤١] . لكن الأتراك ليسوا بسلاف ! وكان لدى باكونين شعور دائم بأنه روسي ؛ فقد كتب (أيضاً في ١٨٥٧) : « كلما ازداد بقائي في الخارج ، ازداد شعوري عمقاً بأنني روسي وبأنني لن أكون غير ذلك » [٤٢] . من الممكن مقارنة هذا القول بما قاله باكونين في العام ١٨٦٨ عندما كتب إلى ماركس : « الأممية هي وطني الآن » .

في العام ١٨٦٥ ، طرحت أمام مجلس (كونفرنس) لندن للأممية الأولى مسودّة برنامج لمؤتمر يعقد في جنيف في العام ١٨٦٦ . أشار هذا البرنامج ، الذي كتبه ماركس ، إلى «الغزو المسكوفي»لأوروبا في مقطع يهاجم امبريالية القيصر . وقد لاقى ذلك المقطع نقد الفرنسيين والبلجيكيين باعتبار أنه تناول الروس وحدهم ، بينما يجب إدانة جميع الدول الامبريالية . فعُدِّل النص واستبدل تعبير « الغزو المسكوفي » بتعبير « النفوذ الروسي » . وقد هاجم باكونين،الذي لم ينتسب الى الاممية الاولى إلا في العام ١٨٦٨، ماركس

---

(٤٠) رسالة من باكونين إلى كاتوف ، ٢ كانون الثاني ١٨٦١ .

(٤١) باكونين : « اعترافات » ، باريس ، الطبعة الرابعة ١٩٣٢ ، ص ١٦٦ .

(٤٢) باكونين : « اعترافات » ، الطبعة الرابعة ، باريس ١٩٣٢ ، ص ١٦٦ .

بحجة أن هذا الأخير قد سعى في المقطع المشار إليه الى جر الأممية الى موقف معادٍ لروسيا [٤٣] .

وكما أن ماركس وانجلس كانا يرسمان مخطط مستقبل أوروبا على أساس قيام المانيا الموحدة الديمقراطية ، كذلك كان باكونين يسعى دومـــاً لاستمالة زملائه أو رفاقه في أوروبا الغربية الى دولته السلافية الديمقراطية المقبـلة . ومن هذه الزاوية كان يجـــدد أو يقيم علاقات الصداقة مع القادة القوميين الايطاليين ، كغاريبالدي ومازيني وأوريلو سافي . بيد أن باكونين قـد قرر فيما بعد أن مازيني ليس صديقاً للثورة الاجتماعية ، فتحولت الصداقـــة الى عـداء [٤٤] .

انتقد ماركس باكونين لأنــــه جعل « الإرادة لا الظروف الاجتماعية » أساســـاً لثورتـه الاجتماعية : « انه يريد للثورة الاوروبية الاجتماعية ، القائمة على أساس أسلوب الانتاج الرأسمالي ، أن تحدث على المستوى الزراعي أو الرعوي للشعب الروسي أو السلافي، لا أن ترتفع فوق هذا المستوى» [٤٥].

لقد أيد ماركس فعلاً اشتراك الفلاحين في الثورة الاشتراكية ؛ ولم يقف عند هذا الحد ، بل اعتبر ذلك أمراً ضرورياً حتى فيبلد متقدم كألمانيا. وقد كتب الى انجلس في العام ١٨٥٦ : « كل شيء في ألمانيا يتوقف على إمكانية دعم الثورة البروليتارية بطبعة ماثانية لحرب الفلاحين » [٤٦] .

تلمّح هذه الصيغة إلى أن حرب الفلاحين تنطوي على نزوع اشتراكي .

---

(٤٣) آرثر ليهننغ : « باكونين والتزاعات داخل الاممية ، ١٨٧٢ » ، ليدن ١٩٦٥ ، ص ١٣ — ١٤ .

(٤٤) اديث ديير سميد : « تأثيرات باكونين في الفوضوية الايطاليـــة » ، زوريخ ، ١٩٦٥ ، ص ٢٤ .

(٤٥) « الحوليات الماركسية » (الروسية) ، العدد ٢ ، موسكو ١٩٢٦ ، ص ٩٤ .

(٤٦) رسالة مؤرخة في ١٦ نيسان ١٨٥٦ .

إلا أن دراسة انجلس لهذه الحروب توضح بجلاء أن الفلاحين الذين ثاروا ضد الملاكين الاقطاعيين في بداية العصور الحديثة لم يكونوا يملكون فلسفة اجتماعية، بل لم يكونوا متماسكين (٤٧) .

كان باكونين مهتماً بتنظيم الفلاحين على أسس اشتراكية ؛ ففي ايطاليا ، حيث عمل سنوات عديدة ، أولى اهتماماً كبيراً للفلاحين ، وأرسى في الجزء الأوسط الشمالي من البلاد قواعد التنظيم الاشتراكي الفلاحي الذي استمر قائماً حتى أواسط القرن العشرين. صحيح أنه في غياب مثل هذا التنظيم التمهيدي ستنتهي الانتفاضة الفلاحية في روسيا ، مثلاً ، الى ما انتهت إليه انتفاضات « الجاكيري » * ، لكن الايحاء بأن نظرة باكونين تقف عند هذا الحد ، كما يفعل الدارسون المعاصرون، هو أمر غير عادل إزاء خلفيته النظرية وممارسته العملية . لقد كان يعتقد أن المناطق الريفية في ايطاليا أكثر تقدمية من المدن، بالنسبة للثورة الاجتماعية (٤٨) .

لقد أيد ماركس كذلك الدعاية في المناطق الريفية . « لقد كنا مهتمين أكثر من اللازم بعمال المدن »،ذلك ما تقوله محاضر مؤتمر لندن للأممية الاولى، أيلول عام ١٨٧١ ، الذي شارك فيه ماركس (٤٩) . وقبل انجلس في العام ١٨٧٢ بانتساب «جمعية العمال والفلاحين» ، جمعية لودي، للأممية الأولى، وكتب رسالة الى هذا الفرع الجديد . وعلى هذا فإن أساس النقد الذي وجهه ماركس الى باكونين لم يكن اهتمام هذا الأخير بتنظيم الفلاحين ، بل عدم تقديره لأهمية الصناعة الكبيرة .

---

(٤٧) انجلس : « حرب الفلاحين في المانيا»، ١٨٥٠ ، المؤلفات ، ص ٣٢٩-١٣ : ٤.

* Jacquerie ،اسم أطلق على انتفاضات الفلاحين الفرنسيين قديماً ، وأشهرها الانتفاضة التي انفجرت في العام ١٣٥٨ بعد هزيمة بواتييه . (عن لاروس) .

(٤٨) باكونين : « رسائل الى فرنسي ، ١٨٧٠ » ، المؤلفات ، المجلد الرابع ، باريس ١٩١٠ ، ص ٣٤ .

(٤٩) « مقتطفات من وثائق الأممية الأولى » ، جنيف ١٩٦٢ ، المجلد ٢ ، ص ٧ ، ٢، من منشورات جاك فريمون .

ماركس وانجلس وباكونين ، قوميين ؟

رحب ماركس وانجلس بالحرب الفرنسية – البروسية عام ١٨٧٠ لا بسبب لهفتهما الى رؤية لويس نابوليون ينهزم ويزول من مسرح الأحداث وحسب ، وإنما أيضاً لأنهما قدرا أن الحركة الالمانية ، التي كانت قد أصبحت متفوقة على الحركة الفرنسية في النظرية والتنظيم ، سوف تكتسب أفقاً أوسع لتطورها ونموها . كما اعتقدا أن العمال الفرنسيين سيستفيدون من هزيمته . لقد أعاد غيوم فيما بعد نشر هذه الآراء معلقاً أن ماركس وانجلس كانا من أنصار الجامعة الجرمانية Pan - Germanists ، لأنهما سعيا الى ضمان « تفوق البروليتاريا الألمانية على الفرنسية » و « الى نقل مركز ثقل الحركة الاوروبية من فرنسا الى المانيا » * (٥٠) . إن هذا التعليق تشويه صريح لموقفهما ، وقد وُصف بذلك آنذاك (١٩١٥) .

كان باكونين يميل الى اعتبار مبدأ تقرير المصير مبدأ مطلق ، يصلح لكل زمان ومكان . ولم يعتقد ماركس وانجلس أن لأي من مبادىء الديمقراطية ، كما تطورت في القرن الثامن عشر ، قيمة صحيحة في حد ذاتها ، ما دام نظام الملكية الخاصة قائماً . ولهذا اعتبرا نفسيهما في حِلّ من مبدأ تقرير المصير في في بعض الأحيان. ولقد اتخذا هذا الموقف على نحو إرادي وواعٍ لمصلحة الثورة الاشتراكية ، نظراً لأن « المبادىء الخالدة » للديمقراطية يمكن أن تحمل ، بعد الثورة الاشتراكية فقط ، معنىً حقيقياً بالنسبة للقطاعات المستَغلة من الشعب . بل من الممكن أن يكون لنقاط أخرى في برنامج ماركس وانجلس ، (كإقامة الدولة البولونية لتخدم كحاجز أمان في وجـــه روسيا الرجعية) ، صحة وشرعية تفوقان ، في رأيهما ، صحة وشرعية فكرة حق تقرير المصير

---

* هنا يردد غيوم أحد تعليقات باكونين المفترية .

(٥٠) ج. غيوم : « كارل ماركس : الرابطة الجرمانية والجمعية الأممية للشغيلة ، من ١٨٦٤ الى ١٨٧٠ » ، باريس ١٩١٥ ، ص ٣ – ٤ ، ٨٥ .

وإن طبِّقت على نحو صارم وكامل . وعلى هذا فإن الدولة البولونية ، كما تصورها ماركس وانجلس ، ستكون بحاجة الى امتلاك موانىء على بحر البلطيق وإلى العودة إلى حدود عام ۱۷۷۲ على الأقل ، حتى ولو أدى ذلك الى أن تضم في حدودها عدة ملايين من الاوكرانيين والبيلوروسيين . وقالا ان بولونيا المعاد انشاءها سوف تكون دولة متعددة القوميات [٥١] .

لقد أيدت الجمعية العامة للأممية الأولى حق تقرير المصير في بولونيا . وفي مؤتمر جنيف (١٨٦٦) ، أكدت الأممية الأولى في تقريرها « الحاجة الى سحق النفوذ الروسي في أوروبا من خلال فرض حق تقرير المصير ، ومن خلال إعادة إقامة بولونيا على أسس ديمقراطية واجتماعية » [٥٢] . في هـذا السياق كان تقرير المصير مقبولاً قبولاً تاماً من ماركس . وقد أيد أيضاً حق ايرلندا وسلاف البلقان في تقرير المصير . والواقع أنه أيد حق سائر الشعوب المضطهَدة التي تتطابق مصالحها في نفس الوقت مع مصلحة الثورة الأممية البروليتارية . ولم يذهب ماركس إلى أبعد من ذلك، إذ أنه لم يكن مهتماً بمبدأ حق تقرير المصير في حد ذاته .

ولكن ، هل كان ماركس وانجلس قوميين المانيين كما اتهمها باكونين وآخرون غيره ؟ الواقع أن موقف ماركس وانجلس من الحرب الفرنسية — البروسية قد اتخذ ، عادة ، كبرهان على أنهما لم يكونا قوميين المانيين . صحيح أن انجلس كتب إلى ماركس ، عندما اندلعت الحرب ، قائلاً أن ألمانيا قد دفعت إلى الحرب من أجل وجودها القومي ، وان الهزيمة سوف تعيق الحركة العمالية الالمانية المستقلة ، ربما لأجيال عديدة . وكتب انجلس : « إن بسمارك يقوم الآن بجزء من عملنا ، بطريقته الخاصة ودون قصد منه ، لكنه ما زال يفعل ذلك » [٥٣] .

---

(٥١) انجلس : « في الكومنولث » ، ٥ أيار ١٨٦٦ .
(٥٢) ج. م. ستيكلوف : « تاريخ الاممية الاولى » ، ١٩٢٧ ، ص ٨٥ .
(٥٣) رسالة من انجلس الى ماركس ، ٥ آب ١٨٧٠ .

إلا أن ماركس وانجلس لم يؤيدا بسمارك تأييداً كاملاً كما فعـل شويتزر اللاسالي . لم يدعوا في البداية الى هزيمة بروسيا ، ولكن فعلا ذلك فيما بعد عندما أظهر بسمارك عزمه على ضم الألزاس واللورين . بل أن أنجلس كتب خطة ليستخدمها الفرنسيون في سبيل أخذ زمام المبادرة وطرد الالمان من فرنسا . ولأن تحقيقات انجلس الصحفية حـــول استراتيجية الحرب كانت متفوقة وممتازة ، لذا فإن هذه الخطة لا بد وان تكون هامة في ذلك الحين لو أنها نشرت . بيد أنها لم تنشر *

لم يدافع ماركس وانجلس باستمرار عن القضية الالمانيـــة في السياسة العالمية . ويشير ريازانوف إلى أن سياستها لم تكن تتطلع إلى توسع ألماني في البلقان ** (٥٤) . فبالرغم من اهتمامهما بنهوض الحركة العمالية في المانية ، ومن تطلعهما إليها بوصفها طليعة الثورة البروليتارية ، فإنهما اتخذا في السياسة العالمية موقفاً مؤيداً للألمان حيناً وضدهم في حين آخر . وكان ماركس بخاصة يتأمل التطورات الجارية في المانية بفتور ، وقدّر في رسائله الى انجلس في عامي ١٨٥٦ و ١٨٦٣ أنه يمكن أن يجد نفسه مضطرّاً الى أن يدعو لهزيمة الجيش الالماني لمصلحة الثورة البروليتارية الأممية(٥٥). وقد أيد ضم شلزويغ–هولشتين الى بروسيا ، لكنه عارض ضم الالزاس واللورين الى المانيا في ١٨٧١ . إن

---

* وجد برنشتاين وبيبل ، منفذا وصية انجلس ، هذه الوثيقة بين أوراقه . وقد أتلفاها، زعماً بألا يتهم الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني ، الذي لم يكن له علاقة بالقضية ، بأنه كان في الماضي غير وطني – ج. ماير : « فريدريك انجلس » ، المجلد ٢ ، الهاغ ١٩٣٤ ، ص ١٩٧ و ٥٤٤ – ٥٤٥ .

** تعليق انجلس في رسائله إلى كاوتسكي ، المشار إليه أعلاه ، لم يكن جزءاً من خطة توسعية عامة .

(٥٤) ريازانوف : « ملاحظات حـــول مقالات ماركس وانجلس في جريدة نيويورك تريبيون » ، موسكو .

(٥٥) رسالة مؤرخة في ١٦ نيسان ١٨٥٦ ، وأخرى مؤرخة في ١٠ آب ١٨٦٣ .

استنتاج البروفسور بلوم بأن ماركس كان « بكل وضوح غير قومي » إنما يبدو الحكم الوحيد الذي تؤكده الأدلة [٥٦] .

أما وضع انجلس فمختلف الى حدٍ ما . لقد كان قومياً في شبابه . واستخدم لغة قومية أو تعبيرات قومية في مناسبات عديدة ، رغم دفاعه عن وجهة النظر الأممية . وإن آخر تلك المناسبات وأكثرها ضرراً هي المناسبة التي وقعت بعد وفاة ماركس ، وتستحق بعض الايضاح والتعليق .

لا شك في أن ماركس وانجلس كانا على الدوام يدركان أن المانيا الموحدة تحت قيادة دولة الطبقة العسكرية البروسية يمكن أن تشكل تهديداً خطيراً ، فقررا أن يعقدا آمالهما على البروليتاريا الالمانية بوصفها القوة التي سوف تحوّل المانيا الجديدة الى الديمقراطية والاشتراكية . هذا القرار كان خطيراً ، ولم يؤيده باكونين . ففلسفة ماركس وانجلس حول القومية ، كما كتب عنها باكونين ، تؤول الى :

« إقامة دول قومية كبيرة جديدة ، منفصلة ومعادية بالضرورة للانسانية ، بما في ذلك من إلغاءٍ للأممية . فإذا لم يعزما على تأسيس دولة كونية واحدة ، فإنهما سيؤسسان عندئذٍ دولاً قومية ، أو بالأحرى ، وذلك أكثر احتمالاً ، دولاً عظمى حيث يسيطر الجنس الأكثر أهمية وذكاء ويستغل الأجناس الأخرى ، وبهذا ينتهي الماركسيون ، دون اعتراف منهم ، إلى الرابطة أو الجامعة الجرمانية » [٥٧] .

الخطر إذن ، كما يراه باكونين ، هو أن الطبقة العاملة ستعطي ، في سعيها الى جعل الدولة وسيلة لإقامة الاشتراكية الأممية ، مصلحتها كدولة المكانة

---

(٥٦) بلوم ، مصدر مذكور قبلا ، ص ١٩٤ ، والفصل الرابع عشر كله .

(٥٧) آرثر لينِنغ : « باكونين وإيطانيا » ، ليدن ١٩٦٣ . ومؤلفات باكونين ، المجلد ٣ ، ص ١١٨ .

الأولى وستكون الاشتراكية الأممية هي الخاسرة . ولأن هذه الفكرة ليست تلفيقاً من تلفيقات الخيال ، فإنها تصور حالة انجلس بالذات .

لقد كان ماركس وانجلس يدركان إدراكاً ثاقباً أثر الحروب القومية في إعاقة الصراع الطبقي وتصادمه معه . كتب ماركس في العام ١٨٧١ :

« إن أرفع الجهود البطولية التي يمكن للمجتمع القديم أن يبذلها هي الحرب القومية ، التي ثبت أنها مجرد دجل حكومي يقصد منه تأجيل النضال الطبقي ، وستُطرح تلك الحروب القومية جانباً حالما ينفجر الصراع الطبقي في حرب أهلية . لم يعد التحكم الطبقي قادراً على إخفاء نفسه والتلبس بلباس قومي . إن الحكومات القومية جميعها موحدة ضد البروليتاريا » (٥٨) .

لقد كان انجلس يطمح إلى رؤية العمال الالمان يتسنمون زعامة الطبقة العاملة العالمية ، لكنه محضهم تأييده المستمر في حال بقائهم مخلصين للأممية الحقة فحسب . كتب في العام ١٨٧٤ :

« في الظروف الراهنة ، يشكل العمال الالمان طليعة النضال البروليتاري ... لكن الأمر الضروري في كل الأحوال هو المحافظة على الروح الأممية الحقة ، التي لا تدع مجالاً للشوفينية ، والتي تحيّي َفرِحة كل خطوة تخطوها البروليتاريا ، أياً كان البلد الذي تمت فيه الخطوة . وإذا سار العمال الالمان على هذه الدروب ، ربما لا يكونون قادرين على السير على رأس الحركة — وليس في مصلحة الحركة أن يسير على رأسها عمال بلد واحد — لكنهم سيشغلون مكاناً مشرفاً على خط النار ... » (٥٩) .

---

(٥٨) ماركس : « الحرب الأهلية في فرنسا » ، المؤلفات المختارة ، موسكو ١٩٥٠ ، الطبعة الانكليزية ، ص ٤٩٠ .

(٥٩) انجلس ، من مقدمة الطبعة الثانية لكتاب : « حرب الفلاحين في المانيا » ، ١ تموز ١٨٧٤ ، ص ٢٩ — ٣٠ .

كما حذر انجلس أيضاً قادة الحزب الاشتراكي الديمقراطى الالماني من السقوط والانحدار نحو الالتقاء مع خطط الرايخ الامبريالية التوسعية .

وأظهر انجلس مراراً خوفه من حرب أوروبية عامة . ولهذا كتب الى بيبل في العام ١٨٨٢ :

« إنني اعتبر الحرب الاوروبية محنة . وستكون هذه المرة بالغة الخطورة ؛ إذ أنها ستطلق ، لسنوات مديدة ، العنان للشوفينية في كل اتجاه ، لأن كل أمة ستحارب من أجل بقائها . وسيصبح كل جهدٍ للثوريين في روسيا ، الذين يقتربون من النجاح ، غير ذي شأن ، وسيتحطم ؛ وسيدمر حزبنا في المانيا ويغرِّقه طوفان الشوفينية ؛ وسيحدث هذا الأمر بالذات في فرنسا » (٦٠) .

كتب انجلس في ١٨٩١ مقالاً لمجلة « الأزمنة الحديثة » ، كان ذا طابع قومي الماني قوي جداً ، لدرجة أن الاشتراكيين الديمقراطيين المحافظين قد استخدموه فيما بعد لتبرير اشتراكهم في جيوش القيصر (الالماني) إبان الحرب العالمية الاولى . وتقوم حجة انجلس على أن روسيا القيصرية هي العدو الأكبر (وهذا موقف ماركسي تقليدي) ، وفي حرب عامة سيكون من واجبات الاشتراكيين الديمقراطيين الالمان أن يقاتلوا ضد روسيا وحلفائها جميعاً . إن المانيا تقاتل من أجل بقائها ، كما يقول انجلس ، في حرب ضد فرنسا وروسيا . وإذا خسرت الحرب ، وبالتالي جزءاً كبيراً من أرضها ، فإنها لن تكون في موضع يمكِّنها من القيام بدورها الخاص في تطور اوروبا التاريخي . كما أنه سيُقضى على الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، ولكن بما أن هذا الحزب قد اكتسب موقعاً قيادياً في حركة العمال العالمية ، لذا فمن واجبه أن يدافع عن مواقعه ضد المهاجمين « حتى آخر رجل » . وأضاف أن الحرب ستضعف الرأسمالية أيضاً ، وان الاشتراكية ستعقبها في الحال (٦١) .

---

(٦٠) « مراسلات انجلس مع بيبل » ، نشر وارنر بلو منبرغ ، ١٩٥٥ ، ص ١٤٣ .

(٦١) انجلس : « الاشتراكية في المانيا » ، المؤلفات، المجلد ٢٢ ، ص ٢٤٨ — ٢٦٠.

من الواضح أن انجلس قد طبق فحسب على المانيا بخاصة تحليله الوارد في رسالته إلى بيبل ، وهو التحليل الذي كان ينطلق من الوضع العام في مجمل البلدان الاوروبية . أما تحليله هذا فقد وضعه في سياق جعله يبدو وكأن المقصود هو الدفاع عن الالمان بشكل خاص. وقد سبب ذلك المقال، بالاضافة الى خطاب لبيبل ألقاه قبل ذلك بوقت قصير حاول أن يبرهن فيه أن على العمال الالمان واجب القتال في حرب دفاعية ، هياجاً في صفوف حزب العمال الفرنسي ، الذي كان يخوض معركة من أجل نزع السلاح . وكتب أحد قادة الحزب الى انجلس محتجاً ، فأجاب انجلس أنه إذا غزت جيوش القيصر ويلهلم فرنسا فالعمال الفرنسيون سيقاتلون ويجب أن يقاتلوا للدفاع عن أنفسهم. وفي تشرين الأول ١٨٩١ كتب انجلس الى بيبل : « إذا هوجمت المانيا من الشرق والغرب ، فكل طريقة للدفاع تصبح أمراً سليماً وجيداً » (٦٢) . وعلى كل حال ، فإن انجلس لم يدعُ للتصويت الى جانب جميع اعتمادات الحرب ، بل الاعتمادات الدفاعية فقط . وتابع القول في هذه الرسالة :

« إذا كانت الحرب ستقع ، كما تقول حكومة بروسيا ، في أوائل ١٨٩٢ ، فنحن لا نستطيع ، مبدئياً ، أن نعلن موقفنا ضد التصويت من أجل اعتمادات الحرب الآن . ذلك سيكون موقفاً صعباً بالنسبة إلينا . لكن ما العمل إذا وقعت الحرب فعلاً في أوائل ١٨٩٢ ؟ في هذه الحالة سيكون واجباً أن نصوت إلى جانب سائر الاعتمادات التي تقوّي دفاعنا ، فقط دفاعنا . وفي منظور حرب وشيكة الوقوع ، لا نستطيع أن نعلن منذ الآن سياستنا حول الجيش ، (مثل الميليشيا ، ودقرطة الجيش ، وتزويده بأسلحة جديدة ،

---

(٦٢) « مراسلات انجلس وبيبل » ، ص ٤٥٠ — ٤٥٣ . رسالة مؤرخة في ١٣ تشرين الأول ١٨٩١ .

الخ ... لأن اصلاحاً كهذا يتطلب وقتاً طويلاً) ، بل يجب أن نحاول مسايرة الظروف وأن نصوت فقط الى جانب الاعتمادات الخاصة بالجيش ، الاعتمادات التي تدفع في اتجاه تغيير خاصية الجيش الى جيش شعبي » .

هنا ، في هذا الموقف ، كان انجلس يستعيد موقف ماركس إبان الحرب الفرنسية - البروسية في ١٨٧٠ - ١٨٧١ ، فيؤيد الحرب الدفاعية عندما تكون نتيجتها الحفاظ على الحركة العمالية والاشتراكية . لم يكن هذا الموقف مقبولاً،وأصبح أقل قبولاً في عصر الامبريالية حيث تشترك الدول الاوروبية في العدوان على مدى حقبة طويلة من السنين ضد الشعوب الأقل تطوراً في العالم ، وحيث لا يبقى هناك طرف بريء . ولكن من الواضح أن انجلس لم يتورط في الدفاع عن الالمان بشكل خاص أو عن الطرف الالماني ، كما يقول في تفسيره لموقفه .

لقد كان انجلس ، في الممارسة العملية ، وفي حياته اليومية ، ثورياً واشتراكياً وأممياً ، واستمر كذلك حتى نهاية حياته . لقد كرس وقته وبذل طاقته ، بلا تحفظ وبلا شرط ، لمساعدة قادة الحركات العمالية والاشتراكية في أوروبا وفيما وراء البحار . ومن المستحيل أن نتغاضى عن عمل كهذا استمر أربعين أو خمسين عاماً ونضع انجلس في صف القوميين .

لقد اختار انجلس كاوتسكي منفـّذاً لوصيته حول آثاره الأدبية ، عندما كان الأخير يتخذ موقفاً أممياً متشدداً. كما اختار منفـّذين آخرين لوصيته ، هما برنشتاين وبيبل ، في وقت لم يكونا قد انتقلا فيه الى صف القوميين الالمان بشكل معلن ، كما حصل فيما بعد .

لقد حاول الجناح اليميني الاشتراكي الديمقراطي البرهان في العام ١٩١٤ على ان انجلس كان سيؤيد ، استناداً الى مقالته تلك التي أُسيء الحكم عليها ، المانيا في الحرب . إن هذا الادعاء يغفل أن تطورات الثلاثين سنة التي سبقت ١٩١٤ قد جعلت تحليلات ماركس وانجلس السابقة في أمر الأمس

البعيد . فعداء ماركس لقيصر روسيا ، على أساس أنه دركي أوروبا، ولجميع أنواع الرابطة السلافية بما في ذلك نزعات باكونين المحبّذة للرابطة السلافية ، إنما يعود إلى سببين أو ظرفين : كانت روسيا الدولة المسيطرة في أوروبا الشرقية ، ولم يكن فيها حركة عمالية ثورية . وفي منعطف القرن أصبح لدى أوروبا الشرقية اشتراكيون ثوريون ، كروزا لوكسمبورغ ولينين ، يبرهنون على أن هذه الظروف لم تعد قائمة ، ويراجعون التحليل الماركسي والسياسة الماركسية تبعاً لذلك . ان من غير الممكن الاعتقاد بأن انجلس ، لو عاش عشرين عاماً آخر وأعمل ذهنه النفاذ في مشاكل العلاقات الدولية ، كان سيبقى في الموقف الذي وقفه في العام ١٨٩١ . فبعد ذلك بقليل ، في العام ١٨٩٣ ، خطا انجلس خطوة حاسمة باتجاه موقف جديد (٦٣) . فقد قال آنذاك أن روسيا عاجزة عن شن حرب دفاعية ، بَلْه الهجوم على المانيا . لقد كان الجناح اليميني في الحركة الاشتراكية الديمقراطية غير بارع ، إذا أردنا التعبير بشكل لطيف، عندما جعل من انجلس مؤيداً للحرب الأمبريالية . أما مسألة فيما إذا كان سيدعو ، مع لينين ، الى « هزيمة الوطن » ، فمسألة أخرى .

ربما كان ماركس وانجلس قوميين ، بشكل واع أو لا واعٍ ، لأنهما عقدا أملهما على أن ألمانيا ستتصدر القيادة في بناء الاشتراكية (٦٤) . هذه الرغبة لها ما يقابلها عند باكونين الراغب في أن تتصدر روسيا المدقرطة هذه القيادة. فمن المستحيل أن نتصور أن هذين العظيمين من أرض الراين سيقدمان برنامجاً لأوروبا يتسنّم الروس فيه مرتبة الشرف ، كما أنه يستحيل بالمقابل أن نعطي باكونين دور من يدعو الى أن تكون المانيا القائدة . القومية اللاواعية هي التي أثرت على السياسات التي دعا إليها الثلاثة . ولكن هذا

---

(٦٣) المؤلفات ، المجلد ٢٢ ، ص ٣٨٧ – ٣٩٢ .

(٦٤) ماير : « فريدريك انجلس » ، المجلد ٢ ، ص ٤٥٥ – ٤٥٦ .

لا يعني القول أن ماركس وانجلس كانا سيحزنان لو حدثت الثورة في روسيا أولاً . فعلى الأكثر كان يمكن أن يتفقا مع رأي لينين القائل ان « الثورة الالمانية أكثر أهمية ، وعلى نحو لا يقبل المقارنة، (من الثورة الروسية) » . كما أن باكونين لم يكن ليرفض حدوث ثورة من النوع الذي يبغي في ألمانيا قبل روسيا . كانوا الثلاثة ملتزمين ، بشكل واع وأساسي ، بقضية الثورة الاشتراكية الأممية .

وضع فرديناند لاسال

كان لاسال قومياً المانياً صريحاً ، أو بالأحرى بروسياً . فقد دعا الى حل « بروسي » لمسألة توحيد المانيا ، الى درجة وصل فيها ماركس الى الشك بأن لاسال كان على علاقة مع بسمارك . وبالفعل فقد أقام لاسال علاقة من هذا النوع ، وهذا ما جعل ظن ماركس مبرراً . ولكن قبل ذلك بكثير كان ماركس وانجلس قد كونا رأياً سلبياً بلاسال ، وكانت المسألة القومية واحدة من عناصر عديدة في خلاف عميق الغور .

في المناورات الدبلوماسية، التي رافقت حركة التحرر الايطالية في ١٨٥٩ ، كان ما يملي موقف كل من ماركس ولاسال هو تصور كل منهما ما هو صالح بالنسبة الى بقية أوروبا أكثر من اهتمامهما بوحدة ايطاليا . فقد أيد لاسال هزيمة النمسا في ايطاليا ، لأن النمسا كانت منافساً لبروسيا في الصراع من أجل الهيمنة على عملية توحيد ألمانيا التي كانت تقترب . لم يكن ماركس مؤيداً للنمساويين في عملياتهم في ايطاليا ، لكنه لم يعارضهم معارضة شديدة بسبب عدم ثقته بنابوليون الثالث الذي كان منحازاً آنذاك ضد النمسا ، وبسبب روسيا التي ظن أن نابوليون كان متحالفاً معها .

كان ماركس وانجلس منفيين سياسيين في انكلترا ؛ وكانا يتابعان السياسة الدولية عن كثب، إلا أنهما لم يكونا مشتركين في العمل اليومي مع أي حزب أو حركة عمالية لأية أمة . ومن ناحية أخرى ، فإن لاسال قد اعتقد على

الدوام أن صعود أحزاب قومية للطبقة العاملة يشكل مرحلة ضرورية في الحركة الأممية الاشتراكية . وكان يعتبر نفسه ، طوال سنين عديدة ، صديقاً لماركس ويطلب نصحه وتأييده ، إلا أنه سار في طريقه الخاص في النهاية ، بينما حاول أن يتلافى القطيعة النهائية مع ماركس .

إن لاسال ، الذي كان يدعي الايمان بفلسفة أممية ، ما لبث ان مال أكثر فأكثر نحو تناول الأمور من وجهة نظر المانية ، بل أضيق من ذلك : بروسية. وكما تطلع باكونين إلى رؤية الجنود الروس في القسطنطينية ، فإن لاسال قد أيد في رسالة إلى رودبرتوس ، وهو توسعي الماني آخر ، آمال الأخير في أن تصبح المانيا يوماً ما وريثة الامبراطورية العثمانية ، وفي أن يطأ الجنود الالمان ضفاف البوسفور . على أن يتم ذلك في رأيهما ، رأي لاسال وباكونين ، بعد الثورة بالطبع . وقد اعتبر ماركس وانجلس نفوذ لاسال في الحركة العمالية الالمانية أمراً خطيراً وربما يؤدي إلى كارثة ، بالضبط لأنه فشل في تخطي قومية هيغل الضيقة ، التي شبّ عليها الثلاثة .

وفي حين أن ماركس وانجلس قد اعتبرا الدولة أداة في يد الطبقة الحاكمة، إلا أن لاسال ما كان يدع الفرصة تفوته دون تمجيد الدولة في حد ذاتها ؛ فصوّرها بطريقة صوفية وكأنها فوق الصراع الطبقي . قال مرة : « ستكون الدولة المؤسسة التي تتجسد فيها جميع فضائل الانسان »[٦٥] . ولو أن هيغل سمع هذا القول لصفّق له في قبره . ودفع لاسال هذا المفهوم إلى أبعد من ذلك في مقاله الشهير حول الضرائب غير المباشرة الذي سمي فيه الدولة بـ « النار الأبدية الطاهرة للحضارة كلها » ، وقال :

« إلى **الدولة** أعزو الواجب السامي الجبروتي ، واجب تطوير بذور الانسانية ، كما فعلت منذ بداية التاريخ ، وكما ستفعل دائماً وإلى الأبد ، فهي أداة **للجميع** ، وهي التي تأتي **لكل** الناس بشروط الحياة تحت إشراف يدها الحامية » .

---

(٦٥) ج. هايس : « تأملات في تاريخ الحركة الاشتراكية المانية » ، في «المجلة التاريخية الأمريكية » ، نيويورك ، العدد ٢٣ ، اوكتوبر ١٩١٧ ، ص ٦٦ .

عندما نشر برنشتاين كتابات لاسال، أضاف ملاحظة في الهامش يستنكر فيها هذه الفكرة * . إن سياسة لاسال الخـــاطئة كانت تقضي ، في رأي ماركس،بمهاجمة البورجوازيين الليبراليين والسعي إلى التحالف مع البروليتاريين الذين قادهم مع بسمارك ، الذي كان آنذاك مدعوماً من الجيش وأرستقراطية الأرض . لقد لقيت سياسة لاسال هذه استحسان قطاع معيّن من المثقفين الذين سعوا فيما بعد إلى دعم لاســـال القومي على حساب ماركس وانجلس البروليتاريين الاشتراكيين . ومع أن برنشتاين قد أحجم عن مهاجمة ماركس وأنجلس ، إلا أنه حاول انقاذ سمعة لاسال أمـــام الاشتراكيين الديمقراطيين بالبرهان على أن نزعته القومية قد فهمت فهماً سيئاً ؛ واستشهد برنشتاين بنصوص من الرسائل المتبادلة بين ماركس ولاسال ليبين أن لاسال كان في في الواقع أممياً من جماع قلبه ، وإن دعا إلى أفكار مغايرة حول التكتيكات التي ينبغي اتباعها في الحرب الايطالية عام ١٨٥٩ . لكن برنشتاين كان مضطراً إلى الاعتراف بأن لاسال كان « ما يزال في ممارساته غارقاً إلى درجة كبيرة في الغلو القومي البروسي» . وأضاف : « إن مفهوم لاسال حول الدولة هو الجسر الذي سيؤدي في يوم من الأيام إلى الجمع بين لاسال الجمهوري والرجال الذين يقاتلون من أجل الملكية المطلقة، بين لاسال الثوري والرجعيين المغرقين في رجعيتهم » (٦٦) ** .

لقد دعا ماركس وانجلس إلى تحالف البروليتاريا مـــع البورجوازيين الليبراليين في سبيل محو رواسب الاقطاعية ، وتحطيم سلطة الجيش والملاكين الكبار . أما خليفة لاسال ، شويتزر ، فقد تابع سياسة محاباة الرجعيين

---

* كان برنشتاين يعمل آنذاك تحت اشراف انجلس بشكل عام .

(٦٦) « مجموعة خطب وكتابات » ، برلين ١٩١٩ ، المجلد الثاني ، ص ٤٨٤ .

** هذا المقطع يمكن أن يُرد أيضاً الى تأثير انجلس الذي اطلع بلاشك على المخطوطة قبل نشرهـــا .

القاتلة . ولقد انشق حزب لاسال الاشتراكي مراراً ، ولم يؤد حتى اتحاد اللاساليين مع الايزناخيين (بيبل ، ليبكنخت ...) وتشكيل الحزب الاشتراكي الديمقراطي عام ١٨٧٥ إلى خلق تحد مناسب للنظام القديم ؛ فقد بقيت « رواسب الاقطاع » ، ولم يدخل نظام الحريات (البورجوازية) المانيا مطلقاً . إن الحركة الاشتراكية الالمانية التي عقد ماركس وانجلس عليها الآمال قد حوت منذ البداية عنصراً قومياً لا يتزحزح وهو بادي الاستعداد الى الدخول تحت راية واحدة مع ألد أعداء الاشتراكية الأممية في سبيل ربح عابر . ولم يكن « الايزناخيون » خالين تماماً من المشاعر القومية ، كما سنرى فيما بعد .

الأممية الأولى

كانت الحركات التريديونيونية والاشتراكية في اوروبا حركات أممية قبل أن تكون قومية . وعند الشروع بإنشاء «رابطة العمال الأممية» في الستينات من القرن التاسع عشر لم يكن هناك سوى بضعة تنظيمات عمالية واشتراكية قليلة ومبعثرة . ولم يكن هناك تنظيمات نقابية تمتد على نطاق قومي . وفي القارة كان هناك بضعة اتحادات نقابية فقط . وكان التحريض الشارتي في انكلترا قد امتد على نطاق قومي ، لكن لم تلبث التنظيمات الشارتية ان تلاشت . وأنشأ لاسال « اتحاد العمال الالماني العام » في عام ١٨٦٣ ، لكن لم يستطع هذا الاتحاد اكتساب اعتبار على نطاق قومي حتى داخل بروسيا .

وفي غياب الاتحادات القومية للعمال المنظمين (سواء اتحادات عمال أو أحزاب سياسية قومية) ، كان المندوبون في مؤتمر الأممية يأتون من جماعات متنوعة . واشتركت في المؤتمر بعض النقابات البريطانية بسبب الخوف من هجرة العمال الأوروبيين إلى انكلترا ، ولكن كان ثمة آخرون ، مثل جورج أودجر ، أوسع في ثقافتهم السياسية ومعرفتهم بالحركات في الخارج من ثقافة ومعرفة معظم النقابيين البسطاء الطاهرين الذين مروا على مسرح الأحداث

فيما بعد * . كما جاء الى المؤتمر بعض مجموعات من اللاجئين القوميين ، وسجل المؤتمر الأول ، كما لاحظنا قبلاً ، موقفاً مؤيداً لتحرر كل من بولونيا وايرلندا. وكانت هناك تجمعات ايديولوجية ، اشتراكية وفوضوية من مختلف القناعات ، تتبع لا خط ماركس وباكونين وحسب ، بل برودون وبلانكي أيضاً .

كانت الأممية الأولى هي الدافع لتشكيل أحزاب على بعد قومي وتجمعات نقابية . وقد كان الخلاف العميق يدور حول مدى التوجيه والاشراف الذي ينبغي أن يمارسه التنظيم الأممي على هذه التجمعات القومية الصاعدة ، أكثر مما كان يدور حول العداء الشخصي بين ماركس وباكونين ، الذي اكتسب شهرة واسعة وسبب انهيار « رابطة العمال الأممية » .

لقد أراد ماركس بناء تنظيم أممي يتمتع بمركزية واسعة الى حد كبير ، ويحصل على ولاء عمال بلدان العالم كلــه ولاءً تاماً . ولكن عندما اكتسب الاتجاه الداعي الى استقلال الأحزاب القومية زخماً في حوالي عــام ١٨٧٠ ، رحب ماركس بقرار يتبنى هذا الاتجاه . وكان « فايونت » هو الذي قدّم هذا القرار إلى مؤتمر لندن في العــام ١٨٧١ (القرار رقم ٩ الداعي الى تشكيل أحزاب سياسية مستقلة للطبقة العاملة) واتـُخذ قرار بتبنيه رغم احتجاجات غيوم صديق باكونين . وفي مؤتمر « الهايج » أُدرج القرار ٩ في قوانين الرابطة ، برضى ماركس وقبوله الكاملين .

وفي نفس الوقت بلغ الخلاف بين المركزيين (الماركسيين) ودعاة الاستقلال درجة الانشقاق ، وانشقت الرابطة بالفعل . ونقل الاتحاد المركزي مركزه

---

* « لقد كانت المسائل السياسية ، قبل الصناعية ، هي التي استحوذت على المنزلة الأولى في عقول هؤلاء الرجال الانكليز الذين أصبحوا أعضاء في « مجلس المنطقة المركزي للأممية ». ولو لم يكونوا كذلك لما لاقوا ما لاقوه من تساهل من ماركس في « خطابه الافتتاحي » الذي لم يحو اشارة واحدة الى التريديونيونية ... » ، عن ريد هاريسون : « حركة العمال الانكليزية والاممية في العام ١٨٦٤ » ، «السجل الاشتراكي» ، نيويورك ١٩٦٤ ، ص ٢٩٤ .

إلى نيويورك ، حيث انتهى . أما المجموعة القائدة لاتجاه الاستقلال الذاتي الأممي فقد كانت بلجيكية . في عام ١٨٧٠ ، كان ثمة حوالي ٧٠٠٠٠ عامل بلجيكي ينتمون إلى مجموعات تابعة للأممية . وعلى مر الزمن ، أصبحوا مهتمين بالتقدم الذي حققه الحزب الاشتركي الديمقراطي الالماني فقرروا تقليده ، وأدى ذلك إلى انهيار الاتحاد الامي الذي انتموا إليه .

علق انجلس فيما بعد ، في حديث له الى سورج ، على الأسباب التي أدت الى موت الاممية الاولى، فقال ان موتها كان سبب نجاحها بالذات . إن تعرض الحركة العمالية والاشتراكية للاضطهاد والقمع في أوروبا قد أعطاها وحدتها واستدعى الامتناع عن المجادلات الداخلية . ولهذا أخذت الاهتمامات الكوسموبوليتية المشتركة للأعضاء مكان الصدارة . لكن أول نجاح هام كان كفيلاً بأن يمزق الى نتف هذا « الوصال الساذج لجميع الأجنحة » (٦٧) . وكان كومون باريس يمثل تلك النجاحات . فأراد كل المدارس (الحركات) أن يستثمره لصالحه الخاص ، فجاء الانشقاق .

هناك شيء من المفارقة في هذه النتيجة ، في أن كومون باريس كان من صنع الباريسيين ، ولم يكن البتة من صنع الأممية بشكل مباشر . ولقد حذّر ماركس من تفجير ثورة الكومون قبل وقوعها * . بيد أنها كانت مرتبطة بالأممية في أذهان الجمهور . لذا أصبح من غير المجدي ، وسياسة جبانة كذلك ، ان تحاول الأممية التنصل من المسؤولية .

لقد سجلت الأممية الاولى المحاولة الأخيرة والوحيدة ، في تلك الفترة ، التي قامت بها الماركسية للاشراف مباشرة على سير الأحداث في حركات

---

(٦٧) رسالة من انجلس الى سورج ، ١٢ أيلول ١٨٧٤ .

* كان ماركس يعتقد بعدم نضوج الظروف لنجاحها ، ولكنه أيد الكومون بلا تحفظ عندما انفجرت الثورة . «م»

العمال في مختلف البلدان إشرافاً يتميز عن إسداء النصح. منذ ذلك الحين آلت السلطة والمسؤولية إلى عاتق الأحزاب القومية في مختلف بلدان أوروبا . لقد بقيت الثورة البروليتارية الأممية هي الهدف ، لكنها لم تعد تدخل في حياة العمال اليومية والتنظيمية . ومـــا زال القادة العماليون في البلدان الصغيرة ينظرون بكآبة إلى الأيام الخالية حين كانت الأممية تمد يد المساعدة إليها مهما بلغت عزلتها . أما يد المساعدة في الزمن المعـــاصر التي تمتد عبر الحدود الدولية فهي عائدة إلى المصلحة القومية أكثر منها إلى الأممية البروليتارية .

ولكن على الرغم من ذلك فإن الاعتقاد بأن النضال ضد الامبريالية يجب أن يكون أممياً هو اعتقاد لم يمت بعد . وبرزت هذه الفكرة في مختلف أنحاء المعمورة في العام ١٩٦٥ .

لقد تزامن انهيار الأممية الأولى مع توحيد ألمانيا ، وتلا وحدة ايطاليا بوقت قصير جداً . ومنذ ذلك الحين ارتبط تنامي الطموح نحو شهرة التوسع الاقليمي في ألمانيا وايطاليا لا لدمج أجزاء منفصلة فرقت بينهـــا حوادث التاريخ ، بل لضم أقاليم جديدة واقعة تحت حكم آخر . إن القومية التوسعية أصبحت امبريالية بالنسبة إلى جميع البلدان القائدة في أوروبا . وكان على الماركسية أن تحدد ، أو بالأحرى أن تعيد تحديد ، موقفها من الامبريالية .

لكن القومية ما زالت تعني بالنسبة لبعض البلدان الأخرى النضال من أجل الوحدة القومية ، أو النضال من أجل الاستقلال عن الدول الامبريالية . بقي على الماركسية أن تجيب عن التساؤلات التي تدور حول الحركات القومية التي يمكن تبريرها ، ومدى الاهتمام المشروع الذي ينبغي للطبقة العاملة أن توليه لهـــا ، وحول ما يمكن أن يكونه موقف البروليتاريا في جميع البلدان من هذه الحركات .

فهل يتعلق الأمر بمبدأ عام ؟ إذا كان الأمر كذلك، فإن ماركس وأنجلس لم يعلماه بوضوح ، ونظرة باكونين كانت مبهمة . إن جميع فروع الحركة

الاشتراكية اتفقت على فضائل الأممية البروليتارية . هل تستدعي هذه الفلسفة معارضة القومية في حد ذاتها؟ هل يجب معارضة القومية الامبريالية العدوانية؟ هل يمكن دعم القومية البناءة المعادية للامبريالية ؟ لقد أدى الفشل في الوصول إلى جواب واضح ومبكر عن هذه الأسئلة إلى حدوث انشقاق في الحركة الاشتراكية .

٣

مواقف ماركس وانجلس حول الأمم والمستعمرات والطبقات الاجتماعية

اعتقد ماركس وانجلس أن التطور الاجتماعي يعني التعاقب الديالكتيكي من مرحلة إلى أخرى في الطريق نحو الاشتراكية والشيوعية ، وأن كل خطوة في هذا التعاقب تمثل تقدماً بالمقارنة إلى الخطوة السابقة . ولقد استنكرا العبودية، على أسس إنسانية ، لكنهما لم ينيا عن الاعتقاد بأنها مثلت تقدماً بالنسبة إلى الأنظمة السابقة لأنهـــا جعلت تراكم الفائض ممكناً ، وهذا الفائض يمكن استخدامه للانتقال إلى مرحلة أعلى من التطور ؛ وبدونـــه سيكون التقدم بطيئاً وصعباً ان لم يكن مستحيلاً [١] .

ماركس وانجلس والسيطرة الامبريالية

ينبغي للبلدان التي تُرِكَت وراءً في سباق التطور أن تلحق الركب عبر

---

(١) انظر انجلس ، « أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة » (١٨٨٤) ، المؤلفات، مجلد ٢١ ، الفصل ٩ ، صفحة ١٥٢ — ١٧٣ ، حول العبودية . وحول الموضوع نفسه ، انظر أيضاً ماركس : « بؤس الفلسفة » (١٨٤٧) ، المؤلفات ، المجلد ٤ ، صفحة ٦٥ — ١٨٢ ؛ وخاصة انجلس : « ضـــد دوهرنغ » (١٨٧٧ — ١٨٧٨) ، المجلد ٢٠ ، صفحة ١٦٧ — ١٦٩ .

أفضل الطرق الممكنة . وربما كان سقوط البلد المتأخر تحت سيطرة بلد متقدم أسرع هـذه الطرق ، حيث يحطم الأخير قوقعة التقاليد فيه ويقوده إلى المشروع الرأسمالي ، وبهذا يقذف بالبلد على الطريق نحو إنتاجية أضخم ، ونحو الاشتراكية بالنهاية .

كان ماركس وانجلس مهتمين أشد الاهتمام بأعمال الانتروبولوجي الامريكي لويس مورغان ، الذي قدم تصنيفاً مفصلاً للحضارات حسب مراحل تطورها . واستخدم انجلس ، في دراسته المتخصصة « أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة » ، المواد التي قدمها مورغان* .

ان موقف ماركس وانجلس من المستعمرات والمناطق المتخلفة كان يمليه في البداية اقتناعهما بنظرية المراحل الاقتصادية .

بدأت الطبيعة الحقيقية للسيطرة الامبريالية تتكشف بشكل أكثر وضوحاً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ولهذا فإن الآراء التي أبداها ماركس وانجلس قبل ذلك حول مناطق معينة قد عُدلت أحياناً بل تحولت إلى عكسها في كتاباتهما المتأخرة . وسنحاول في هذا الفصل أن نتعقب هذه التحولات التي يبدو أن بعضها قد خفي عن الأبصار حتى الزمن الحاضر . والحقيقة ان الاستشهاد بنصوص ماركس وإنجلس بمعزل عن سياقها الحقيقي قد جعل ممكناً لمدرسةٍ ما من الكتّاب أن تضعهما في موضع المدافعين عن العبودية والامبريالية ، بينما انطلقت مدرسة أخرى لاثبات أن ماركس لم يكن فقط كلّي المعرفة بل كان يستطيع التنبؤ بالمستقبل . ومن الصعب التدليل على أيٍّ من المدرستين قد أسهمت أكثر من الاخرى في الابتعاد عن فهم أفكار ماركس فهماً صحيحاً .

أظهر ماركس وإنجلس في كتاباتهما الأولى كثيراً من الحماسة للوحدات

---

* استخدم انجلس الملاحظات ، التي سجلها ماركس حول مؤلف مورغان ، في اعداد دراسته المتخصصة التي نشرت بعد وفاة ماركس .

السياسية الكبرى ؛ فالدول الصغرى عقبة في وجه التقدم . وقد ذهب انجلس بعيداً في إدانة الدول والقوميات الصغرى ، حتى أنه لام السويسريين لأنهم نالوا الاستقلال من النمسا في الماضي . فقد كانت النمسا آنذاك ، كما قال إنجلس ، دولة تقدمية في تلك الفترة فقط من تاريخها . وليس من الجائز أن يقف شيء في طريق دولة تقدمية[٢] .

وقد قدم روبرت غريم بعد ذلك بوقت طويل تفسيراً مختلفاً تماماً للنضال السويسري من أجل الاستقلال : كان ذلك النضال نضال الفلاحين السويسريين الأحرار ونظام الملكية المشاعية للأرض الذي يعيشون في ظله ضد الخضوع للسادة الاقطاعيين من آل هابسبورغ[٣]. ولا يسعنا سوى التساؤل عما سيقوله انجلس عن ذلك .

كتب انجلس في عام ١٨٥٩ كراسة بعنوان « البو والراين » تبين بوضوح تام موقفه المحبذ لاندماج الامم الصغرى في الامم الأكبر . ويشير فيها إلى عبث المحاولات التي تبذل لرسم حدود كل أمة على اسس تفترض ضرورة كون هذه الحدود دفاعية من الناحية العسكرية . ثم يتابع قائلاً :

« يجب أن تنطلق جميع التعديلات [في خريطة أوروبا] ، إذا أُريد لها البقاء طويلاً ، من جهود تعطي ، بشكل يزداد تدريجياً ، الامم الكبيرة القابلة للحياة حدودها الطبيعية الحقيقية ، التي تقررها اللغة والمشاعر، بينما تتجه في الوقت ذاته حطام الشعوب، المتبقية هنا وهناك وغير المؤهلة لوجود قومي ، نحو الاندماج في الامم الأكبر ، فتصبح إما جزءاً من هذه الأخيرة أو تبقى كأثر إتنوغرافي دون

---

(٢) مقالة نشرها انجلس في ١٤ تشرين الثاني ١٨٤٧ . المؤلفات ، المجلد ٥ ، ص ٣٩٢ .

(٣) غريم : « الصراع الطبقي والامة »، ص ٤ .

شأن سياسي*» .[٤].

لقد أشار انجلس قبل ذلك إلى أنه ليس من المتوقع أن تنال المسائل الخاصة بحقوق القوميات اهتماماً كبيراً عندما يكون الأمر المطروح هو الحرب أو خطر الحرب ، وعندما « يكون المرء أمام الدفاع عن جلده » [٥] .

لقد لقيت الشعوب المتخلفة معاملة خشنة من ماركس وانجلس في أيامها الأولى : فالمونتينيغريون كانوا « سارقي الماشية » « و المهربين الاتقياء » (ماركس) ؛ والمكسيكيون « كسالى » (انجلس) « وأدنى الرجال » (ماركس) [٦] . إن الفكرة القائلة بأن الشعوب المتخلفة يمكن أن تسير بخطى أسرع إذا هي قاومت تعديات « القديس البورجوازي » وصممت على أن تختار لنفسها ما ترغب من نِعَم المدنية في زمانها ، كانت بالفعل فكرة بطيئة النفاذ إلى الماركسية .

ولكي يبرهن ماركس على أنه لا ينوي أن يفاضل بين الشعوب الصغيرة المتأخرة والشعوب الكبيرة المتخلفة ، بشيء من المحاباة ، فقد أطلق سهامه اللاذعة على الصينيين في أيام حرب الأفيون؛ وقال: «يبدو أنه كان على التاريخ أن يُسْكِرَ هذا الشعب بأجمعه قبل أن ينهض به من غبائه الوراثي » [٧] .

حتى روسيا القيصرية كان بإمكانها أن تمارس دوراً تمدينياً في الشرق ، في

---

* يرفض معهد ماركس — انجلس — لينين هذا الاستنتاج لانجلس ، ويعتبره استنتاجاً خاطئاً تماماً .

(٤) المؤلفات ، مجلد ١٣ ، صفحة ٢٦٧ .

(٥) المصدر نفسه ، صفحة ٢٢٧ .

(٦) من رسالة ماركس الى انجلس ، ٦ شباط ١٨٥٧ ، ورسالة ماركس الى انجلس ، ٢٠ تشرين الثاني ١٨٦٢ ؛ وكتاب ماركس وانجلس « الحرب الأهلية في الولايات المتحدة» (منشورات الانترناشونال : ١٩٣٧) ، صفحة ٢٦٢ .

(٧) ماركس ، « الثورة في الصين وفي أوروبا » ، (نشر في صحيفة نيويورك تريبيون ، ١٤ حزيران ، ١٨٥٣) ؛ في المؤلفات ، مجلد ٩ ، صفحة ٩٦ .

رأي ماركس وانجلس . وقد دافع هذا الأخير عن عمليات القيصر في آسيا الوسطى بالقول التالي : « روسيا ... هي فعلاً تقدمية بالنسبة إلى الشرق . فمقابل سفالتها وقذارتها السلافيتين ، تشكل السيطرة الروسية عاملاً تمدينياً في البحر الأسود ، وبحر قزوين، وآسيا الوسطى وبين أهالي البشكير والتتر ، الخ ... » [٨] .

وحينما يدعي بلدان متقدمان حق السلطة على منطقة متأخرة ، يفضل ماركس وانجلس البلد الأكثر تقدماً . وقد كانت انجلترا أكثر تقدماً من روسيا القيصرية ، لذا فنفوذها في آسيا الوسطى هو المفضل على نفوذ الروس. وقد كتب انجلس في ١٨٥٣ : « من الواضح أنه لا التجارة واسعة المدى وحسب، بل التفاعل الرئيسي بين أوروبا وآسيا الوسطى أيضاً ، وهو الوسيلة الرئيسية لتمدين تلك المنطقة الواسعة ، يتوقفان على حرية التجارة ، دونما عائق ، من خلال تلك البوابات إلى البحر الأسود » [٩] .

بالمناسبة،إن هذا المقطع يضع موضع التساؤل الرأي الذي قدمه البروفسور بلوم والقائل أن ماركس لم يضفِ أية قوة تمدينية على «الرأسمالية» ، « ذات الطابع التجاري الصرف » ، التي ، حسب تعبير بلوم ، « تسمن على حساب البلدان المتأخرة دون أن تساعدها على التحول » [١٠] . ولكن كانت عمليات البريطانيين في آسيا الوسطى ذات طابع تجاري صرف .

لقد كانت الولايات المتحدة أكثر تقدماً في نظر ماركس من بريطانيا . لذلك صفح عن عدوان الولايات المتحدة على المكسيك في عام ١٨٤٧ على أساس أنه مكتوب على المكسيك الوقوع تحت سيطرة دولة متقدمة ما ،

---

(٨) رسالة انجلس الى ماركس ، ٢٣ أيار ، ١٨٥١ .

(٩) انجلس : « القضية الحقيقية في تركيا » (نشر في صحيفة « نيويورك تريبيون » ، ٢ نيسان ، ١٨٥٣) ؛ في المؤلفات ، مجلد ٩ ، ص ١٥ .

(١٠) بلوم ، مصدر مذكور آنفاً ، ص ٤٦ .

والافضل من جميع النواحي أن تكون هذه الدولة الولايات المتحدة لا انكلترا. وقالا إنه يتضح على كل حـــال أن « اليانكيين النشيطين » سوف يطورون كاليفورنيا بشكل أفضل وأسرع مما فعله المكسيكيون ، أو مما يمكن أن يفعلوه ، وسيكون الاقتصاد العالمي هو الرابح [١١] .

إذا أخذت هذه النصوص بحرفيتها فإنها تجعل ماركس وانجلس يبدوان وكأنهما مدافعان عن الامبريالية ، وقد فسرها شراح محدثون على انها كذلك حتى في الزمن الحاضر . وفي الحقيقة ، لقد قبل ماركس وانجلس بالامبريالية والكولونيالية في أيامهما الاولى كحقيقتين من حقائق الحياة .

لكن هذا التفسير لآراء ماركس وانجلس ، بشكل عام ، لم يمر دون اعتراض . ففي كتاباتهما الاخيرة أبدى الرجلان موقفاً أكثر تقبلاً لمطالب القوميات الصغيرة والمتأخرة . بيد أن كونو حاول خـــلال الحرب العالمية الاولى أن يستخدم موقف ماركس وانجلس من عدوان الولايات المتحدة على المكسيك لكي يبرهن على أنهما وافقا على الحروب العدوانية . وأجـــاب كاوتسكي جواباً حاسماً بانهما قد غيرا رأيهما ، وقدم كبرهان على ذلك إدانة ماركس لحروب الفتح والغزو في خطابه إلى الاممية الاولى[١٢] .

أدان ماركس ، في الحقيقة ، ما اعتبره عدواناً من قبل نابوليون الثالث على بروسيا في العام ١٨٧٠ ، وكان المجلس العـام للأممية الاولى قد تبنى نصاً بهذا المعنى[١٣] . أما اعتبار ذلك الحدث بمثابة تعبير عام عن موقف ماركس فمسألة أخرى ، سنناقشها فيما بعد (الفصل الثامن) . المهم بالنسبة لموضوعنا الحالي أن الماركسيين المتأخرين ، ليس فقط كاوتسكي بل لينين أيضاً وغيرهما،

---

(١١) انجلس : « الرابطـــة السلافية الديمقراطية » ، نشرت في « الصحيفة الرينانية الجديدة » ، ١٥ شباط ١٨٤٩ .

(١٢) « الأزمنة الحديثة » ، ١٩١٦ - ١٩١٧ ، ص ١٤٨ .

(١٣) جوليوس برونتال : « تاريخ الأممية » ، هانوفر ١٩٦١ ، المجـــلد الأول ، ص ١٥٧ - ١٥٨ .

قد نأوا بعيداً عن الدفاع عن الموقف الذي وقفه ماركس وانجلس من الحرب الاميركية – المكسيكية .

لقد تم سلخ دوقيتي شلزويغ وهولشتين عن الدانمارك وإلحاقهما ببروسيا في العام ١٨٦٧ ، وقد أيد ماركس ذلك . وفي العام ١٨٩١ حبذ إنجلس تنظيم استفتاء لمعرفة فيما إذا كان سكان شلزويغ وهولشتين يريدون البقاء مع المانيا، رغم أن نتيجة ذلك التصويت كان يمكن أن تؤدي إلى فصل الامارتين وإعادتهما إلى دولة الدانمارك الصغيرة[١٤] .

إن مثلاً واضحاً يلفت النظر بنوع خاص إلى تطور نظرة ماركس ، وإنجلس بخاصة – هذا المثل هو حالة الجزائر. فلكي يوطد الفرنسيون مركزهم في الجزائر ، كان عليهم أن يقضوا على مقاومة القبائل الوطنية التي قاومت مقاومة عنيدة استمرت زمناً طويلاً . وعندما هُزِمَ الأمير عبد القادر ، كان إنجلس في باريس حيث كان مراسلاً لجريدة « النجم الشمالي » اللندنية . وكان رد فعله –أو رد فعل كاتب الريبورتاج ، إن لم يكن انجلس– منسجماً تماماً مع روح تعليقات ماركس وانجلس حول الحرب المكسيكية قبيل ذلك :

« ان نضال البدو أمر لا رجاء فيه ، فرغم ان الاسلوب الذي اتبعه في الحرب جنود متوحشون ، من أمثال بوغو ، يستحق اللوم ، فإن إخضاع الجزائر عمل هام وميمون من أجل تقدم المدنية . لم يكن ممكناً قهر قرصنات دول البربر ، التي امتنعت الحكومة الانجليزية عن التدخل في شؤونها ما دامت لا تتحرش بسفنها ، إلا باخضاع واحدة من هذه الدول . وقد أجبر فتح الجزائر باي تونس وباي طرابلس ، وحتى ملك مراكش ، على ولوج باب المدنية . فهم قد أصبحوا مضطرين إلى إيجاد عمل آخر غير القرصنة لشعوبهم

---

(١٤) انجلس : « الاشتراكية في المانيا » ، ١٨٩١، المؤلفات ، مجلد ٢٢ ، ص٢٥٣ .

ووسائل اخرى لملء خزائنهم من غير الاتاوات التي تدفعها لهم الدول الاوروبية الصغرى . وإذا كان قد تملكنا الأسى للدمار الذي حاق بحرية البدو في الصحراء ، فإننـا يجب أن لا ننسى أن هؤلاء البدو أنفسهم كانوا أُمة من النهابين الذين تقتصر وسائل عيشهم الرئيسية على غزو بعضهم بعضاً أو غزو القرويين المستقرين ، آخذين معهم ما يجدون في طريقهم ، ذابحين كل من يقاومهم ، بائعين السجناء الباقين كعبيد . عن بُعد ، تبدو جميع هذه الامم البربرية وكأنهـا شديدة الكبرياء والنبل والعظمة ، لكنك إذا اقتربت منها تجدها ، كالأمم الأكثر مدنية ، محكومة بشهوة الربح ، إلا أنهـا تستخدم وسائل أكثر بدائية وقساوة . وعلى كل حال فإن البورجوازي بمـا يجلبه من مدنية وصناعة ونظام وتنوير نسبي ، هو الأجدر بالتأييد من اللورد الاقطاعي أو النهاب الغازي رغم أن الاثنين ينتميان إلى مجتمع بربري » [(١٥)] .

وبعد قرابة عشر سنوات من تأييد انجلس الفعلي للاحتلال الفرنسي في الجزائر،أصبح يدرك أن الأمور لم تسر على ما يرام بالنسبة لمصلحة الجزائريين. ففي مقالة كتبها في العام ١٨٥٧ «للموسوعة الأميركية الجديدة» قدم الاحترام لبسالة عبد القادر ، بينما أدان تكتيك الفرنسيين المسمى « رازيا » ، أي الغزوات المصحوبة بتدمير قرى الوطنيين الذين يقاومون الفاتحين . كتب انجلس : « إن السكان الأصليين مـا زالوا محكومين بيد من حديد » ، والاجراءات القانونية التي اتخذت بحق الكابتن « دوانو » في العـام ١٨٥٧ « قد فضحت الوحشية الاستبدادية التي مارستها السلطات الفرنسية في إدارة

---

(١٥) ف. انجلس : « الرسائل » ، في « النجم الشمالي » ، لندن ، ٢٢ كانون الثاني ، ١٨٤٨ ؛ في المؤلفات (ميغا) ، مجلد ٦ ، صفحة ٣٨٧ ؛ وانجلس ، « الجزائر » ، في « الموسوعة الأميركية الجديدة » ، تحرير جورج ريبلي وشارل دانا ، مجلد ١ ، ١٨٦٥ ، صفحة ٣٥٠ و ٣٥١ ؛ وفي المؤلفات ، مجلد ١٦ ، ص ٧٢٤ ، رقم ٨٢ .

السلطة » . والأمر البالغ الدلالة هو أن مقالة « الموسوعة » قد وصفت ميلاد شعور قومي بين الجزائريين وردّته إلى الاحتلال الفرنسي ، مستخدمة التعبير التالي : « منذ احتلال فرنسا الاول للجزائر .. أصبحت هذه البلاد ساحة لا نهاية لها ، لإراقة الدماء ، والنهب والعنف ... إن القبائل العربية والقبيلية (البربر) ، التي تؤثر الاستقلال وتعتبر كره السيطره الأجنبية مبدأ أعز من الحياة نفسها ، قد سُحِقت ودُمِّرت بواسطة الـ « رازيا » الرهيبة ... هذه القبائل ما زالت تصر على الاستقلال وتمقت الحكم الفرنسي ... » .

يحوي المجلد ذاته من الموسوعة مقالة تثني على عبد القادر وتصوره « أباً لبلاده » . ومن الممكن أن يكون انجلس بالذات هو الذي كتب المقالة .

بالطبع ، لا ينبغي أن نفترض أن محرريْ « الموسوعة » التقدميين ، جورج ريبلي وشارل دانا ، قد اكتسبا عداءهما للكولونيالية من انجلس . وقد يكون الأمر عكس ذلك ، إذ لم يحدث قبل القرن العشرين ان بطلت موضة العداء للأمبريالية الدارجة في الاوساط الليبيرالية في الولايات المتحدة . ولكن من المعروف أن انجلس كتب المسودة الاولى لمقالته حول الجزائر ، ثم قيل أنه بث تذمره إلى ماركس فيما بعد لأن المحرران استبعدا بعض مقاطع وصفه للحركة التي قادها الأمير عبد القادر .

في الاربعينات من القرن التاسع عشر كان ماركس قد نصح العمال الايرلنديين بأن يلتزموا بأهداف مشتركة مع الشارتيين، حيث توقع أن يقوموا بثورة عمالية تؤدي بالنتيجة إلى تحرير ايرلندا . ودعا فيما بعد إلى استخدام الحركة القومية الايرلندية في سبيل تحطيم سلطة ارستقراطية الارض البريطانية، في ايرلندا أولاً ، وفي انكلترا ثانياً . لقد كان ينظر إلى استقلال ايرلندا بتشاؤم ، واعتقد أن هذا الاستقلال سيليه اتحاد فيدرالي[١٦] . وكان اعتباره

---

(١٦) انظر رسالة ماركس إلى انجلس ، ٣٠ تشرين الثاني ، ١٨٦٧ ، وماركس إلى ماير وفوغت ، ٩ نيسان ، ١٨٧٠ .

الرئيسي يرتكز على التطور الاقتصادي الذي سيوفره الابقاء على وحدات كبيرة حيث توجد (وإنشاء وحدات كبرى جديدة حيث يمكن) .

إلا أن كتابات ماركس وانجلس قد تميزت في هذا الحين ، وفي أحيان أخرى أيضاً ، بواقعية ورغبة في الاختبار . وتعرف انجلس على الفينيانية * بواسطة زوجته ليزي بيرنز (التي أصبحت زوجته حسب قانون العادة غير المكتوب) ، وزار ايرلندا ، وأصبح مهتماً بهذا البلد لدرجة أنه بدأ كتابة تاريخه . وقد أصبح ماركس مدركاً مدى التعصب الذي كان قد نما في انجلترا ضد الايرلنديين ، في الخمسينات من القرن الثامن عشر ، عندما أظهر العمال البريطانيون استياءهم من وصول المهاجرين الجدد . ولقد أضعف هذا العامل إيمانه بأن من الممكن تحقيق حرية ايرلندا في انكلترا .

وفي النهاية جاء تحرير ايرلندا ليحتل مقاماً رئيسياً في تفكير ماركس . لأنه لم يكن وحسب مسألة هامة بالنسبة للعمال البريطانيين ، بل كان أكثر القضايا أهمية . وعندما أُسست رابطة العمال الأممية في ١٨٦٦ ، لم يكل ماركس عن تأليب المجلس العام للأممية ، بما فيه القادة النقابيون المعتدلون في بريطانيا ، إلى جانب نضال الايرلنديين من أجل التحرر [١٧] . وقد أقنع ماركس وانجلس أعضاء المجلس العام ، رغم معارضة عنيفة جابهتهما ، بأن يعتبروا ايرلندا أمة مستقلة [١٨] . وفي تشرين الثاني ١٨٦٧ كتب ماركس قراراً تبناه المجلس موجهاً إياه إلى جارثون – هاردي ، ناظر الشؤون الداخلية ، يحتج فيه على الحكم بالاعدام على ثلاثة من أعضاء المنظمة «الفينيانية» .

---

* الفينيانية هي حركة مقاومة ايرلندية نشأت في القرن التاسع عشر ضد انكلترا .

(١٧) ر. بالم دات : « الأممية » ، لندن ، ١٩٦٤ ، صفحة ٦٧ .

(١٨) راجع تدخلات (كلمات) ماركس في اجتماعات « المجلس العام » ، التي عقدت بتاريخ ٩ و ١٦ و ٢٣ و ٣٠ تشرين الثاني ، ١٨٦٩ ، في « وثائق الأممية الأولى . المجلس العام للاممية الاولى ١٨٦٨ – ١٨٧٠ . المحاضر » . موسكو ، ١٩٦٦ ، ص ١٦٤ – ١٦٧ .

وأبقى ماركس القارة الاوروبية على اتصال بالأوضاع الايرلندية ، فكتب في العام ١٨٧٠ مقالتين في مجلة « الأممية » في بروكسل ، يدين فيهـا الأساليب البوليسية المستعملة في ايرلندا ؛ وفي الوقت ذاته ساعد ابنته جيني على كتابة ثماني مقالات حول ايرلندا نشرت في دورية «روشفورت مارسيلييني» . وتبنى « المجلس » قرارات عديدة في سبيل ايرلندا ، نخص بالذكر أحدها المؤرخ في ١ كانون الثاني ١٨٧٠ ، الذي حوى القول المأثور : « إن شعباً يضطهد شعباً آخر يصنع الاغلال لنفسه » [١٩] . وكتب ماركس في ذلك الوقت رسالة إلى س. ماير و أ. فوغت يعلق فيها قائلاً : « إن التحرر القومي في ايرلنـــدا [بالنسبة للعمال الانجليز] ليس مسألة عدالة مجردة أو مشاعر انسانية ، بل الشرط الأول لتحررهم الاجتماعي بالذات » * [٢٠] . ويشير قرار « المجلس » إلى أن حجة انجلترا الوحيدة في الحفاظ على جيش كبير في حالة التأهب —وهذا يمكن أن يستخدم ضد العمال الانكليز— هي الحاجة المحتملة لاستخدامه في ايرلندا .

من المناسب اقتفاء بعض التطورات في وجهة نظر ماركس حول الهند . على العكس من الرأي المقبول عموماً ، فان ماركس لم يدافع ، في ١٨٥٧ — ١٨٥٩ عن استقلال الهند أكثر من دفاع « كوبدن » و «برايت»**. وقصارى

---

(١٩) ماركس : « رسائل الى كوغلمان » ، لندن ١٩٣٥ ، ص ١٠٨ .

* كان انجلس قد كتب في العام ١٨٥٦ : « يمكن اعتبار ايرلندا المستعمرة الانكليزية الأولى...ان ما يسمى بحرية المواطنين الانجليز ترتكز في الأساس على اضطهاد المستعمرات ». رسالة إلى ماركس ، ٢٣ أيار ١٨٥٦ .

(٢٠) ماركس وانجلس : « رسائل إلى أميركيين » (نشر في الانترناشونال ، ١٩٥٣)، صفحة ٧٩ . يوجد الأصل في مكتبة المعهد العالمي للتاريخ الاجتماعي ، امستردام (رسالة ٩ نيسان ، ١٨٧٠) .

** الأول اقتصادي انكليزي من أنصار التجارة الحرة ، والثاني سياسي انكليزي من حزب الأحرار . « م »

الأمر ، انه كان يعتقد ان الهند ستحصل على استقلالهـا قبل حدوث الثورة الاجتماعية في انكلترا[٢١] . وكان ما يزال يعتقد أن الرأسمالية الانكليزية ستلعب دوراً مفيداً في الهند ، رغم الآلام والثمن الباهظ التي تستدعيهـا زعزعة بُنى ذلك البلد وإخراجه من محافظته وتأخره الدهريين . وفي العـام ١٨٦٢، استشهد، محبذاً ، بنصوص لمازيني مُغرِقه في غلوها : « في الانتفاضة الهندية ، بدا الجندي الانكليزي وكأنه نصف إله »[٢٢] .

ربما كان ثمة ضيق أفق في التمسك بوجهة نظر لا تستحق الاهتمام ، عبَّر عنها ماركس ولينين : « لن نؤيد الحركات الرجعية » ، بمعنى أن الحرب ضد الامبريالية أو الاحتلال الأجنبي لن تلقى التأييد عندما تكون قيادتها بيد طبقة رجعية . ولكن من غير الجائز أن ينسب إلى ماركس الآراء التي بسطها بعض الماركسيين في وقت لاحق. وهكذا صدر في موسكو في ١٩٥٩ كتيب بعنوان « حرب الاستقلال الاولى في الهند ، ١٨٥٧ — ١٨٥٩ » ، يصور فيه معهد ماركس- انجلس – لينين انتفاضة تلك السنوات وكأنها مقدمة لانتفاضة قومية يحييها ماركس بوصفها كذلك . إن وراء « تمرد » السباهيين أسباب أخرى غير القومية ، التي نمت في الهند فيما بعد .

كان الماركسي الهندي – البريطاني بالم دات قد أعطى تفسيراً لانتفاضة ١٨٥٧ لا تطاله الاعتراضات التي يمكن إثارتها حول معالجة معهد موسكو . لقـــد أشار إلى انه في النصف الأول من القرن التاسع عشر « أيدت الطبقة الوسطى الصاعدة ، التي يمثلها بشكل نموذجي « رام موهان روي » ، الحكم البريطاني وعملت لدعم مساعيه ، وكانت العناصر الرجعية المتفسخة والامراء

---

(٢١) ماركس : « النتائج المحتملة للحكم البريطاني في الهند » ، نشر في صحيفة نيويورك تريبيون ، ٨ آب ، ١٩٥٣ ؛ المؤلفات ، مجلد ٩ ، صفحة ٢٢٤ .

(٢٢) ماركس : « اجتماع عمالي في لندن » ، نشرت في « الجريدة » ، ٢ شبـــاط ١٨٦٢ ، فيينا . المؤلفات ، المجلد ١٥ ، ص ٤٥٥ .

الناقمون والقوى الاقطاعية هي التي قادت المعارضة ، وكان مصير هذه القيادات التأرجح والسقوط في انتفاضة ١٨٥٧ »[٢٣] .

يكفي أن نضيف على هذه النقطة قولنا : « لا مبرر لدخول البريطانيين إلى الهند وحكمها ، حتى ولو كان الذين يعارضون حكمهم على « خطأ » في ذلك الوقت » . لم يلجأ ماركس في كتاباته آنذاك في ١٨٥٧ – ١٨٥٩ كما لجأ دعاة انكلترا الصغرى والتجارة الحرة إلى استخدام الأرقام الدالة على الضرائب الباهظة التي فرضتها بريطانيا في الهند . بل بدأ باستخدام هذه الأرقام في ١٨٨١ [٢٤] .

إن رأي ماركس ، القائل بأن النتائج المحتملة لوجود انكلترا في الهند هي نتائج بناءة ، قد انطلق في الأساس من الافتراض بأن الهند ، شأنها شأن البلدان الآسيوية الأخرى ، ما زالت تقاسي من أشكال « الاستبداد الشرقي » المتحجرة ؛ وبأنها يجب أن تمر في مرحلة رأسمالية لكي تحرز تقدماً ؛ وبأن انجلترا ستكون الدافع باتجاه التحول الرأسمالي . وبعد ذلك ، في العام ١٨٧٧ وفي الأعوام التالية، رأى ماركس وانجلس (في معالجة لوضع روسيا بخاصة، التي اعتقدا أنها « استبدادية شرقية » أيضاً) أن من الممكن حذف هذه المرحلة من التطور الرأسمالي وإعادة تنظيم المشاعة الريفية كنواة لمجتمع اشتراكي . كتب ماركس إلى فيرا زاسوليتش في ٨ آذار ، ١٨٨١ :

« إن التحليل المقدم في كتاب « رأس المال » لا يعطي حججاً لصالح حيوية المشاعة الريفية أو ضدها ، لكن الدراسة الخاصة التي قمت بها حول هذا الموضوع ، والتي تابعت البحث من أجلها في

---

(٢٣) بالم دات : « مقدمة لمقالات ماركس حول الهند » ، الطبعة الثانية ، بومباي ١٩٥١ ، صفحة ١٧ – ١٨ .

(٢٤) رسالة ماركس الى دانيلسون ، ١٩ شباط ، ١٨٨١ ؛ انظر ماركس وانجلس « رسائل مختارة ، ١٨٤٦ – ١٨٩٥ » (الانترناشونال ،١٩٤٢) صفحة ٣٨٥–٣٨٦.

مصادر أصلية ، قد أقنعتني أن هذه المشاعة هي النقطة الاستراتيجية في تجديد روسيا الاجتماعي » .

وبديهي أن يكون هذا التطور مشروطاً بالانتصار المسبق للثورة الاشتراكية في أوروبا [٢٥] ، وذلك أن ماركس وانجلس بقيا يعتقدان أن القوة المحررة الرئيسية سوف تكون الحركة العمالية والاشتراكية في البلدان الاوروبية ، فهي التي سوف تحرر المستعمرات التي لم تكن قد حققت بعدُ تطوراً كافياً باتجاه تبني الاشتراكية . وهنا ينطرح السؤال التالي : « ما هو التأثير الذي سيلحق بأوروبا الاشتراكية من جراء وجود أمم رأسماليــة صاعدة قوية خارجها ؟ » . لقد كتب ماركس إلى انجلس في ٨ تشرين الاول ١٨٥٨ :

« إن السؤال الخطير بالنسبة إلينــــا هو هذا : الثورة في القارة وشيكة الحدوث ، وستأخذ طابعاً اشتراكياً منذ البداية . ولكن ، هل من غير المحتم لها أن تُسحق في هذه البقعة الصغيرة ، ما دامت حركة المجتمع البورجوازي لا تزال صاعدة في مناطق أوسع بكثير ؟ » [٢٦] .

لا يبدو أن انجلس قدم جواباً على هــــذا السؤال آنذاك ؛ لكنه كتب رسالة تأملية إلى كاوتسكي في ١٨٨٢ :

« برأيي ان المستعمرات بالمعنى الأصلي للكلمة ، أي البلدان التي يقطنها سكان أوروبيون – كندا، الكاب ، أوستراليا – ستغدو جميعها مستقلة ؛ وبالمقابل ، فإن البلدان المستعبدة فحسب ويقطنهــا السكان الأصليون – الهنــــد والجزائر والممتلكات الهولندية والبرتغالية

---

(٢٥) ستيوارت شرام وهيلين كارير دانكوس : «الماركسية وآسيا»، باريس ، ١٩٦٥، صفحة ١٩ ، (نشرته دار الحقيقة تحت عنوان « الماركسية اللينينية أمام مشاكل الثورة في العالم غير الاوروبي ») .

(٢٦) ماركس إلى انجلس ، ٨ تشرين الأول ، ١٨٥٨ .

والاسبانية – ينبغي على البروليتاريا أن تأخذ بيدهـا لمدة من الزمن وأن تقود بما يمكن من السرعة نحو الاستقلال[٢٧] » .

وبينما كان ماركس ميالاً في البداية إلى تقدير الرأسمالية بأكثر مما تستحق في تطوير المناطق المتأخرة في العالم ، أتى هجومه اللاذع ضد الكولونيالية في الجزء الأول من « رأس المال » ، ذلك الهجوم المدعوم بالوثائق ، ليوجه ، بالإضافة إلى مقالاته الشهيرة حول الهند ، إدانة قوية لا تدحض للكولونيالية على أساس الشعور الانساني ، إدانة جعلت الماركسية منذ ذلك الحين تُعتبر ، عن حق ، معادية للنظام الكولونيالي[٢٨] . وحتى قبل احتدام التسابق نحو اصطياد المستعمرات الذي بدأ في حوالي العـــام ١٨٧٠ ، أعطت الاممية الاشتراكية إشارة حول ما يمكن توقعه . وعلى هذا فإن الأممية الثانية قد سجلت بُعيد تأسيسها في عام ١٨٨٩ إدانة عنيفة للنظام الكولونيالي، وبقيت ثابتة في موقفها هذا ، رغم الهجمات من اليمين ، حتى الحرب العالمية الأولى . بقي أن تعطي أسباب التوسع الكولونيالي الجديد شرحاً وتفسيراً ماركسيين، وأن تدمج حقوق المناطق المستعمرة ، في إقامة حركات وحكومات قومية ، في النظرية الماركسية ، ولم يكن صعباً على الأجيال اللاحقة تحمل أعباء هذا العمل . والحقيقة ان عبقرية ماركس وجهوده التي لا تكل قد وجهت ضربة قاضية إلى الرأسمالية في أضعف نقاطها .

ان تعليقات ماركس وانجلس اللاذعة حول مختلف الشعوب الصغـيرة المتخلفة يجب أن لا تعتبر بوصفهـا آراء مسبقة مجحفة ضد هذه الشعوب ، بشكل عام أو خاص . فكلا الرجلين كان ، على أية حال ، أكثر حدة في

---

(٢٧) انجلس إلى كاوتسكي ، ١٢ أيلول ، ١٨٨٢ ؛ أنظر ماركس وانجلس ، « رسائل مختارة » ، الانترناشونال ، ١٩٣٥ ، صفحة ٣٩٩ .

(٢٨) ماركس : « رأس المال » ، مجلد ١ ، فصل ٣١ وما بعده . نشرت معظم المقالات حول الهند في كتاب « نصوص حول الاستعمار » ، موسكو ، ١٩٦٠ .

نقده القارس وإدانته للشعوب المتقدمة ، وقد تمكنا دائماً من دعم نقدهما الساخر العنيف بالوثائق . ومن هو ذلك الشعب الذي سلك خلال التاريخ درباً يميزه السمو العقلي والتقدم ؟ لم يكل ماركس وانجلس عن تعنيف الالمان والفرنسيين والانكليز والنمساويين ، بل كل قومية عالجا أوضاعها . وهكذا تحدث انجلس بمرارة عن الالمان قائلاً : « لم يكن الالمان قوميين البتة حين تطابقت المصالح القومية مع التقدم ؛ وكانوا دائماً قوميين حين تعارضت القومية مع التقدم »(٢٩) .

ففي حديثهما عن الامم المتقدمة والمتخلفة ، تعرض لها ماركس وانجلس بهجوم وصفي حماسي طروب . مثال ذلك ما كتباه في « الايديولوجية الالمانية » (١٨٤٥) عن « أنذل أمتين على وجه البسيطة ، الخداعين البطريركيين (الصينيين) والخداعين المتمدنين (اليانكيين) » . وكتب انجلس عن السكاندينافيين الذين يُنوه بهم اليوم ، أحياناً ، بوصفهم أكثر شعوب العالم تمدناً :

« تتكون السكانديناڤية من عاطفة حماسية ترتبط بقومية « نوردية » عتيقة همجية قذرة قرصانية ، ومن تلك الباطنية البعيدة الغور التي لا تستطيع التعبير عن أفكارها ومشاعرها المسرفة بالكلمات ، بل تعبر عنها، على نحوٍ لا يدع مجالاً للسؤال ، بالأفعال، أي بالوحشية تجاه النساء والسكر المزمن والعاطفية الباكية التي تتناوب الضراوة المسعورة »(٣٠) .

لقد جاء تأييد انجلس لتوسع فرنسا والولايات المتحدة الأميركية الامبريالي، وتأخر ماركس (إذا صح ذلك) في الدعوة إلى استقلال الهند عن انكلترا ، نتيجة مفهومهما الخاص حول تتابع الأحداث في تطور البلدان المعنية .

---

(٢٩) انجلس : « الدساتير الجديدة الثلاثة » ، نشرت في ٢٠ شباط ١٨٤٨ . المؤلفات، المجلد ٤ ، ص ٥١٦ – ٥١٧ .

(٣٠) الصحيفة الرينانية الجديدة » ، ١٠ أيلول ١٨٤٨ .

فإذا كان الوصول إلى الاشتراكية يتم في بلد ما بعد أن يمر بطهر الرأسمالية أولاً، وإذا كانت الرأسمالية مرحلة تقدمية قياساً بالمرحلة ما قبل الرأسمالية (اقطاعية كانت أم بدائية)، وإذا كانت أسرع الأساليب لاطلاق بلد متخلف على دروب النمو الاقتصادي هي سقوط هـذا البلد تحت سيطرة بلد متقدم يقوم بتطويره – إذا كان الأمر كذلك، يصبح من الطبيعي أن يؤيد ماركس وإنجلس السيطرة على البلدان المتخلفة وإخضاعها، مهما بلغت درجة عدم رضاهما عن هذه السيطرة من الناحية الانسانية. وفي وقت متأخر فقط، حين اتضح عدم واقعية هذه الافتراضات وتكشفت الطبيعـة الاستغلالية للامبريالية، أسقطت الماركسية هـذه النظرة ودعت إلى مقاومة التوسع الامبريالي مقاومة حازمة، وإلى انهاء السيطرة الامبريالية بأسرع ما يمكن.

ان إحدى أدوات هذه المعركة، وهو شعار حق الشعوب في تقرير مصيرها والتجاوب مع المشاعر القومية، بدأت فحسب تبدي فوائدها عندما كان ماركس وانجلس في بداية عملهما. ومن هنـا فان المطالبة (عندما بدأت) باستقلال بولونيـا وايرلندا لم تكن قائمة على أساس مبادىء عامة شاملة في حقوق الانسان، بل لأن هذه المطالبة بدت تقدمية بالنسبة إلى مجمل الأوضاع الاقتصادية والسياسية في كل من البلدان (أو البلد) الامبريالية والبلدان المضطهدة. وفي هـذا السياق يمكن فهم الاهتمام المحدود نسبياً الذي أولاه ماركس وانجلس للقومية.

من الواضح ان ماركس وانجلس لم يعيدا النظر في موافقتهما على الفكرة التي تقول ان العبودية (أو الرق) تشكل مرحلة تاريخية. غير ان الماركسيين اللاحقين قد انهمكوا في تبيان ان فائض القيمة الذي تخلقه اقتصاديات العبودية نادراً مـا كان يستخدم في سبيل التنمية الصناعية، بل بالأحرى في توسيع نطاق الاقتصـاد العبودي، أو توسيع النخب النافذة المعادية للديمقراطية، أو يكتنز، أو يستخدم لشن الحروب والإنفاق على المظاهر الاستعراضية غير المنتجة. ولقـد لقيت ثورات العبيد (الرقيق) القومية تقدير الماركسيين

اللاحقين . ولم تستطع نظرية مورغان في مراحل التطور أن تصمد للنقد ، لذا فإن منظومة انجلس الفكرية حول المراحل ، القائمة على نظرية مورغان ، منظومة بالية عفى عليها الزمن .

ماركس وانجلس ، عرقيان

لقد اتهم ماركس باللاسامية على أساس مقالته «المسألة اليهودية»(١٨٤٣)، التي حمل فيها على اليهود إذ قال أنهم أدخلوا إلى الرأسمالية جميع الرذائل الرأسمالية المميِّزة ؛ وقال أن دين اليهود الحقيقي هو التفتيش عن المال .

يجب قراءة هذه المقالة ككل . وعندما نفعل ذلك نرى أن كل ما قاله ماركس عن اليهود قاله عن المسيحيين الذين أخذوا ، كما قال ، الاخلاقية الرأسمالية عن اليهود وجعلوها أخلاقيتهم . « لقد انبثقت المسيحية من اليهودية ، وهي قد ارتدت الآن لتنحل ثانية في اليهودية » ، أما مسؤولية الدين اليهودي عن الأخلاق الميركانتيلية للرأسمالية فناجمة بالأحرى عن وضع اليهود كرواد الاقتصاد النقدي في العصور الوسطى لا عن دينهم ، فذلك الوضع كان السبب الحقيقي لارتباطهم بتلك السمات الخاصة التي مقتها ماركس. والحقيقة أن ماركس قد نوه بأن علاقة السبب بالنتيجة إنما تذهب بالاحرى من الاقتصادي إلى المناقبي والاخلاقي لا العكس ، فكتب قائلاً : « إن المجتمع البورجوازي يُخرج اليهودي باستمرار من أحشائه»[٣١] . وقد خالف ماركس دعوة برونو باور إلى انكار الحقوق المدنية على اليهود . كما أن ماركس لم يعتبر نقائص اليهود نقائص فطرية .

وكما أن كتابات انجلس حول المسألة القومية تبدو أحياناً ، حسب تعبير ريازانوف ، « متهورة جداً » [٣٢] ، كذلك كان لدى ماركس ميل إلى

(٣١) ماركس:« المسألة اليهودية » ، ١٨٤٣ . المؤلفات ، مجلد ١ ، ٣٧٤ — ٣٧٦ .

(٣٢) ريازانوف : « ماركس وانجلس والمسألة البولونية » ، ص ١٨٦ .

العرقية خفف من حدته التعاون مع انجلس . وهكذا تم إنقاذ الماركسية من الانحراف في المزالق العمياء التي شقها العلم الزائف في منتصف القرن التاسع عشر . لقد كان ماركس مهيأ لتبني فكرة الكاتب الفرنسي « تريمو » ، عندما قرأها للمرة الأولى في العام ١٨٦٦ ، تلك الفكرة التي سعت إلى تعليل اختلافات الصفات القومية بردها إلى أنواع التربة الجيولوجية . إلا أن انجلس ، الذي كان يلم بالجيولوجيا ، قوّم تفكير ماركس . وكان « ترامو » قد أطلق أيضاً نظرية مفصلة حول أصل العروق البشرية ، حاول فيها البرهان على أن « الجنس الزنجي العادي ليس إلا انحطاطاً لجنس أعلى بكثير » . كذلك كان ماركس مهيأ لقبول هذا الخط الفكري ، إلا أن انجلس كان مؤهلاً كذلك لدحض « ترامو » ، وقد قرّع ماركس على ذلك بلطف لكونه لم يكن حذراً كما ينبغي [٣٣] .

لقد كان ماركس وانجلس يفتقران إلى التهذيب والروح العلمية في استخدامها للنعوت . وهما يبدوان هكذا في هذه الأيام بخاصة ، حيث تعتبر الابادة الجماعية جريمة دولية . وإذا ذكّرنا الآن بأن معظم المثقفين البارزين في عصرهما كانوا يشاطرونهما هذا التحامل ، فإننا لا نرمي إلى الدفاع عنهما بقدر ما ننقد عصرهما . لقد فوّت ماركس وانجلس فرصة رائعة لكي يكونا مثلاً للتسامح والحكمة أمام أتباعهما . ان استعمالهما بين الحين والآخر كلمة «زنجي» بمعنى ازدرائي — في رسائلهما الخاصة ، يجب ألا يحجب الخدمات الرائعة التي قدماها خلال الحرب الأهلية الامريكية ، مساعدات تمثلت في تعبئة الطبقة العاملة في بريطانيا إلى جانب الشمال ، في الوقت الذي كادت فيه المصالح الصناعية والتجارية المهيمنة أن تدفع انكلترا إلى محالفة الكونفيدرالية (الجنوبية) .

---

(٣٣) رسائل انجلس الى ماركس ، ٧ آب ، ٢ تشرين الأول ، و ٣ تشرين الأول ، ١٨٦٦ .

إن ميدان الطبقات الاجتماعية وعلاقتها بمسألة القومية والانتماء القومي هو الميدان الذي نتطلع فيه إلى الماركسية كموجه ، ذلك أن ماركس قـد وضع النضال الطبقي في صدر تحليله للتاريخ الماضي والمعاصر ، وأبرز ذلك بشكل دراماتيكي . لكن ، كما أن ماركس لم يكمل تحليله للطبقات (فالجزء الثالث من « **رأس المال** » يتوقف بشكل مثير للعذاب بالضبط في النقطة التي يبدو فيها أنه يهم بالغوص في الموضوع بعمق) ، كذلك فإن العودة إلى الطبقة في مناقشاته للمسائل القومية قليلة ومخيبة .

عندما تخدم المشاعر القومية قضية عادلة ، فإنها تستحق التأييد ، أمـــا عندما تعرقل سير التقدم فتستحق الرفض كنوع من « الآراء أو الأوهـام المسبقة » pregudice . وقد استخدم ماركس هذا التعبير بمعنيين متغايرين في مقطع واحد . كتب ماركس عندما ناقش موقف العمال الفرنسيين والبريطانيين من حرب القرم ما يلي : « إن البروليتاريين البريطانيين والفرنسيين مفعمون بالروح القومية النبيلة ، رغم أنهم متحررون إلى هذا الحد أو ذاك من الآراء أو الأوهام المسبقة للقومية القديمة التي يشترك فيها الفلاحون في كلا البلدين»[٣٤]. متى تتحول « الأوهـــام القومية القديمة » إلى « روح قومية نبيلة » ؟ يعود ماركس ، بالطبع ، في كلتا الحالتين إلى المشاعر القومية . فهل هو يعني أن البروليتاريا على حق دائماً ؟ إذا كان الأمر كذلك فمن غير الممكن أن نحسبه على درجة كافية من الحذر العلمي .

وما إن أصبح ماركس وانجلس ملتزمين بفلسفة البروليتاريا الأممية حتى أصبح من النادر أن يوردا ذكر القومية دون الاشارة إليها بنعت مستنكر ، « كضيق الأفق » مثلاً .

---

(٣٤) ماركس : « احتمالات في فرنسا وانجلترا » (نشر في صحيفة نيويورك تريبيون ، ٢٧ نيسان ١٨٥٥) . المؤلفات ، مجلد ١١ ، ص ١٨١ .

أبدى انجلس امتعاضه في العام ١٨٤٨ من الحكومة البلجيكية التي ناشدت « المشاعر القومية الضيقة » ، السائدة في صفوف طبقة معينة من السكان ، لإثارة الشعب ضد الثائرين الالمان ، من أمثال ماركس ، وفي سبيل طردهم خارجاً [٣٥]. وانتقد ماركس الفلاسفة الالمان موجهاً إليهم اللوم لأنهم قوميون محدودو الأفق دون أن يعوا ذلك :

« إذا كانت النزعة القومية الضيقة أمراً يبعث على النفور في كل مكان ، فإنها تصبح أمراً بغيضاً في المانيا ، لأنها تقترن هنا بوهم يزعم أن الالمان أسمى من القومية والمصالح العملية ، وذلك على العكس من تلك الامم التي تملك من الصراحة ما يجعلها تعترف بما لديها من نزعة قومية ضيقة وخضوع للمصالح العملية » [٣٦] .

وبالرغم من اننا نستطيع أن ننسب إلى البروليتاريا « الروح القومية النبيلة » ، إلا أن رسالتها التاريخية تتمثل ، كما قال ماركس ، في إسقاط البورجوازية وبناء الأممية البروليتارية . لذا فإن مشاعر البروليتاريا على المدى الطويل لن تكون قومية ، بل أممية . وهذه هي النظرة التي عمل ماركس وانجلس ورفاقهما طوعياً على تأكيدها . لذا كان سهلاً أن يصلا إلى موقف ينسبون فيه المشاعر الاممية إلى البروليتاريا ويعتبرونها مشاعرها الطبيعية ، بخلاف المشاعر العابرة القومية ، أو « الأوهام المسبقة » . كتب انجلس في العام ١٨٤٥ : « ان الأغلبية العظمى من البروليتاريين مبرؤون بطبيعتهم من الآراء والأوهام القومية المسبقة ، وأن تربيتهم وحركتهم هي في الأساس إنسانية وضد القومية » [٣٧] . وكتب ماركس في ذلك الحين : « صحيح

---

(٣٥) رسالة انجلس إلى محرر « النجم الشمالي » ، (نشرت في ٢٥ آذار ، ١٨٤٨) ، المؤلفات ، مجلد ٤ ، ص ٥٣٢ .

(٣٦) « الايديولوجية الالمانية » ، ص ٥١٨ .

(٣٧) انجلس ، المؤلفات ، المجلد الثاني ، ص ٦١٤ .

بالطبع أن يكون الإلحاح على القومية موجوداً حصراً ، الآن ، بين البورجوازية وكتابها »[٣٨] .

لقد أمسك ماركس وانجلس بكل شاهد يمكن أن يكون دليلاً على أن البروليتاريا أشد نزوعاً إلى الاممية من البورجوازية . واستشهد ماركس بتصريحات أخوية اطلقت على الجهتين المتقابلتين من الحدود في العام ١٨٧٠ كدليل على أن عمال فرنسا والمانيا أبدوا من المشاعر القومية أقل مما أبدته الطبقات العليا في كلا البلدين . ونسب هذه المشاعر البروليتارية إلى الحالة المتقدمة في وعيهم الطبقي. وكتب الى انجلس في تموز ١٨٧٠ ،حول التظاهرات القومية في المانيا ، فقال :

« من حسن الحظ أن تكون هذه التظاهرة قد انطلقت بمجملها من الطبقة الوسطى . أما الطبقة العاملة ، باستثناء أتباع شويتزر المباشرين ، فلا تشارك بأي قسط منها . ومن حسن الحظ أن **حرب الطبقات** في كلا البلدين، فرنسا والمانيا ، قد بلغت من التقدم حداً كافياً يجعل من المستحيل على حرب **خارج الحدود** أن تعود بعقارب التاريخ جدياً إلى الوراء »[٣٩] .

كان من سوء حظ الاممية البروليتارية أن يجرف تنامي المشاعر القومية في أواخر القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين البروليتاريا . وقد لفت النقابي « لاجارديل » في مقالة كتبها عام ١٩٠٢ الانتباه إلى أن جماهير العمال تنزع إلى الشوفينية ، وأعرب عن أسفه متمنياً على « الحزب الأشتراكي »أن يحارب بجماع قلبه الوطنية الديماغوجية لدى الأحزاب البورجوازية ، وكلها أحزاب قومية . وقال : « لكن الأمر لسوء الحظ ليس كذلك »[٤٠] .

---

(٣٨) « الايديولوجية الالمانية » ، ص ٥١٨ .

(٣٩) رسالة من ماركس إلى انجلس ، ٢٨ حزيران ، ١٨٧٠ .

(٤٠) هـ. لاغارديل : « القومية في فرنسا » ، « الأزمنة الحديثة » ، المجلد ٢ ، العدد ١ ، ١٩٠١ - ١٩٠٢ ، ص ٤٧ .

لما كان المجتمع منقسماً إلى طبقات ، فإن واحدة منها تمارس في وقت ما، وأخرى في وقت آخر، الدور المسيطر في توجيه السياسة . فهل يمكن اعتبار طبقة ما « الطبقة القومية » ؟ من الممكن لطبقة ما أن تمارس السلطة في مرحلة هامة ، كما يرى ماركس وانجلس ؛ وعندما تمارس السلطة بطريقة مواتية لنمو قوى الانتاج ، تكون قد بررت عدالة ادعائها بأن تعتبر « الطبقة القومية » . كتب انجلس في العام ١٨٨٨ : « أصبح الرأسماليون الانكليز في أواخر القرن التاسع عشر الطبقة القائدة في الامة ، الطبقة التي كانت مصالحها في ذلك الأوان هي المصلحة القومية » [٤١] .

يرى بعض الكتاب ، من أمثال سلومون بلوم ، أن هذا التصور للطبقة القومية يعني « في جميع الأحوال الحديث عن الحاجات القومية أو عن رفاهية الامة اللتين يزعم أنهما هدف قومي يرفرف ، مهما بلغ من عدم التحديد ، فوق حلبة الطبقات المتصارعة » . ويضيف : « وفي غير ذلك من الحالات ، إن فكرة الأمة وفكرة الطبقة تستبعد كل منهما الأخرى وتنفيها » [٤٢] . تنطوي حجة بلوم على ما يلي : عندما تتبع الطبقة « القومية » القائدة سياسة تتفق ومصلحة الأمة ، يصبح من واجب الطبقات الأخرى أن تنضوي تحت لوائها وان تضع جانباً أو تُواري مصالحها الطبقية الخاصة مؤقتاً ، في أوقات الازمات القومية بوجه خاص .

نحن لا نعتقد أن هذا هو المعنى الذي أراده ماركس وانجلس من هذا التعبير . و « فكرة الأمة » ، في حد ذاتها ، ليست واردة بالنسبة إليهما ، ويمكن أن نطلق على من استخدم هذا التعبير صفة « المثالية » على الطراز

---

(٤١) انجلس : « الحماية والتجارة الحرة » ، كتب ونشر في عام ١٨٨٨ كمقدمة الطبعة الأميركية لخطاب ماركس حول التجارة الحرة . المؤلفات ، مجلد ٢١ ، صفحة ٣٦٢ .

(٤٢) بلوم ، مصدر مذكور قبلاً ، ص ٥٨ .

الهيغلي الأصلي. كذلك ليس من مصلحة قومية فوق مصالح الثورة البروليتارية، رغم أن ماركس وانجلس ، كما رأينا قبلاً ، قد اعتقدا أن وجود الامم أمر ضروري من أجل مصلحة الجميع ومن أجل نمو القوى المنتجة .

لا شك في « الطبقة القومية » توجه إدارة الشؤون العامـــة خلال فترة هيمنتها بطريقة تفيد مصلحتها كطبقة ،ورغم ذلك فإنها تزعم على الدوام بأن المصالح التي تمثلها هي مصالح قومية وان إدارتها تسلك السبيل الذي يتلاءم مع مصالح الشعب كله . وعندما كانت هذه الطبقة تخدم نفسها كطبقة ، بشكل سافر ودون حياء ، درج ماركس (الذي قضى وقتاً طويلاً يكتب للصحافة) على دعوتهـــا إلى تأدية واجبها وعلى اتهامها بأنها تضع مصالحها الطبقية فوق المصلحة العامة .

كتب ماركس مثـــلاً ، في مقالاته في « نيويورك تريبيون » ، يقول : « أما بالنسبة للارستقراطية الانكليزية ، التي تمثلها الوزارة الائتلافية ، فانها تضحي ، عندما تدعو الحاجة ، بالمصالح القومية الانجليزية في سبيل مصالحها الطبقية الخاصة » (٤٣) .

ويكتب بلوم زاعمـاً أنه يشرح ماركس : « إذا تزعّمت طبقة ما ، فعلى الطبقات الاخرى أن تتبعها » (٤٤) . ان ماركس لم يقل ذلك إطلاقاً . والأمثلة التي أعطاهـــا بلوم تثبت العكس ، إذ تبين أن العمال والفلاحين لم يكونوا قانعين خلال الثورة الفرنسية ، التي أشار إليها ماركس ، بترك دفة الثورة إلى البورجوازيين ، رغم أنهم كانوا الطبقة القائدة التي تنمي القوى المنتجة . على العكس من ذلك ، لقد أخضع العمال والفلاحون البورجوازيين لضغط مستمر ؛ وهذا الضغط ، كما يقول بلوم ، « كان الضمانة بأن لا يقدم

(٤٣) ماركس : « صحافة لندن » ، نشر في « نيويورك تريبيون » ، ١١ نيسان ، ١٨٥٣ ؛ المؤلفات ، مجلد ٩ ، ص ٢٠ .

(٤٤) بلوم ، مصدر مذكور قبلاً ، ص ٦٠ .

البرجوازيون مصالحهم على القضية المشتركة »[٤٥] .

من الممكن استخدام فكرة « الطبقة القومية » للدفاع عن الطبقة الحاكمة في مجتمع يتقدم تقدماً اقتصادياً سريعاً رغم كونه غير ديمقراطي ومحكوم بطبقة مغلقة[٤٦] . بيد أن استعمال مفهوم الطبقة القوميـة بهذه الطريقة أو بالطريقة التي اتبعها ماركس وانجلس لا يضيف شيئـاً إلى هيكل التحليل الموجود من قبل . فهو يسبب ارتباكات غير ضرورية .

في رأي ماركس وانجلس ان المجتمع الحديث ينزع نحو الانقسام أكثر فأكثر إلى طبقتين رئيسيتين: البورجوازية، أي الطبقة الوسطى، والبروليتاريا، أي الطبقة العاملة . بما أن غالبية السكان في بعض البلدان ، كما في فرنسا ، ليست منتمية إلى أي من هاتين الطبقتين ، بل مؤلفة من مزارعين صغـار (فلاحين) ، وبمـا أن ماركس قد أبرز في كتابات أخرى (غير البيان الشيوعي) بقاء طبقة من الملاكين الكبار، لذا فإن المقصود بالتقسيم الوارد في « البيان الشيوعي » إنما ينصرف إلى المستقبل أكثر منه إلى الحاضر . أما إذا كان الأمر بين الطبقتين الرئيسيتين فقط ، فليس هناك شك في ذهن ماركس بأن الطبقة الوحيدة التي لها الحق في أن تعتبر الطبقة « القومية » هي ، على المدى الطويل ، البروليتاريا ؛ وهي ليست كذلك إلا لأنهـــا ستمتص ، بعد الثورة الاجتماعية ، الطبقات الأخرى التي كان عليهـا أن تدحرها قبل كل شيء .

كانت البورجوازية قوة تقدمية في الماضي القريب ، والواقع أن ماركس قد اعتقد انها ستستمر كقوة تقدمية في البلدان المتأخرة حتى بعد أن تنتصر

---

(٤٥) المصدر السابق ، صفحة ٦١ ، حيث يستشهد بنص لانجلس من « الثورة والثورة المضادة في المانيا » ، ص ١٤١ — ١٤٢ .

(٤٦) لختهايم : « دراسة تاريخية نقدية حول الماركسية » ، ص ٨٨ .

الاشتراكية في اوروبا . ففي تلك البلدان ، كما في اوروبا ، حيث ما تزال البورجوازية تجد نفسها في صراع مع الرجعية الاقطاعية ، تقضي مصلحة العمال ويفرض واجبهم بمساعدة البورجوازية . غير أن لينين قد أضاف فيما بعد شرطاً يقضي بأن على البروليتاريا ، حيث وجدت نفسها قوية بما فيه الكفاية ، أن تأخذ بزمام القيادة في الصراع القائم .

لقد كانت « المصلحة القومية » بالنسبة إلى ماركس تعبيراً بورجوازياً يُستخدم لإخفاء واقع الأمور الحقيقي . ولما كان يعتقد بأن نظرية الافقار المتزايد تجعل من غير الممكن أن يكون هناك تحسن في أحوال العمال ، فإنه لم يدع فرصة إلا وأكد فيها أن مصالح البورجوازيين لا تتطابق مع مصالح الشعب ككل إلا جزئياً وبشكل عابر .

من الواضح أنه كان لزاماً على ماركس عند دراسة القومية أن يأخذ سيكولوجية مختلف شرائح المجتمع بعين الاعتبار . وقد نبعت هذه الحاجة من الافتراض ، الذي وضعه باكونين بوضوح وقَبِلَهُ ماركس عملياً ، القائل أن الوعي الطبقي والشعور القومي هما حقيقتان واقعتان متشابهتان ويجب معالجتهما على أساس أنهما كذلك . ان طريقة ماركس وانجلس الديالكتيكية لا تنكر وجود مثل هذه الوقائع ، حتى عندما تسير في عكس ما قد يتنبأ به المنظرون . وانكارها منافٍ للمنهج العلمي . إن أقصى ما تستطيع أن تفعله النظرة المادية هو أن تشرح وتعلل الافكار ، وهي غالباً ما تفعل ذلك بطريقة مستحيلة تماماً على المؤرخين الذين ينحون الأفكار تاريخاً طبيعياً خاصاً بها ، ومستقلاً عن محتواها الاجتماعي . وفي وسع الماركسيين ، بكل تأكيد أيضاً ، أن يطرحوا سياسات وتنبؤات ، ولكن يتعيَّن أن تثبت نفسها في الممارسة ، كغيرها من السياسات والتنبؤات . إلا ان التصور المادي للتاريخ ، كما يشير « كروس » لا يتضمن بالضرورة أي حل معين

لمشاكل التاريخ[٤٧] . لذا من المألوف أن يختلف الماركسيون فيما بينهم، لا حول السياسات وحسب ، بل حول الوقائع والتعليلات التي توضع حولها .

التناقضات في الموقف الماركسي

لاحظنا سابقاً أن موقف ماركس وانجلس من المشاكل المتعلقة بالمسائل القومية لم يكن موقفاً منسجماً ومتماسكاً على الدوام . ان تخليهما عن خطهما المبكر المؤيد للامبريالية وانتقادهما أعمال الدول الكولونيالية الاستغلالية انتقاداً حاداً قد مثَّل تقدماً يستحق الاستحسان بكل تأكيد . لكننا نلاحظ ، كما أشرنا سابقاً ، أن ثمة تناقضاً وعدم انسجام في معالجتهما بعض النقاط الأخرى ، مثل حق تقرير المصير ، ومستقبل سلاف الجنوب، والقبول بحروب هجومية، والتعرفة الجمركية الحمائية . والخيط الموحد بين هذه الامور هو المعارضة الشاملة للاستغلال والدفاع عن حقوق المستضعفين ؛ لكن الاستهداء بهذا المبدأ المرشد لم يكن دائماً .

تبرز المسألة الحقيقية في تعليل موقف ماركس وانجلس من القومية عندما تتضارب خيوط تفكيرهما المتعددة حول الطبقة القومية ، أو عندما تقف الحوادث دون إثبات صحة تنبؤاتهما ، مما يتركنا في حيرة حول أي من الاقتراحات البديلة المتعددة التي كان ممكناً أن يختاراها . ولقد بدأت هذه المسائل في البروز حتى في حياتهما .

ليس للعمال مصلحة، حسبما يقول «البيان الشيوعي»، في المجتمع الرأسمالي، فلا تخالجهم بالتالي مشاعر وطنية إزاءه . ولكن لنفترض ان هذا المجتمع قد وفر لهم مصلحة أو فائدة ، من خلال حصولهم على حق الاقتراع وتحسين مستواهم المعيشي وتعويض التقاعد في الشيخوخة ، فهل يصبح لهم وطن ،

---

(٤٧) بنديتو كروس : « المادية التاريخية والاقتصاد عند كارل ماركس » ، مريدت ، لندن ١٩١٤ ، صفحة ١٥ .

وهل مصالحه هي مصالحهم ، في كل البلدان ، واحداً بعد الآخر ؟

لقد أكد ماركس وانجلس في « البيان الشيوعي » تأكيداً واضحاً على أن المستوى المعيشي للعمال في البلدان الرأسمالية سوف يتدنى أكثر فأكثر ، وتمسك بهذا الموقف الماركسيون المذهبيون لوقت طويل فيما بعد[٤٨] . وعلى أية حال ، لقد هجر ماركس وانجلس نفسهما هـذا الموقف الذي لم تؤيده الوقائع ، وأصبحا يؤكدان في أواخر الستينات من القرن التاسع عشر على الفقر النسبي للعمال ، الذين أخذت ظروفهم المعاشية المطلقة بالتحسن . لقد نوه ماركس بإمكانية ارتفاع الاجور في الجزء الاول من كتاب « رأس المال » ، المنشور في ١٨٦٧ ؛ واضطر انجلس في العام ١٨٦٩ إلى الاعتراف بأن الطبقة العاملة البريطانية قد أحرزت تقدماً عندما تذكر الحالة التي وجدها فيها عند بداية وصوله إلى مانسشتر .

وبحلول العام ١٨٩١ كان انجلس قد تخلى تماماً عن فكرة تزايد الفقر المطلق للبروليتاريا . في تشرين الأول ١٨٩١ دُعي إلى الانعقاد مؤتمر الحزب الاشتراكي – الديمقراطي الالماني ، وكان قد خرج من اللاشرعية منذ أمد قصير ، وكان مفروضاً في البرنامج الذي سيتبناه المؤتمر آنذاك أن يرسم سياسة الحزب لسنين عديدة قادمة . وقد أرسلت زعامة الحزب نسخة عن مشروع البرنامج إلى انجلس في حزيران ، وقد ورد فيه ، بين أشياء أخرى ، ان بؤس البروليتاريا في تفاقم دائم . ولم تكن هذه الفكرة سوى تكرار ببغاوي لما ورد في « البيان الشيوعي » (١٨٤٨) . واعترض انجلس على هـذه الفكرة ، فكرة « تزايد البؤس » . وقال معلقاً : « إن هـذا التعبير بهذه الصيغة غير المتحفظة ، وغير المقيدة أمر غير صحيح » . إن تنظيم العمال واستمرار نمو مقاومتهم يمكن أن يؤديا إلى كبح تزايد الفقر إلى حدٍ مـا .

---

(٤٨) أنظر مقالة المؤلف « تحليل لنظريات ماركس حول الامبريالية والحركة العمالية » في مجلة « العلم والمجتمع » ، مجلد ٢٦ ، عدد ١ ، ١٩٦٢ .

لكن حالة عدم الاستقرار والطمأنينة في العيش سيزداد بالتأكيد »[٤٩] . وقُبل هذا النقد وحذف النص المتعلق بـ « البؤس » من البرنامج الذي أُقر في إيرفورت في تشرين الأول ، واستبدل بنص يؤكد أن « حالة عدم الاستقرار الشاملة قد أصبحت الحالة الطبيعية للمجتمع » .

لقد عزا الاقتصاديون البورجوازيون في الربع الثالث من القرن التاسع عشر التحسن في أحوال العمال المعاشية إلى التجارة الحرة . وعندما حلت الحماية الجمركية مكان التجارة الحرة ، وأصبحت الامبريالية وضعاً سائداً ، عُزي التحسن (رغم بطئه) في مستوى معيشة العمال الى الامبريالية ، لم يكن في وسع انجلس إلا أن يسقط منجرفاً في تيار الفكرة الرائجة . وقد تنبأ بنمو « بروليتاريا بورجوازية » في انكلترا ورأى ان هذا التطور ليس أمراً مستغرباً في « بلد يستغل العالم بأجمعه »[٥٠] . لقد تحدثنا في مكان آخر عن الأسباب التي تجعلنا نعتبر هذا التحليل غير وافٍ ، لأنه لا يأخذ بعين الاعتبار النظرية البديلة التي ترد هذا التحسن المعيشي إلى التحسن التقني وارتفاع الانتاجية في البلد المعني وخارجه[٥١] . لقد تم التحسن الاقتصادي ، حسب ما تقول هذه النظرية البديلة ، في الفترة الممتدة حتى عام ١٩١٤ ، على الرغم من نظام الامبريالية والمشاحنات القومية .

ان ماركس وانجلس قد أوحيا بأن للعمال مصلحة في القومية ، عندما أصرا على أهمية نمو وحدات اقتصادية كبيرة ، من خلال عملية التوحيد القومي بشكل خاص . أما فيما يتعلق بمسألة ما إذا كان للعمال مصلحة في الامبريالية ، فإن ماركس وانجلس لم يكونا واضحين ومحددين كشأنهما في المسألة الأولى ، لكنهما أكدا على أن العمال المهرة قد بيعوا بواسطة الأرباح

---

(٤٩) المؤلفات ، مجلد ٢٢ ، صفحة ٢٣١ .

(٥٠) رسالة انجلس إلى ماركس ، ٧ تشرين الأول ، ١٨٥٨ .

(٥١) دايفيس ، مصدر مذكور قبلاً .

الاضافية أو الزائدة التي جبتها الامبريالية ، وأوحيا ، من خلال استعمال تعابير (كتعبير انجلس : « البروليتاريا البورجوازية ») ، أن العمال غير المهرة قد استفادوا أيضاً .

لقد أجاب ماركس وانجلس بالايجاب عن التساؤل عما إذا كان واجباً على العمال أن يعملوا من خلال حكوماتهم القومية ومن خلال النقابات لكي يضمنوا لأنفسهم حصة أكبر في الثروة القومية المتزايدة . وفي حال تضارب « المصالح القومية » بين بلدين مختلفين ، تطرح المشكلة نفسها أمام عمال البلدين المعنيين. ولم يكن ممكناً،على ضوء نظرياتهما الأخرى ، التي ذكرناها سابقاً ، أن ينكرا وجود « المصالح القومية » ، أو حتى التأكيد بأن هذه المصالح هي مصالح طبقية للبورجوازية فقط ، كما كانا يقولان في البداية .

هل للعمال إذن أية مصلحة في دعم البورجوازية في الصراعات القومية التي تخوضها ؟ لم يكن الدليل الذي قدمه ماركس وانجلس حول هذه النقطة حاسماً ، لأنهما لم يتوصلا إلى كشف المحتوى الاقتصادي للامبريالية كشفاً كاملاً . وعلى كل حال فإن موقفهما العام واضح لا لبس فيه : عند وقوع حرب ما ، تصبح هزيمة البورجوارية القومية (الحاكمة) ، في بلد أو في آخر، أمراً في صالح الثورة البروليتارية ، وبمقتضى ذلك يتوجب على العمال أن يختاروا بين دعم البورجوازية في بلدهم أو معارضتها ، حتى في أيام الحرب بالذات .

إن مسألة الموقف الذي يتعين على الطبقة العاملة في بلد مستعمر أو شبه مستعمر اتخاذه إزاء حركة تحرر قومي تقودها البورجوازية القومية هي مسألة لا يمكن الجواب عليها بالنسبة إلى الماركسي ، انطلاقاً من آثار ماركس وانجلس وحدهما (إذا كان هذا الاسلوب سليماً حقاً) . لقد كتب ماركس وانجلس ما كتباه قبل صعود البروليتاريا الصناعية في البلدان المستعمرة ، ولهذا لم يكن السؤال مطروحاً أمامهما . ان كل محاولة لاسناد موقف حول هذه المسألة إلى ماركس وانجلس بالاستناد إلى ما يزعم أنه إيمانهما بالمكانة

الرفيعة الموهوبة « للطبقة القومية » ، إنما هي محاولة مآلها الفشل ، كما ذكرنا سابقاً، وذلك لأن مسألة زعامة هذهالطبقة على الأمة، في النظرية الماركسية، قد ُفهمت فهماً سيئاً .

ينبغي تقسيم الفكرة القائلة بأن للعمال في أمة ما مصلحة متفقة مع مصالح هذه الأمة المناقضة للأمم الأخرى إلى ثلاثة حالات : عندما تكون كلتـا الأمتين رأسمالية ، فان الموقف الماركسي الحقيقي هو موقف المعارضـة للأهداف الامبريالية لكلتا الطبقتين البورجوازيتين، وهذا هو الخط الذي سار عليه كارل ليبكنخت وروزا لوكسمبورغ ولينين وكوناللي وآخرون خلال الحرب العالمية الأولى . وتصبح المسألة سهلة التحديد نسبياً عندما تكون إحدى الدولتين اشتراكية والأخرى رأسمالية. أما عندما تكون كلتا الدولتين اشتراكية ، فلا ينبغي للمسألة أن ُتطرح من الناحية النظرية المحضة ؛ وكان ماركس وانجلس سيصابان بالتأكيد بصدمة ورعب من تصور أن أتباعهما سيصلون إلى درجة التفكير بأن الاحتراب ممكن بين بلدان اشتراكية . لكن الأممية البروليتارية فلسفة صعبة التطبيق – خاصة وأن الذين يدّعون الاشتراكية أو الشيوعية ليسوا جميعهم ماركسيين .

٤

من الأممية الى القومية :
انحراف الاشتراكية الديمقراطية الالمانية

إن المسائل التي طرحتها القضية القومية في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الاولى قد تركت أثراً لا يمحى في حياة الحركة العمالية والاشتراكية ، في مجالات عديدة . لقد أدى تسابق الدول الكبرى لاقتسام العالم ، أو إعادة اقتسامه ، إلى خلاف في الرأي داخل تلك الحركة حول موضوع الامبريالية والكولونيالية . وجاء صعود قوميات ناشئة ليطرح مسائل هيمنت على الأجواء السياسية في النمسا – هنغاريا ، كما أنه طرح العديد من المسائل في بلدان أوروبية أخرى ، كالامبراطوريتين الروسية والتركية والمانيا واسكندنافيا . وازدادت شدة الاحتكاك بين الدول ازدياداً حاداً ، وأصبح التسلح والنزعة العسكرية المسألة الاساسية المطروحة ، فدارت مناقشات عديدة حول الاقتراحات الرامية إلى درء خطر حرب وشيكة . وطرحت الاصلاحية كبديل للثورة الاجتماعية ، ودخلت المسألة القومية في تلك المناقشات بقدر ما أصر ماركس على أن تحقيق الاممية الحقة يأتي بعد قيام الاشتراكية فحسب . ولم تكن هذه الحركة قد بتت برأي في الموقف الذي ينبغي اتخاذه إزاء الدولة (البورجوازية) والأمة .

لقد استُخدم الموقف الذي تبناه العديد من القادة حيال الاصلاح أو الثورة كأداة لتصنيفهم في الجناح اليميني أو اليساري. وثمة إغراء أيضاً إلى استخدام التصنيف عينه في الأمور المتعلقة بالمسألة القومية ، وذلك لأن مواقف العداء للكولونيالية والعداء للنزعـــة العسكرية ، ودعم مطالب الشعوب المستعبدة عموماً قد صبت في النظرة الثورية الماركسية – اللينينيـــة . ولكن يتعين استخدام هذا التصنيف بحذر . ففي هولندا ، حيث وصل الأمر بين اليمين واليسار إلى نقطـــة الانشقاق ، شأن أي بلد آخر ، وأدى ذلك إلى وقوع انشقـاق في « حزب العـمال الاشتراكي الديمقراطي » في عام ١٩٠٩ ، لم تكن القضية الكولونيالية عاملاً هامـاً فيه ، إذ انقسم قادة الجناح اليساري فيما بينهم حول الموقف الواجب اتخاذه تجاه المستعمرات* . وكان « جان جوريس » في فرنسا يبذل أقصى النشاط في معارضة النزعة العسكرية لكنه كان معتدلاً في قضايا أخرى . وفضل « بيبل » في المانيا ، الذي كان نضالياً في بعض النواحي ، طمس المسائل القومية وقضايا المستعمرات . وكانت روزا لوكسمبورغ، القائدة البارزة للجناح اليساري في المانيا ، تتخذ موقفاً معارضاً لمبدأ تقرير المصير؛ بينما كان يوجين دبس الاميركي، الذي يعتبر يسارياً في أغلب مواقفه ، يعتقد أن الامبريالية ليست هي المسألة التي تستحق اهتمام الطبقـة العاملة . وفي انكلترا وقف بعض القادة ، ذوي النبرة الاشتراكية الحـادة ، في صف القوميين البريطانيين المغالين في تعصبهم . وغيّر بعض القادة أيضاً ، من أمثال كاوتسكي ، مواقفهم قبل ٧ آب ١٩١٤، وازداد هذا التغيير انحرافاً بعد هذا التاريخ. لذا ينبغي أن يقيّم موقف كل من الزعماء على أساس الوقائع الموضوعية . ومن الجدير بالذكر ان الزعامة الفعالة ، التي بسطت وطوّرت ما يمكن اعتباره الآن الموقف الماركسي السليم ، كانت بالأحرى من غير

* اتخذ المنشقون في البداية اسم « الحزب الاشتراكي الديمقراطي » ؛ ثم عمدوا الحزب ثانية ، في ١٧ تشرين الثاني، تحت اسم « الحزب الشيوعي » .

الماركسيين لا الماركسيين ، كما ان بعض المراجعين (التحريفيين) الزاعمين الماركسية قد بشروا بفلسفة غير ماركسية . بيـد أن الموقف الذي يقفه قائد ما من المسائل القومية والامبريالية هو بالذات أحد العوامل الحاسمة في تقرير ما إذا كان هذا القائد ماركسياً يسارياً أم إصلاحياً . لذا فإن ما أكده كاتب حديث ، من أن بعض قادة « الجناح اليساري » في الحركة الاشتراكية الديمقراطية الالمانية قد أيدوا الامبريالية بل التعاون مع البورجوازية العليا ومصالح الملاكين الكبار الرجعية – مثل هـذا التأكيد ينبغي أن يؤخذ ببعض الحذر [١] .

إن مناقشات الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني خلال هذه الفترة ذات أهمية خاصة بالنسبة للحركة الاممية بسبب محتواها الفكري ، الذي كان رفيعاً بشكل عام ، وبسبب أمور أخرى أيضاً . لقد نما هذا الحزب بسرعة ، بعد أن اكتسب الشرعية في العام ١٨٩٠ ، حتى أصبح أكبر حزب في المانيـا . وكانت الاصلاحات تتقدم متتالية ، حتى بدا وكأن الوقت لم يعد بعيـداً ليصبح ذلك البلد الهـام محكوماً من قبل الاشتراكيين الديمقراطيين ، بغالبية مطلقة أو بدونها . وقد صارت المانيا إلى وضع في العلاقات الدولية تتحدى منه دولاً موطدة المواقع كانكلترا ؛ ومن هنا أصبح كل اقتراح من أجل نزع السلاح أو التحكيم ، كما كان يطرح بشكل متواصل ، بحاجـة إلى موافقة المانيا . وكان نفوذ السياسة الالمانية والافكار الالمانية قوياً جداً في البلدان المجاورة . لذا كان ما يعلنه الاشتراكيون الديمقراطيون الالمان عن مواقفهم ، عبر ممثليهم في المؤتمرات الأممية ، « كالأممية العماليـة والاشتراكية » ، يلقى إصغاء واهتماماً كبيرين .

---

(١) انظر ابراهام آشر : « الامبرياليون داخل الديمقراطية – الاشتراكية الالمانية قبل ١٩١٤ » ، « مجلة شؤون أوروبا الوسطى » ، مجلد ٢٠ ، عدد ٤ ، كانون الثاني ، ١٩٦١ ، ص ٣٩٧ .

لقد اعتبر « الحزب الاشتراكي–الديمقراطي » غير شرعي في العام ١٨٧٨، لكنه حصل على الشرعية ثانية في العام ١٨٩٠ . وفي إيرفورت ، في العام التالي ، تبنى الحزب برنامجاً انتخابياً بقي كما هو ، مع تعديلات طفيفة ، حتى العام ١٩١٤ . وقد تناول الموقف من النزعة العسكرية ومن الحرب في الفقرة الثالثة منه ، التي دعت إلى تكوين ميليشيا من المواطنين بدلاً من الجيش النظامي ، وإلى التحكيم لتسوية الخلافات بين الأمم . ودعا البرنامج إلى إجراء استفتاء قبل إعلان الحرب ، ولكن تم حذف هذا المطلب في المؤتمر التالي ، ولم يُدعَ إليه مجدداً إلا بعد الحرب العالمية الأولى .

ونوقشت في مؤتمر إيرفورت مسألة الموقف من حكومة القيصر الالماني ، فقُرر حصر التعاطي معها في أدنى الحدود الممكنة . أما الخلاف بين أولئك الذين يؤمنون بالعمل مع الدولة البورجوازية ومن خلالها وبين أولئك الذين يؤمنون بمعارضتها في كل نقطة ، فقد حُسم لصالح الفريق الثاني .

القادة الأوائل

لقد بدأت هذه المعركة في الحقيقة داخل الدوائر الماركسية حتى قبل إقامة أول حزب اشتراكي ديمقراطي . فبينما كان فون شويتزر واللاساليون دعاة وانصاراً للدولة البروسية ، والامبراطورية الالمانية كما بناها بسمارك ، تبنى وِلهلم ليبكنخت وجهة النظر المناقضة لذلك . وكان شعاره : « لا سلام مع الدولة الحالية » . وشن مع بيبل والايزناخيين حرباً مستمرة ضدها . وكانت إعادة بناء بولونيا واجباً مقدساً بالنسبة إليه . ورفض اسم « الحزب العمالي الالماني » الذي اقترح كاسم للحزب الموحد في ١٨٧٥ ، على أساس أنه قومي أكثر مما ينبغي[٢] .

---

(٢) هيرمان هيدجر : « الحركة الاشتراكية – الديمقراطية والدولة القومية ، ١٨٧٠ – ١٩٢٠ » ، غوتنجن ، ص ٣٣ .

خاطب جوليوس موتلر الرايخستاغ في ١٨٧٤، ممثلاً ستة إيزناخيين وثلاثة لاساليين، قائلاً: «إننا نعارض الرايخ ما دام يمثل مؤسسات معينة نشعر بالاضطهاد في ظلها وبالألم بسببها. إننـــا لا نعارض الرايخ في حد ذاته، ككيان قومي، كدولة جامعة»[٣].

إن هذا التمييز الذي أبرز بصيغة ملتبسة قد تحول وأصبح أقل حدة مع تطور بعض ملامح الدولة الاشتراكية في الرايخ.

كان ولهلم ليبكنخت معارضاً للدولة الجرمانية ذات الطابع البروسي، إلا انه لم يكن ضد دولة المانية ما. وكان في الحقيقة توسعيـاً المانياً يسعى إلى تقدم قوة الشعب الالماني على حساب السلاف. وقد أسف دائماً لأن بروسيا دحرت النمسا في ١٨٦٦، إذ كان يعتبر النمسا «الجبهـة الالمانية التي دفعنا بها نحو الشرق، باتجـــاه القسطنطينية والبحر المتوسط»، والتي «سلمت للسلاف» في حرب العام ١٨٦٦. لقد أراد ليبكنخت، شأن رود برتوس ولاسال (وقد عارضها حول مسألة الزعامة البروسية على الرايخ الالماني) أن يرى الجنود الالمان رابضين في القسطنطينية[٤].

لم يكن ولهلم ليبكنخت على قـدر كبير من الاشتراكية. أما اشتراكية «اتحاد نقابات العمال الالمان»، الذي أُسس في العام ١٨٦٣ (وكان ليبكنخت أحد قادته) فلم تكن كاشتراكية حزب لاسال. ولقد انضم هذا الاتحاد إلى الأممية الأولى بتحفظ في العـــام ١٨٦٩، ورُبط مع ذلك بحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الالماني. لقد ُعرف ليبكنخت بأمميته، إلا أنه لم يفعل شيئاً من أجل بناء «الاممية». يقول أحد الدارسين الحديثين أن بيبل وليبكنخت كانا يرغبان استخدام نفوذ وهيبة الاممية دون التخلي عن حريتهما

---

(٣) المصدر السابق صفحة ٣٦.

(٤) ولهلم ليبكنخت: «السياسة العالمية، اضطرابات الصين وحرب الترانسفال»، كراس، دريسدن، ١٩٠٠، ص ٨ – ٩.

في تنظيم الحزب وفق الحاجات الالمانية المحضة ، ودون الاعتراف ببرنامج الاممية ، بل دون دفع اشتراكات العضوية[٥]. هذا هو في الحقيقة حكم انجلس عليه آنذاك[٦] . وكان ماركس ضد قومية ولهلم ليبكنخت نمساوية الهوى ، بقدر ما كان ضد قومية لاسال بروسية الهوى . لذا كان للقومية الالمانية غير الماركسية نفوذ في جناحي الحركة الاشتراكية الديمقراطية الالمانية قبل اتحادهما في مؤتمر غوتا في العام ١٨٧٥ .

إن أوغست بيبل ، الذي اشترك مع ولهلم ليبكنخت في تأسيس « رابطة العمال الاممية » في ١٨٦٣، كان في البداية معارضاً صلباً للدولة البروسية ورايخ بسمارك الالماني ، شأن ليبكنخت . ولقد قُدمت حرب العام ١٨٧٠ ، شأن حرب العام ١٩١٤ ، إلى الشعب الالماني بوصفها حرباً دفاعية ، إلا أن بيبل كان مشككاً في ذلك فامتنع، مع ليبكنخت ،عن التصويت على اعتماداتها في رايخستاغ شمال المانيا . وبعد زوال حكم لويس نابوليون ، في ١٨٧١ ، رأى بيبل أن الحرب عدوانية فصوّت ضد اعتمادات الحرب . لقد انخدع كباقي العالم بالتزوير الذي زاوله بسمارك فيما يتعلق ببداية الحرب (برقية إيمس الخ)، وقال فيما بعد أنه لو علم هو وليبكنخت بالوقائع على حقيقتها لصوتا ضد اعتمادات الحرب منذ المرة الأولى[٧]. ولكن مع مرور الزمن انتهى ليبكنخت إلى القبول بالملكية ، كما فعل الآخرون جميعهم تقريباً . وقال في مؤتمر الاممية الثاني في امستردام في العام ١٩٠٤ أن الملكية ليست سيئة إلى الحد الذي كان متصوراً . ونسب إليها فضل تحقيق « شيء لم يحظ به الفرنسيون أبداً ،

---

(٥) روجر مورغان : « الاشتراكيون الديمقراطيون الالمان والأممية الأولى ، ١٨٦٤ - ١٨٧٢ » ، كمبردج ، ١٩٦٥ ، ص ١٨٧ .

(٦) رسالة انجلس إلى كونو ، ٧ - ٨ أيار ١٨٧٢ ؛ في « رسائل إلى اميركيين » ص ١٠٣ - ١٠٦ .

(٧) بيبل : « سيرة حياتي » ، شتوتغارت ، ١٩٠٧ - ١٩١٠ ، المجلد ٣ ، ص ١٦٧ - ١٦٨ .

وهو الوحدة القومية »[٨]. وانتهى إلى التسليم بوجهة النظر القائلة بأن الوطن هو عينه بالنسبة إلى الطبقة العاملة والطبقات الأخرى سواء بسواء، لأنهم يعيشون على أرض واحدة، ويتكلمون لغة واحدة ويمارسون تقاليد واحدة.

كان جورج فون فولمار، أحد معارضي بيبل في الحزب الاشتراكي الديمقراطي، محافظاً بشكل صريح ولم يكن أضعف قومية من بيبل. وقد قال في العام ١٩٠٧: « إن الأممية ليست معادية للقومية. وليس صحيحاً أنه ليس لنا وطن ». وقال ثانية أننا لا يمكن أن نتصور ذوبان أية أمة في مزيج من شعوب لا شكل له[٩]. يهدف هذا الرأي، شأن استشهاد هيرمان هيدجر به في دراسة حديثه، إلى توجيه النقد إلى نظرية ماركس حول الأممية، هذه النظرية التي يجدها هيدجر غير ملائمة[١٠]. لكن هيدجر، وربما فولمار أيضاً، قد فهم نظرية الاممية البروليتارية فهماً خاطئاً. لقد كان ماركس يتوقع بقاء وتطور الثقافة القومية والتنظيم على أساس قومي، إلا أنه اعتقد أن الاممية الحقيقية هي التي يتم الوصول إليها على أساسٍ من الاشتراكية. فمنذ البداية كان الفشل الذريع مكتوباً على المحاولة الهادفة إلى بناء نظام أممي في ظل بقاء الرأسمالية، وهي المحاولة التي كانت نصب أعين بعض تلامذة ماركس المزعومين. ولم يكن ماركس مسؤولاً عن هذه الفكرة التي لم تصدر عنه إطلاقاً والتي أظهرت مجريات الحوادث خطأها.

موقف الاتحادات النقابية

مثلت الاتحادات النقابية الالمانية داخل الحركة العمالية والاشتراكية معقلاً

---

(٨) وينيغ: « الرايخ كجمهورية »، شتوتغارت، برلين، ١٩٢٩، ص ٨٢-٨٣.
(٩) هيدجر، مصدر مذكور قبلاً، ص ٥٦.
(١٠) المصدر السابق، صفحة ٤٦ و٦٦ وما يليها.

للدولة والشعور القومي. ورغم أن الاتفاقات الجماعية لم تصبح واسعة الانتشار إلا مع نهاية الحرب العالمية الأولى ، فإن القادة النقابيين وجدوا من الضروري أن يكيفوا أنفسهم حتى مع المشاركة في مؤسسات الحكومة. لم يكن مستوى معيشة العمال الالمان مرتفعاً من زاوية مطلقة ، لكنه كان آخذاً في الارتفاع مما أدى إلى تدعيم الفكرة القائلة بأن للعمال مصلحة في الوطن . وقد كان للتحريفيين صلات وثيقة بالحركة النقابية ، فضلاً عن أنهم كانوا يشرفون على عدد من مدارس الاتحادات النقابية . وعندما أُعلنت الحرب في العام ١٩١٤، دعت الصحافة « الحرة » بأجمعها إلى دعم الحكومة .

أما المجموعة الصغيرة من الاتحادات العمالية « المسيحية » فقد كانت منذ مؤتمرها الأول في ١٨٩٩ قومية ، شأن الاتحادات(الاشتراكية-الديمقراطية) « الحرة » ، على الأقل ، بينما كانت اتحادات « هيرش - دنكر » الصغيرة قومية بشكل صريح منذ تأسيسها في العام ١٨٦٨. ورغم أن النقابيين الالمان (الداعين إلى إشراك العمال في أرباح المعامل وادارتها) قد ظهروا إلى الوجود قبل الحرب العالمية الأولى ، إلا أن عددهم لم يتجاوز ٢٠٠٠٠٠ في أوج قوتهم عام ١٩٢٢ .

لم يكن بمقدور القادة العماليين والاشتراكيين أن يستمروا في ممارسة سياسة معارضة أو مقاطعة الدولة والقيام بمهامهم في آن معاً . ففي الجمعيات المحلية والقومية ، وفي التعاونيات والنقابات ذات العلاقة الوثيقة مع السلطات ، وفي الحكومات المحلية ، وفي نظام الضمان الاجتماعي الخاص بالمرض ، وغيرها، كان على المناضلين الاشتراكيين الديمقراطيين أن يعملوا مع المؤسسات الحكومية وأن يسهموا في إنجاح عملها. لم يدخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الحكومة حتى عندما كان أقوى الأحزاب وأكبرها ، لكنه اشترك في الرايخستاغ ، وفي النهاية قام حوار في العام ١٩١٣ بين الناطقين باسم الحكومة وبين ممثلي الحزب الاشتراكي الديمقراطي المحافظين في الرايخستاغ .

لقد كان الموقف الرسمي من العلاقة مع الدولة ملتبساً في أحسن الأحوال.

فقد شن الحزب في هذه الفترة حملة من أجل حق الاقتراع العام دون قيود ، ومن أجل حرية التنظيم النقابي ودقرطة جهاز الدولة. ليس لنا أن نلوم العامل في القاعدة إذا قدر أن تحقيق هـــذه المطالب – وكانت تتحقق واحداً إثر الآخر – سيفيده ، أو إذا فكر أنه يحصل على هــذا النحو على صيغة ملائمة في الحكم ، وبالتالي الدولة التي تستحق دعمه وتستدعي إسهامه بها وتشاركه معها . ولهـــذا ما لبثت فكرة مقاطعة الدولة أن هُجرت بالفعل قبل العام ١٩١٤ .

وقد تبودلت الآراء بشكل واسع حول الاضراب العـــام ، بوصفه أداة لقلب الحكومات ومنع الحروب الدولية ، بعد الاضرابات الروسية لعام١٩٠٥، التي أعطت نتائج مذهلة . وقد أوضح القادة النقابيون الالمان بشكل جلي أنه لن يكون لحركة التنظيم العمالي الالمانية علاقــة بشؤون كهذه . وقد فكرت روزا لوكسمبورغ في إمكانية إضراب عام يقوم به العمال غير المنظمين(١١) (الروس في ١٩٠٥ كانوا غير منظمين في غالبيتهم) ، غير أن هــذه الفكرة قد استبعدت بوصفها وهمـــاً ، لأن العمال غير المنظمين أداة عاجزة وسقيمة بالنسبة لأي شيء ، اللهم الحركة الشعبية العفوية تماماً. ولهذا خمد النقاش حول الاضراب العام الثوري بعد العام ١٩٠٧ .

وقد نال مطلب إنشاء ميليشيا من المواطنين عين المصير الذي لقيـــه الاضراب العام ضد الحرب . فقد كان الجيش بقرة مقدسة بالنسبة إلى الطبقة العسكرية في الدولة الالمانية ، والهجوم عليه أمر صعب ومحفوف بالمخـــاطر . إن مطالبة الاشتراكيين الديمقراطيين بميليشيا تحل محل الجيش كان بمثابة سعي صريح إلى إضعاف الحكومة ، وهو هدف مناقض لمطلب الدفاع عن الوطن

---

(١١) روزا لوكسمبورغ : « نضال النقابات والاضراب الجماهيري » ، المؤلفات الكاملة، برلين ١٩٢٨ ، المجلد ٤ ، ص ٤١٠ – ٤٧٩ .

الذي كان ينضوي الكثيرون من الاشتراكيين الديمقراطيين تحت لوائه*. ولهذا بقي مطلب ميليشيا المواطنين ضرباً من شعار لفظي كلامي ، تجري الثرثرة عنه ، ولكن لا يُراد له التنفيذ . وقد استمر الحزب الاشتراكي الديمقراطي يصوت ضد زيادة عدد الجيش، إلا أنه صوت بالفعل ولأول مرة في عام ١٩١٣ إلى جانب زيادة الضرائب من أجل الأغراض العسكرية .

زعماء الجناح اليساري

كان كارل ليبكنخت وروزا لوكسمبورغ يمثلان الجناح اليساري في الحزب الاشتراكي الديمقراطي في الفترة الممتدة بين عام ١٩٠٠ ونهاية الحرب العالمية الأولى . وكان كارل ليبكنخت معادياً للنزعة العسكرية إلى درجة العداء للوطنية ، وأعلن بصراحة أن العمال لا وطن لهم[١٢] . بيد أنه هاجم « هيرفيه » ، بوصفه غير واقعي . ولم يدعُ بجدية إلى الاضراب العام ضد الحرب ، لأنه كان يعرف أن الغالبية العظمى من البروليتاريا لم تكن مهيأة لعمل من هذا النوع ، وكان يعتقد أن العمال مفتقرون ، إلى حد كبير ، إلى الوعي الطبقي أو الذهنية الاشتراكية[١٣] . وصوّت وحده ، دون الـ ١١١ عضواً اشتراكياً ديمقراطياً في الرايخستاغ الالماني، ضد اعتمادات الحرب في ٢ كانون الأول ١٩١٤ .

وقالت روزا لوكسمبورغ أن الحرب الدفاعية لم تعد أمراً ممكناً في الظروف الامبريالية . لا بد من خيار بين أمرين : إما الصراع الطبقي أو

---

* « لقد طرح مطلب الميليشيا من أجل إضعاف الحكومة » ، كما كتب كاوتسكي في ١٩١١ ، في مجلة « الأزمنة الحديثة » (نيو زيت) ١٩١١ - ١٩١٢ ، صفحة ٩٨ .

(١٢) كارل ليبكنخت : « النزعة العسكرية والنزعة المعادية لها » ، برلين ، ١٩٠٧ ، ص ١٤ .

(١٣) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

الوطنية ، إما الامبريالية أو الاشتراكية[١٤] . واعتبرت تأييد الحزب الاشتراكي الديمقراطي للحرب خيانة للحركة الاممية ، وطرحت آراءها في سلسلة من المقالات النارية (كراس يونيوس)*[١٥] . ودعت المجموعة التي تنتمي إليها هي وكارل ليبكنخت إلى هجوم جبهوي مباشر ضد الايديولوجية القومية للبورجوازية :

« إن واجب الحركة الاشتراكية القادم هو تحرير البروليتاريا تحريراً روحياً من وصاية البورجوازية التي تعبر عن نفسها في الايديولوجية القومية . على الفصائل الاشتراكية في كل أمة أن توجه تحريضها في البرلمانات وفي الصحافة نحو إدانة اللفظية القومية كأداة للسيطرة البورجوازية . إن الدفاع الوحيد عن كل حرية قومية هو الآن الصراع الطبقي الثوري ضد الامبريالية. وان وطن البروليتاريين، الذي يتعين أن نُخضع كل شيء للدفاع عنه ، هو « الاممية » الاشتراكية[١٦] .

لا شك أن ثمة كتّاب آخرين قد صُنفوا ، في هذا الحين أو ذاك ، في الجناح اليساري ؛ ولقد أشار ابراهام آشر ، كما رأينا قبلاً ، إلى هؤلاء أو بعضهم ، وزعم ان قادة يساريين معينين في الحزب الاشتراكي الديمقراطي

---

(١٤) روزا لوكسمبورغ : « إعادة بناء الأممية » « مجموعة الخطب والكتابات » ، برلين ١٩٥٢ ، المجلد ٢ ، ص ٥١٧ .

* تبنت « المجموعة الأممية » (رابطة سبارتاكوس) في ١ كانون الثاني ١٩١٦ ، قراراً قدمته روزا لوكسمبورغ ، وهذا نصه : « في هذه المرحلة من الامبريالية الهوجاء ، لا يمكن أن يكون هناك حروب قومية » . روزا لوكسمبورغ : « مجموعة الخطب والكتابات » (برلين ، ١٩٥١) ، المجلد الأول ، ص ٣٩٥ .

(١٥) روزا لوكسمبورغ : « أزمة الاشتراكية الديمقراطية » ، كراس يونيوس ، المصدر السابق ، المجلد ١ ، ص ٢٥٨ - ٣٩٩ .

(١٦) المصدر السابق ، صفحة ٣٩٩ .

الالماني كانوا يؤيدون الامبريالية ، بل التعاون مع البورجوازية العليا وكبار الملاكين العقاريين الرجعيين .

من الممكن البرهان ، عبر الوقائع التي سردها آشر نفسه ، على أن ما قاله ليس سوى افتراء مقصود على الجناح اليساري . وقد اختار ثلاثة كتاب لمعالجة الموضوع ، هم : انطون بانكوك ، بول لنش ، هنري كونو .

يبدو أن بانكوك قد أكد ، قبل الحرب العالمية الأولى ، أن الامبريالية ستزيد من أعباء البروليتاريا وتحملها إلى نقطة التمرد على الرأسمالية . وهو لم يدعُ الاشتراكيين الديمقراطيين إلى الدفاع عن الامبريالية علناً ، لكنه فضل استرخاء المعارضة ضدها (كما يقول آشر) ، على أساس نظرية « الاسوأ يقود إلى الأحسن » .

أما اليساري الراديكالي الآخر ، في فترة ما قبل الحرب ، الذي استشهد به آشر، فهو لنش . ولنش هو الذي سبق لينين إلى وصف الامبريالية بالمرحلة العليا من الرأسمالية ، وبأنها المرحلة التي يجب أن تمر بها الرأسمالية وصولاً إلى الاشتراكية ، وهو الذي قيل أنه دعا إلى التعاون مع الرجعيين .

وثالث راديكاليي ما قبل الحرب الذين برزوا في تأييد الامبريالية، كما يزعم آشر ، هو هنري كونو الذي خلف كاوتسكي خلال الحرب في تحرير مجلة « العصور الحديثة » [١٧] .

ليس من الصعب دحض الافتراءات التي وجهها آشر كان بانكوك هولندياً ، لكن لندع ذلك جانباً . فقبل أن يتاح المجال لفريق الجناح اليساري الذي ينتمي إليه بانكوك أن يتخذ الاجراءات اللازمة بحقه ، كان الأخير قد غير موقفه وشن حملة (في ١٩١٥) من أجل استقلال أندونيسيا وتحريرها من سيطرة هولندا .

---

(١٧) ابراهام آشر : « التضامن القومي والسلطة الامبريالية : ينابيع الفكر الاشتراكي الامبريالي في المانيا وبدايات تطوره ، ١٨١٧ – ١٩١٤ » ، أطروحة دكتوراه ، مكتبة جامعة كولومبيا ، ١٩٥٧ .

أما بالنسبة إلى كونو، فقد كف الجناح اليساري، باعتراف آشر بالذات، عن اعتباره عضواً فيه حالما وقف إلى جانب الامبريالية. ولكن حادثة لنش هي التي قدمت أسطع دليل يدحض مزاعم آشر. ان انتقال لنش إلى تبني الامبريالية كان ملحوظاً وشديداً بحيث لم يضعه خارج صفوف الجناح اليساري فحسب، بل خارج الحركة الاشتراكية الديمقراطية بمجموعها. لقد انتقل، شأن هيرفيه في فرنسا وموسوليني وكوراديني في ايطاليا، إلى خدمة الرجعية.

كل ما فعله آشر هو أنه برهن على أن بعض الكتاب الذين كانوا ينتمون إلى الجناح اليساري قد تبنوا بعد ذلك وجهة نظر مؤيدة للامبريالية. ولكنه لم يتحدث عن الموقف الذي اتخذه الجناح اليساري من هؤلاء الكتاب. لذا فإن قصته مبتورة. ونحن لا نستطيع إلا الافتراض بأن هذا النقص مقصود، لأن دراسته مؤيدة بالشواهد الكافية في معظم نواحيها.

الكولونيالية

عندما انطلق قيصر المانيا في سباق التوسع، ببرنامج لبناء بحرية كبيرة وامتلاك مستعمرات فيما وراء البحار، عارضه الحزب الديمقراطي الاشتراكي بشدة، وكان مرجحاً أن يستمر في موقفه هذا. فثمة عوامل عديدة كانت تعمل لصالح مناهضي الكولونيالية.

أولاً، توفرت فيهم ميزة الانطلاق المبكر. وكاوتسكي، الذي أسس مجلة «العصور الحديثة» في العام ١٨٨٣ واستمر مشرفاً على تحريرها بجد ونشاط، كان منذ البداية معارضاً شديداً للكولونيالية وللتسلح. وقد أثار مسألة اللاأخلاقية التي عومل بها هنود شمالي اميركا[١٨]. والكولونيالية، في رأيه، هي استغلال بتعريفها. وعندما بدأت المانيا تستولي على مستعمرات في

---

(١٨) كاوتسكي: «المسألة الهندية»، «العصور الحديثة»، مجلد ٣، ١٨٨٥، صفحة ١٧، ٢١، و٦٣، ٧٣، و١٠٧ – ١١٥.

افريقيا ، كان كاوتسكي أول المعارضين ، وبيَّن اثار الانحطاط الذي تتركه الكولونيالية على الأوروبيين ، واستنتج قائلاً : « نحن لا نجلب المدنية إلى الافريقيين ، بل نأخذ البربرية عنهم »[١٩]. ومروراً نقول: حتى هذا التأكيد لم يكن عادلاً بالنسبة إلى الافريقيين ، لأن كاوتسكي كان يكرر بدون كلل أن إخضاع الافريقيين يمثل ، شأن إخضاع الهنود ، تاريخاً واحداً طويلاً من الخداع والوحشية فاق بها الأوروبيون ضحاياهم المتخلفين — المتخلفين في هذا الأمر ، وفي أمور أخرى .

تبنى مؤتمر ماينز للحزب الاشتراكي الديمقراطي (١٩٠٠) قراراً ضد الكولونيالية التي قال أنها تنطلق أولاً من حاجة البورجوازيين الماسة إلى فرص جديدة لزيادة رأسمالهم الذي يتضخم باستمرار ، كما أنها تنطلق من ضغوطهم للحصول على أسواق جديدة . ويتابع القرار قائلاً أن هذه السياسة ترتكز على امتلاك أراضي أجنبية بواسطة العنف وعلى استعباد واستغلال الشعوب القاطنة فيها دونما رحمة أو شفقة . إنها تنحط بأخلاق المستغِلين أنفسهم وتجعل منهم أناساً متوحشين، فهؤلاء ينهبون ويسرقون بأشد الوسائل المنكرة وغير الانسانية . وانتهى القرار إلى الاستنتاج أن الاشتراكية الديمقراطية تقضي إقامة العلاقات الثقافية والتجارية على نحو يؤكد ضمان حريات هذه الشعوب وحقوقها واستقلالها[٢٠] » .

إلى جانب الحجج المستندة إلى المبادىء الاشتراكية الديمقراطية العامة (النزعة الانسانية وحق تقرير المصير) ، استند مناهضو الكولونيالية الالمان على أساس متين عندما قالوا أن المستعمرات والتسلح الواسع عبء مالي على المكلفين ، والعمال بخاصة ، بسبب نظام الضرائب الرجعي وغير العادل[٢١].

---

(١٩) كاوتسكي : « الكاميرون » ، « العصور الحديثة » ، مجلد ٦ ، ١٨٨٨ ، صفحة ٢٦ .

(٢٠) براونتال : « الأممية » ، مجلد ١ ، صفحة ٣١٣ .

(٢١) كاوتسكي ، في « العصور الحديثة » ، ٢٦ نيسان ١٩١٢ ، ص ٩٧ — ١٠٩.

وكان لهذه النقطة الخاصة بارتفاع الضرائب أثرها على الطبقات الأخرى أيضاً، وحبذها قطاع أرباب العمل الذي لم يكن بأية حال موحد الرأي حول السياسة الاستعمارية في البداية . ونوه الاشتراكيون الديمقراطيون بأن تطور المستعمرات يمكن أن يؤدي إلى بناء صناعات تنافس صناعة المتروبول (الألماني) . ولكن المستعمرات الالمانية لم تقترب ، بالتأكيد ، إلى هذا الحد من التطور أبداً .

وانبثقت حجة أخرى ضد الكولونيالية من الجدل حول مسألة « الانهيار » . فمسألة ما إذا كانت الرأسمالية سوف تنهار بفعل تناقضاتها الداخلية كانت مطروحة بشكل واسع، وكان البعض يؤكد أن الكولونيالية سوف تؤجل انهيار الرأسمالية المحتم بسبب المنفذ الذي تقدمه لفائض الانتاج ولفائض رأس المال . إن لهذه الحجة حدين . فقد كتب بول لنش في عام ١٩١٢ أن الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية ، وان الكلام عن نزع السلاح لا يجدي في الظروف الراهنة ، فالخطة السليمة الوحيدة هي الهجوم في جبهة واحدة ضد الامبريالية [٢٢] .

بيد أن أحد أجنحة الحزب الاشتراكي الديمقراطي كان قد نهج سياسة مؤيدة للكولونيالية منذ وقت مبكر . لقد كتب برنشتاين (الذي تمتع بثقة انجلس والذي كان أحد منفذي وصيته) مقالة يدافع فيها عن الكولونيالية في العام ١٨٩٦ . وبالرغم من أن حجته قد توشحت بلبوس ماركسي ، بل بنزعة إنسانية ، إلا أن مؤداها كان امبريالياً بشكل واضح . بدأ برنشتاين كلاماً مؤداه أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي قد عارض إلحاق الالزاس واللورين بالمانيا في العام ١٨٧١ (وكان الحزب قد عارض ذلك الإلحاق فعلاً). وتابع برنشتاين : أن الحزب يؤيد النضال لتحرير الشعوب في كل مكان . بيد

---

(٢٢) « العصور الحديثة » ، ٢٣ آب ١٩١٢ ، ص ٧٦٩ — ٧٧٢ .

أنه ما لبث أن وضع سلسلة من الاستثناءات تشذ عن هذه القاعدة ، فاستثنى الشعوب الافريقية التي تتاجر بالعبيد، أو التي تزعم أن لها الحق بغزو جيرانها المسالمين ونهبهم . فضلاً عن « أن مساندة المتوحشين والبرابرة، الذين يقاومون تسرب المدنية الرأسمالية ، هي موقف رومنسي » . وأكد برنشتاين على أن للمدنيات « الأعلى » حقوقاً أعلى من حقوق المدنيات « الأدنى » ، وكتب مؤيداً التدخل الدبلوماسي دعماً لمصالح المانيا (الرأسمالية) في الخارج [٢٣] .

وفي مقال آخر ، دافع برنشتاين عن دور البريطانيين في الهند ، مؤكداً أن كل شيء فيها يسير نحو الأفضل ، في ظل أفضل ما يمكن أن تكون عليه الامبرياليات . وإذا كان الفلاح الهندي لم يستفد ، كما يُفترض أن يفعل ، فالأمر عائد إلى خطئه هو ؛ فهو إنسان صعب ومساعدته صعبة بالتالي . وانتهى إلى لوم الهنود ، أنفسهم ، على فقرهم بنفس الطريقة التي دافع بها مالثوس عن الفقر في انكلترا [٢٤] .

وفي العام ١٨٩٦ ، صار برنشتاين يكتب كـ « وطني جرماني » . وفي العام ١٨٩٨ صاغ فلسفته كداعية ومدافع عن المصالح الرأسمالية الالمانية في كل مكان . وكتب أنه عندما تكون « المصالح القومية الهامة حقاً » هي المطروحة ، كما هو الأمر في الصين ، « فالواجب على المانيا أن تضمن موقعاً لنفسها » . وقال، زاعماً تمثيل آراء ماركس وانجلس، أن امتلاك المستعمرات ليس خطأً في حد ذاته :

« ليس من الضروري أن يكون احتلال الأوروبيين للبلدان المدارية (الحارة) باعثاً على إيذاء السكان الأصليين في التمتع بحياتهم ،

---

(٢٣) مجلة « العصور الحديثة » ، المجلد ١٥ ، العدد ٢ ، ١٨٩٦ — ١٨٩٧ ، ص ١١٠ .

(٢٤) مجلة « العصور الحديثة » ، المجلد ١٥ ، العدد ٢ ، ١٨٩٦ — ١٨٩٧ ، ص ٦٥١ — ٦٥٤ .

ولم يكن الأمر عادةً كذلك حتى الآن (!) . وبالاضافة إلى ذلك ، فإن الاعتراف بحقوق المتوحشين في الاراضي التي يسكنونها ينبغي أن يكون اعترافاً مشروطاً . فالمدنيات الأعلى تستطيع في النهاية أن تنسب لنفسها حقوقاً أعلى . فزراعة الأرض ، لا حيازتها ، هي التي تعطي الحق التاريخي باستخدامها[٢٥] » .

وعلى هذا النحو قلبوا أفكار ماركس وانجلس ليستخدموها .

ولكن الغريب انه عندما كتب الاشتراكي الانكليزي ، بلفورت باكس ، مقالاً في مجلة « العصور الحديثة » يوجه فيه النقد لبرنشتاين مؤكداً على وجوب معارضة الاشتراكيين في كل مكان للكولونيالية ، انبرى كاوتسكي للدفاع عنه في تعليق باسم هيئة التحرير[٢٦] . وكان بلفورت باكس قد وضع كاوتسكي في صف المدافعين عن الكولونيالية ، بيد أنه لم يقدم الأسس والأسانيد لمضامين رأيه .

كانت مشاعر الاشتراكيين الديمقراطيين الالمان خلال حرب البوير (١٨٩٩–١٩٠٢) متضاربة. وهاجم بعضهم البوير على أساس أنهم يستخدمون العبيد ويعيشون على الزراعة ، بينما تمثل انكلترا اتجاه التصنيع والرأسمالية والعمل الحر ، وبكلمة : التقدم . وأجاب كاوتسكي أن الاستغلال الرأسمالي للعمل القسري أسوأ من الاستغلال البطريركي . وقال ان المسألة الحقيقية هي الاستقلال القومي الذي يشكل في جنوبي افريقيا ، شأن كل مجتمع حديث ، الشرط المسبق الضروري لكل تطور سريع[٢٧] . ذلك بالضبط ما كانه

---

(٢٥) برنشتاين : « الاشتراكية التطورية » ، صفحة ١٧٨ – ١٧٩ . الأصل المالاني نشر في ١٨٩٩ .

(٢٦) « الأزمنة الحديثة » ، مجلد ١٦ ، ١٨٩٧ – ١٨٩٨ ، ص ٢٢٠ .

(٢٧) كاوتسكي: « العسكرية والاشتراكية في انجلترا »، « الأزمنة الحديثة »، مجلد ٢٨، عدد ١ ، ١٨٩٩ – ١٩٠٠ ، ص ٥٨٧ .

موقف انجلس في العام ١٨٨٢ بالنسبة إلى بولونيا ، مع الفارق التالي : لم يكن استغلال الشعب في بولونيا يتم على يد جماعتين متنافستين من الأوروبيين .

كان برنشتاين يعترف في بعض الأحيان أن ثمة انتهاكات في المستعمرات ، لكنه أكد أنها « أقل شأناً » بكثير من الفوائد التي جلبتها الامبريالية (٢٨) .

كانت صفوف الاشتراكيين الديمقراطيين منقسمة انقساماً شديداً . فقد دعا ريتشارد كالدير ، وهو قومي شديد ، وجماعة ضمت أيضاً لودفيغ كيسيل وجيرهارد هيلدربراند ، إلى تبني سياسة كولونيالية وتوسعية ، وذلك في « الدفاتر الاشتراكية الشهرية » ، وهي مجلة نظرية تحتل المركز الثاني بعد « العصور الحديثة » . ولم تكن السياسة التي دعا إليها هيلدربراند سياسة اشتراكية بأي شكل من الأشكال ، لكنه لم يطرد من الحزب حتى ١٩١٢ . وكان لدى هذه الجماعة منذ البداية حساسية بالنسبة إلى تهمة اللاوطنية الموجهة إلى الاشتراكيين الديمقراطيين . فالأممية ليست العداء للقومية . وقد حاولت طمس المنافسات الرأسمالية التي أقرت بوجودها في فترة مبكرة ، ولكن أعقبتها ، كما قالت ، فترة جديدة تزايد فيها تشابك العلاقات ونمت السوق الرأسمالية. وقالت أن التروستات والكارتلات تقدم أمثلة على التعاون العالمي، ويمكن أن تصبح أساساً لاقتصاد عالمي منظم (٢٩) .

وأكدت على أن البورجوازيين هم السبب في كون البروليتاريا بلا وطن . « وسنعطيها ، نحن الاشتراكيين ، وطناً للمرة الأولى (٣٠) » .

لم يمنع هذا الطراز من الأممية من تشجيع الأحقاد القومية داخل صفوف الطبقة العاملة الالمانية ، التي ذُكرت مجدداً بالبولونيين والروس الذين زُعِمَ أنهم استُجلبوا لكي يحلوا محل العمال الالمان الذين يتمتعون بمستوى معيشة

---

(٢٨) « الدفاتر الاشتراكية الشهرية » ، ١٩٠٠ ، ص ٥٥٩ .

(٢٩) « القومية والأممية » ، نشرت في « الدفاتر الشهرية الاشتراكية » (برلين) ، العدد ١ ، ١٨٩٥ .

(٣٠) المصدر السابق ، ص ٢٥٣ .

أعلى[٣١] . وأدخل غوستاف نوسكه لحناً معادياً للسامية عندما سعى إلى إثارة المشاعر ضد المعلمين اليهود الذين استجلبوا من الشرق الأوروبي[٣٢] .

وقد هاجم « ماكس شيبل » التمييز، الذي أخذت به غالبية الاشتراكيين الديمقراطيين ، بين الاستعمار الاستيطاني وبين إلحاق مناطق مأهولة . ففي رأيه ان الاستعمار الاستيطاني ، كما تمثل بتجربة الولايات المتحدة ، لم يكن في حال من الأحوال بأفضل بالنسبة للسكان. وليس ثمة من بقعة في العالم استطاع المهاجرون استيطانها دون أن يضحوا بمصالح جمهرة السكان الأصليين[٣٣] .

إن أعضاء هذه المدرسة الفكرية ، الذين أكدوا أن للكولونيالية تأثيراً تمدينياً إذا أشرف على إدارتها الاشتراكيون (« نستطيع أن نفعل ذلك على نحو أفضل ») ، قد سُموا بـ « الامبرياليين الاشتراكيين » . وإذا كان هؤلاء لم يُطردوا من الحزب ، كما جرى بالنسبة الى هيلدر براند ، فذلك عائد بلا شك إلى أن عناصر واسعة ونافذة في الحزب كانت تشاطرهم الرأي . صحيح أن مؤتمر الحزب الاشتراكي الديمقراطي المنعقد في العام ١٩٠١ في مدينة ليبك قد أدان تحريفية برنشتاين بوصفها مناقضة لسياسة الحزب ، رغم عزل محرر مجلة « إلى الأمام » (فور وارتس) البرلينية في العام ١٩٠٦ لأنه تجاوز الحد في تحريفيته ، غير أن بيبل بالذات قال ان السياسات الاستعمارية يمكن أن تخدم كعامل تمديني « في ظروف معينة[٣٤] » .

انتصار التحريفيين

سعى الحكام التوسعيون ، الذين أرادوا بناء بحرية كبيرة وإمتلاك المزيد

---

(٣١) المصدر السابق .

(٣٢) هيدجر ، صفحة ٥٩ .

(٣٣) ماكس شيبل: « السياسة الاستعمارية »، « الدفاتر الاشتراكية الشهرية » ، ١٩٠٨ ص ٣ وما بعدها .

(٣٤) « محاضر الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني » ، ١٩٠٧ ، ص ١٣٢ .

من المستعمرات ، إلى الحصول على موافقة الناخبين في العام ١٩٠٧ ، وكالوا السخرية والافتراءات لجميع الذين عارضوا هذه السياسة ، أي الحزب الاشتراكي الديمقراطي بشكل رئيسي . وعندما هبّ الحزب إلى معارضة الضرائب المخصصة لبناء البحرية ، كان له من يدعمه من العناصر الدنيا في الطبقة الوسطى . والواقع أن بعض الدارسين قد قدّر فيما بعد أن سياسة الحزب الرامية إلى الاكتفاء ببحرية صغيرة قد صيغت من أجل هذه العناصر المنتمية إلى الطبقة الوسطى . لكن الحزب لم يكن قادراً على مواجهة حملة كبار رجال الأعمال . ففي كل انتخابات أجريت قبل ذلك الحين ، كان الاشتراكيون الديمقراطيون يسجلون تقدماً محسوساً أكثر من السابقة ، لكنهم لم يحافظوا ، في الاقتراع الذي أجري في العام ١٩٠٧ ، على مواقعهم إلا بصعوبة ، وخسروا بضعة مقاعد في الرايخستاغ .

هنا ، علا صوت الجناح اليميني في الحزب الاشتراكي الديمقراطي، وطالب فعلاً بانسحاب الحزب من التعاطي في شؤون السياسة الخارجية ، وتركها للطبقة الحاكمة . وتوقع هذا الجناح أن يدفع الحكام ، مقابل ذلك ، أجوراً جيدة للطبقة العاملة وان يمنحوها حقوقاً سياسية أوسع [٣٥] . هذا هو الموقف التحريفي القديم إياه ، وقد اكتسب تأييداً متزايداً باستمرار في الفترة التي انتهت مع العام ١٩١٤ .

صُدم الوسطيون عندما رأوا عُمق ما وصل إليه تأثير الدعاية الشوفينية القومية بين صفوف الطبقة العاملة ، لكنهم بدلاً من أن يحافظوا على مواقعهم المعادية للامبريالية ، تراجعوا أمام القوميين وخفتوا بنقدهم التوسع الامبريالي . فكوفئوا بزيادة كبيرة في الأصوات نالها الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني في العام ١٩١٢ ، إذ حصل على ثلث مجموع الأصوات . وقيل آنذاك أن

---

(٣٥) انظر كالوير ، « السياسة الاستعمارية والاشتراكية الديمقراطية » ، آذار ١٩٠٧ ، ص ١٩٦ — ١٩٨ .

الحزب كان يتكلم أممياً ويمارس قومياً ، لكي ينال الأصوات الانتخابية .

لم تضع النظرية الماركسية الشرائح الدنيـــا من الطبقة الوسطى في صف أعداء القومية ، بل على العكس ، لقد أحس لينين وروزا لوكسمبورغ أن هذه الشرائح الاجتماعية تشكل، لأسباب معينة ، المعين الخاص للنزعة القومية وحضنها كفلسفة اجتماعية * .

اعتقادات خاطئة حول الامبريالية

في وسعنا الآن أن ندرك ، استناداً إلى الأحداث التاريخية الماضية ، أن بعض الحجج التي استخدمها كلا الطرفين ، قبل العام ١٩٠٧ وخلاله وبعده ، كانت مرتكزة على اعتقـاد خاطىء . لقد مُثلت الامبريالية وكأنها سبب الازدهار الاقتصادي حيناً ، ونتيجة له حيناً آخر . وكلا الصيغتان تحوي خللاً جزئياً أو كاملاً . وكان من المفروض أن يكون هــذا الأمر واضحاً بالنسبة لالمانيا ، حيث لم تكن المستعمرات تعود عليها وعلى الألمان جميعاً بأية فائدة مالية . كانت السياسة الاستعمارية تفرغ الخزينـــة من الأموال ، بينما لا يستفيد منها إلا أصحاب المصالح الخاصة . لذا فان الحجة القائلة بأن على الحكومة أن توسع المستعمرات لكي ترفع مستوى معيشة الطبقة العاملة كانت حجة تفتقر إلى الأمانة . حتى في انكلترا ، حيث وفرت الكولونيالية خلال تجربة طويلة العائدات لبعض المصالح الخاصة ، كان ثمة تساؤلات تطرح جدياً للنقاش آنذاك ، تساؤلات تدور حول مــا إذا كانت أرباح البورجوازية تفوق الخسائر .

ان النظرية القائلة بأن الامبريالية جاءت نتيجة تكوُّن فائض رأسمالي قد ظهرت في الأصل على يد الاقتصادي البورجوازي رودبرتوس ، ونشرهـــا

---

* لقد وجه هتلر دعايته ، الهادفة إلى دعم القومية التوسعية الامبريالية ، إلى هذه الطبقة بشكل خاص ، وحصل على نتائج ممتازة .

بشكل واسع في مطلع القرن الحالي اقتصاديون بورجوازيون ، مثل إدوارد اتكنسون في الولايات المتحدة ، وجون هوبسون في انكلترا . ولقد قبل الماركسيون في الحزب الاشتراكي الديمقراطي هذه الفكرة بشكل سريع جداً ، فنهاجيتهم تستدعي البحث عن أسباب اقتصادية كتفسير أساسي لأي ظاهرة اجتماعية ، وواضح أنه كانت هناك حركة للرأسمال خارج الحدود في القرنين التاسع عشر والعشرين . وكانت فائدة الدبلوماسية تتمثل ، في غالب الأحيان ، في إيجاد فرص مغرية لتوظيف الأموال .

لم يتم إثبات العلاقة بين السبب والنتيجة إثباتاً كافياً ، وقد أدى البحث بالدارسين اللاحقين إلى إضعاف الاعتقاد بهذه النظرية التي كانت سائدة على العموم في الدوائر الماركسية ، وغير الماركسية أيضاً . لم يكن عدوان القيصر الروسي في آسيا نتيجة تكوّن فائض رأسمالي ، لأن ذلك البلد كان فقيراً يستدين المال من الخارج ، وكذلك كان حال الولايات المتحدة عندما غزت المكسيك في ١٨٤٧ . وقد أشار هوبسون نفسه إلى أن أصحاب البنوك ، الذين كانوا في غالب الأحيان أهم المستفيدين من الاستغلال الامبريالي، لم يكونوا المبادرين المميِّزين لهذه السياسة ، ووصفهم بـ « أكثر الناس جبناً » عندما يتعلق الأمر بالأموال . لا شك ان السبب الأساسي للامبريالية ما زال سبباً اقتصادياً ، بمعنى أن الأمر يتعلق بقيادة العالم للاستفادة من الفرص السانحة للاستغلال ، لكن القوة الدافعة لم تكن اقتصادية بشكل مباشر في جميع الحالات . فمن الممكن أن يأخذ زمام المبادرة قائد سياسي كالقيصر ويلهلم الثاني ، أو أن يأخذ العسكريون الأمر على عاتقهم . لم تكن الكولونيالية التي مارسها الرايخ الألماني الأول اقتصادية ، بل كانت لا اقتصادية بل مضادة للاقتصاد . والحجة الأكثر بروزاً ووضوحاً ضد الامبريالية كانت حجة صحيحة في هذه الحالة .

لكن هذه الحجة لم تعش طويلاً . فالعامل الالماني الذي دُفع إلى الاقتناع بأن له مصلحة الوطن ، قيل له أيضاً أن العامل الانكليزي يتمتع بمستوى

معيشة أعلى من مستوى معيشة الالماني ، لأن الأول استفـــاد من استخدام الامبريالية استخداماً ناجحاً لفترة طويلة . فإذا استطاعت الأمة الالمانية أن تنتزع القيادة من الانكليز ، فإن العامل الالماني سيستفيد هو أيضاً .

حاول بعض المذهبيين الماركسيين أن يبرهنوا على أن أحوال العامل لم تتحسن ، أو أنهـــا لا تتحسن ، سواء في ألمانيا أو في انكلترا . وقال كاوتسكي بوضوح لا لبس فيـــه : « ليس للبروليتاريا مصلحة في الاستغلال الامبريالي »[٣٦] . ولكن لم يكن بوسع الالماني إلا أن يرى التقدم الاقتصادي الذي كان العالم يحرزه؛ وكان بالامكان الاستشهاد ببعض نصوص انجلس للبرهان على أن العامل الانكليزي قد أحرز بعض التحسن في ظروف عيشه . وفي حين أن أجور العمال الالمان لم تكن ترتفع بشكل باهر ، إلا أن ثمة آمالاً كانت تداعبهم بالنسبة للمستقبل ، وغذى هذه الآمال قادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي أنفسهم الذين ألحوا عليهم بأن يتنظموا ويصوتوا .

وعلى الجبهة العالمية ، أُضيف إلى التحالف الفرنسي – الروسي اتفاقهما مع انكلترا ، مما جعل الالماني يشعر وكأنه مطوّق . وأياً كان البادىء بالحرب في ظل هذه الظروف ، فقد دُفِعَتْ الأمور إلى درجة بدت فيها المانيا وكأنها تخوض حرباً دفاعية . كانت الأمة في خطر محدق ، لذا كانت إثارة الشعور القومي فعّالة . حتى كاوتسكي ، الذي كان يعتبر حتى ذلك الحين مدافعاً عن الماركسية الاورثوذكسية ، كتب في العام ١٩٠٧ : « لكل من البورجوازية والبروليتاريا مصلحة مشتركة في الحيلولة دون خضوعها لأمة أجنبية »[٣٧] .

استخلاص

لم يتأثر الماركسيون الالمـــان على نحو كاف بتحذيرات ماركس وانجلس المتكررة حول الدولة البروسية . كان باكونين بالذات قد أبدى رأياً مقنعاً في

---

(٣٦) «الازمنة الحديثة» ، المجلد ٢٣ ، العدد ٢ ، ١٩٠٤ – ١٩٠٥ ، ص ٣٤٤ .

(٣٧) كاوتسكي : « الوطنية والاشتراكية ــ الديمقراطية » ، نشرة، ١٩٠٧ ،صفحة ١٢ .

العام ١٨٧٣ حول الحكومة الالمانية ، فقال : أنها تعتمد على « وطنية رعاياها الأوفياء ، وعلى مشاعر الكبرياء القومية والطاعة العمياء اللذين لا حد لهما ، واللذين ترجع أصولهما إلى تاريخ بعيد ، كما أنها ترتكز على عبادة السلطة التي تسم اليوم النبـلاء والبورجوازيين الصغار والبيرقراطية والكنيسة ومجمل الهيئات التعليمية ، وترتكز غالباً ، واحسرتاه ! ، على الشعب نفسه تحت تأثير هؤلاء مجتمعين »[٣٨] . وقال ثانيـــة بتحديد أوضح : « ما دام العمال الالمان يطمحون إلى بناء دولة قومية ، بالغـاً ما بلغت من حرية وشعبية في نظرهم ، — . . . ما دام العمال الالمان كذلك ، فمن الواضح أنهم سيمضون على الدوام في تضحية حرية الشعب في سبيل عظمة الدولة ، والاشتراكية في سبيل السياسة ، والعدالة والأخوّة الأممية في سبيل التعصب القومي[٣٩] » .

هكذا نرى أن الحركة الألمانية الاشتراكية والعمالية كانت مندمجـــة سيكولوجياً في بنية المجتمع الألماني قبل الحرب العالميـة الأولى . لذا أصبح موقف التعاطي مع الدولة ، الذي ينزلق بسهولة إلى مواقع التعصب القومي والدعم المطلق لسياسة البلد الخارجية ، الموقف المميز للحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني والحركة النقابية بمجموعها تقريباً . ولم يكن هناك جماعة على مستوى من المكانة والأهمية توازي ، مثلاً ، مكانة « اتحاد العمال العـام الفرنسي » .C. G. T ، بل منظمة « الاتحاد الدولي للعمال الصناعيين » الأمريكي I. W. W. ، تستطيع أن تقف متحدية الدولة ونزعة التعصب القومي . لقـد أُسْكِت أعداء القومية على نحو شبه كامل ، وتجلت صحة وحقيقة ما توقعه باكونين . ولم تحقق الطبقة العاملة الألمانية الرسالة التاريخية التي أرادهـا لها ماركس وانجلس .

---

(٣٨) باكونين « الدولوية والفوضوية » ، بالروسية ، مقدمـــة للمجلد الأول ، زوريخ وجنيف ، ١٨٧٣ ، ص ١١ .

(٣٩) باكونين ، المؤلفات ، مجلد ٤ ، باريس ١٩١٠ ، ص ٥٦ — ٥٧ .

في العام ١٩١٢ ، كتب شارل أندلر ، أستاذ الألمانية في السوربون ، دراسة يناقش فيها إجراء الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي الألماني الذي كان قد طرد هيلدر براند دون أن يتحرك لاتخاذ إجراءات ضد رفاقه التحريفيين، رغم أن ماركسيين أصليين مثل بليخانوف كانوا يطالبون منذ سنوات عديدة بطرد هؤلاء من « الأممية ». وناقش أندلر برنشتاين وكيسل وشيبل وآخرين، وانتهى الى الاستنتاج بأن الحزب الاشتراكي الديمقراطي أصبح حزباً قومياً رأسمالياً .

« الطبقات العاملة في الاشتراكية اللاسالية الجديدة الألمانية توالي الرأسمالية ؛ وتوالي السياسة الكولونيالية ؛ وتوالي سياسة التسلح الدفاعية مبدئياً ، والهجومية عندما تدعو الضرورة ؛ وإذا خاضت الامبراطورية الألمانية حرباً هجومية أو دفاعية ، فإن العمال الألمان لن يتوخوا هزيمتها . لذلك فهي توالي النظام السياسي القائم في البلد ، وهي مهتمة بالضبط بالمحافظة على العائلة المالكة * »(٤٠) .

---

* هذا الحزب المؤيد للرأسمالية ، الذي وصفه اندلر بجدارة ، هو الذي تبنى ، بعد أن انشق الجناح اليساري عنه ، سياسة هتلر الخارجية في العام ١٩٣٩ ، وكان ذلك آخر ما فعله الحزب قبل أن يحله هتلر . وبعد الحرب العالميـــة الثانية سار في مزيد من الانحراف وأشهر رفضه للاشتراكية وتأييده « لنظام المشروع الحر » .

(٤٠) شارل أندلر : « الاشتراكية الامبريالية في ألمانيا المعاصرة ، ١٩١٢ — ١٩١٣» باريس ، ١٩١٨ ، ص ١٢٤ — ١٢٥ .

٥

الكولونيالية والنزعة العسكرية
ومسائل اخرى مرتبطة بهما
في اوروبا الغربية ، ١٨٩٠ - ١٩١٧

فرنسـا

لقد اشترك الحزب الاشتراكي الفرنسي، الذي كان عضواً في **كتلة اليسار**، في عدد من الوزارات في مطلع القرن العشرين ، ولم يجعل من نزع التسلح أو التخلي عن المستعمرات شرطاً لذلك .

لقد فشل الحزب الاشتراكي الفرنسي في أن يكون أميناً للأهداف والمبادىء المتعلقة بالمسألة الكولونيالية التي وضعها ، في مدينة « روميلي » في العام ١٨٩٥ ، « حزب العمال الفرنسي » الذي كان أحد أسلافه . في روميلي تبنى المندوبون قراراً حاول تحليل الكولونيالية وشدد على التناقضات القائمة بين مصالح العمال ومصالح الطبقة الحاكمة ، وأرسى سابقة هامة تمثلت في إقرار ضرورة أخذ حقوق البلدان المستعمرة بعين الاعتبار[١] .

---

(١) م . ريبيريو و ج . هوبت : « موقف الأممية » ، مجلة « الحركة الاجتماعية » ، باريس ١٩٦٣ ، عدد ٤٥ ، ص ٨ - ٩ .

ان دعاية غوستاف هيرفيه المعادية للوطنية والدعوات إلى الاضراب العام في حال نشوب الحرب قد فشلت ، رغم أنها لاقت قبولاً جدياً لدى البعض ، في أن تصبح غالبة في بلد واحـد ، كما فشل على الدوام الاقتراح الداعي إلى إضراب عام في مؤتمرات الأممية الاشتراكية ، حيث كان الفرنسيون بالفعل هم الوحيدون الذين يدعمون دعماً حقيقياً وجدياً هذه الفكرة .

لقد كانت النزعة القومية للثورة الفرنسية ذات طابع بورجوازي، فأطلق الاشتراكيون الفرنسيون الذين اعتبروها كذلك نظرية معادية للقومية كانت تبرز بشكل غير متوقع تكراراً منـذ ذلك الحين . لقد لاحظنا قبلاً معاملة المجلس اللاذعة لأعداء القومية في العام ١٨٤٥ ، واشارات ماركس الساخرة عام ١٨٦٦ من النزعة المعادية للقومية لدى الأعضاء الفرنسيين في الأممية الأولى. فلقد هاجمهم ماركس قائلاً ان وجهة نظر هذه الجماعة (وكان في صفوفهـا « بول لافارغ » الذي أصبح صهره فيما بعده) التي تريد صرف القوميات هي ضرب من قومية مستترة وان «لافارغ حين ينفي القوميات إنما يقصد بصورة لا شعورية امتصاصها في الأمة الفرنسية النموذجية » .

وانسحبت نقطة الخلاف ، على الصعيد السياسي ، بين «النزعة العسكرية» التي كانت تعني مخصصات مالية لجيش لجب ، وبين « نزعة العداء للعسكرية » التي كانت تعني أموراً عديدة ومنهـا الثورة . ولقد شدد سائر الاشتراكيين الفرنسيين ، من بابوف إلى جوريس، على الطابع الدفاعي لنزعتهم الوطنية[٢]. وتوضحت الخطوط التي سادت الحزب الاشتراكي الفرنسي في العقـد السابق للحرب العالميـة الأولى حول مسألة النزعة العسكرية في التصويت في مؤتمر « ليموج » في تشرين الثـاني ١٩٠٦ . ففي المؤتمر أنكر غوستاف هيرفيه « الوطنية والبورجوازية الحكومية » ، ودعا المواطنين إلى الجواب على إعلان الحرب بالاضراب العام والانتفاضة ، ونال اقتراحه ٣١ صوتاً . أقر « فيَّان »

---

(٢) ميلوراد دراكوفتش : « الاشتراكيتان الفرنسية والألمانية ومسألة الحرب، ١٨٧٠–١٩١٤ » . جنيف ، ١٩٥٣ ، ص ٣٤ .

و « جوريس » و « سامبات » وآخرون غيرهم شرعية الحرب الدفاعية ، لكنهم دعوا إلى استخدام جميع الوسائل ، بما في ذلك الاضراب العـــام والانتفاضة ، لمنع الحرب . ونال اقتراحهم ١٥٣ صوتاً ، فنجح . وتواجد في المؤتمر موقف ثالث مثّله « اتحـــاد الشمال » ، حيث كان نفوذ الماركسي « الخالص » ، جول جيسد ، مهيمناً فيه . وقد دعت هذه المجموعة إلى نضال اممي تخوضه البروليتاريا في سبيل تخفيف الخدمة العسكرية ورفض الاعتمادات المخصصة للحرب . ونال اقتراحها ٩٨ صوتاً، ثم تزايد مؤيدوه في السنة التالية في مؤتمر مدينـــة نانسي ، لكنه لم ينل الأكثرية المطلوبة . واتفقت جميع الأطراف في العام ١٩١٠ على دعوة مجلس « الأممية الاشتراكية » إلى الانعقاد في حال اقتراب الحرب ، ولم يُتخذ أي إجراء أفضل من ذلك حتى العـــام ١٩١٤ (٣) . وعندما اندلعت الحرب واجه غيسد ضغطاً كبيراً لاشراكه في الوزارة باسم الوحدة القومية ، فقبل .

وحدث مـــا يشبه ذلك بالنسبة للموقف من الكولونيالية . فلم يعارض الحزب الاشتراكي الفرنسي الكولونيالية سوى معارضة رمزية في البرلمان . ولكن لا ينبغي لنا أن نغفل النشاط القوي الذي بذله هيرفيه (وكان نفوذه محدوداً على الدوام) وجوريس ضد النزعة العسكرية والحرب . لقد شغل النضال ضد الحرب القسم الأكبر من وقت جوريس ، وشن حملة يائسة في طول البلاد وعرضها ، دونما نجـاح ، لدرء الحرب وكبح جماح النزعة العسكرية المتفاقمة . وستبقى مسألة ما إذا كانت ستطغي عليه الموجة القوميـــة أمراً متروكاً للتخمين ، إذ اغتيل عند اندلاع الحرب بالضبط .

وعلى كل حال ، فإن جوريس قد قال مراراً ان على العمال الفرنسيين أن يقاتلوا إذا تعرضت فرنسا لهجوم ما . وكتب :

---

(٣) بول لوي : « تاريخ الاشتراكية في فرنسا ، من الثورة الفرنسيـــة حتى اليوم » ، باريس ١٩٢٥ ، ص ٣٠٣ .

« الحقيقة هي أنه حيثما توجد أوطان ، فهناك جماعـات تاريخية تعي ضرورة استمراريتها ووحدتهـــا ، وكل هجوم على حرية هذه الامم وكرامتها هو هجوم على المدنية وردة إلى البربرية » [٤] .

وقد كتب جوريس يقول أيضاً أن « الثورة عمل ناشط بالضرورة . وهي يمكن أن تكون كذلك إذا دافعت عن الوجود القومي فحسب، الذي يوفر أساساً وقاعدة لها » [٥] .

لا شك البتة في أن جوريس كان وطنياً، ولكنه لم يكن وطنياً من النوع العادي المألوف ، إذ قدم خدمة جلى تتمثل في الجهد الذي بذله في سبيل إقامة نظام للميليشيا الشعبية ، على نمط الجيوش الشعبية التي حمت الثورة الفرنسية . وأُطلق على هذه الفكرة اسم « الجيش الجديد » ، حيث أوضحها بتفصيل في كتاب يحمل الاسم ذاته . ولأن هذا المشروع كان ينطوي على إلغاء الجيش ، لذا لم يكتب له النجاح ، شأن مشروع مماثل في ألمانيا [٦] .

قال غيسد ، الذي يعتبر أكثر الماركسيين أورثوذ'كسية ، ان العامل قد تحول إلى الاعتقاد بأن له وطناً ، منذ أن نال حق الاقتراع [٧] . وقد اعتبر غيسد ، على الدوام ، ان مشكلة النزعة العسكرية هي مسألة بورجوازية في الأساس [٨] .

لم ينضج ماركس دليلاً وافياً حول المسألة القومية. لذا انقسم الماركسيون، في فرنسا والمانيا على السواء ، انقساماً حـــاداً . وكان موقف غيسد شبيهاً

---

(٤) جان جوريس : « المؤلفات » ، المجلد الرابع ، باريس ١٩٣٢ ، ص ٣٠٣ .

(٥) موريس لير : « جوريس والمانيا » ، باريس ١٩٣٥ ، ص ١١٤ .

(٦) جيمس جول : « الأممية الثانيـــة ، ١٨٨٩ — ١٩١٤ » ، لندن ١٩٥٥ ، ص ١١٠ .

(٧) حول غيسد : « النزعة المعادية للعسكرية والحرب » ، ص ٤٣ .

(٨) صاموئيل برنشتاين : « جول غيسد ، رائد الماركسية في فرنسا » ، مجـــلة « العلم والمجتمع » ، العدد ١ ، ص ٤٣ .

بموقف « ديبس » في الولايات المتحـــدة . وثمة آخرون ، كانت تملأ أذهانهم بلا شك كتابات ماركس وانجلس الأولى ، قد دافعوا عن الامبريالية وواصلوا زعم الانتساب إلى الماركسية ؛ ولا يندرج في هذه الفئة التحريفيون الالمـان فقط بل انطونيو لابريولا في ايطاليا أيضاً . وحتى بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى لم يكن لينين قد صاغ نظرة مُمَيَّزة .

كان اتحاد النقابات الفرنسية « الاتحاد العام للعمل » C. G. T. ، أكثر نزوعاً إلى السياسة بكثير ، أو بالأحرى لم يكن ضد النزوع إلى التدخل في السياسة شأن الهيئات المناظرة له في ألمانيا أو انكلترا أو الولايات المتحدة . وكانت مؤتمراته ، التي تعقد كل سنتين من ١٩٠٢ حتى ١٩١٤ ، مأخوذة إلى حد كبير بمسألة النضال ضد الحرب والنزعة العسكرية . كان هذا الاتحـــاد يحمل نزعة معادية للوطنية ، وقد طبعت ووزعت ، في العـــام ١٩٠٥ ، ١٠٠,٠٠٠ نسخة من « كتاب الجندي » الشهير ، الذي كان يهدف إلى إثارة الاستياء في صفوف القوات المسلحة . وقد طالب سوريل وبيرث ولاغارديل بإلغاء الجيش ، وبمحو فكرة الوطن من أجل زعزعة دعامته الايديولوجية . وقد سجلت المؤتمرات ، واحداً بعد الآخر ، دعواتها إلى الإضراب العام ضد الحرب ، رغم أن التصويت في مؤتمر مرسيليا في العام ١٩٠٨ كان لصالح هذه الدعوة بأكثرية ٦٨٨ ، ضد ٤٢١ فقط . وفي العام ١٩١٢ ، دعى « الاتحاد العام للعمل » إلى الفرار من الجندية في حال وقوع الحرب .

أما المدى الذي كانت تشاطر فيه القواعد العمالية آراء الأكثرية الراديكالية في مؤتمرات « الاتحاد العام للعمل » فمسألة يحيطها شك وتساؤل ، وبخاصـة لأن العمال كانوا يصوتون للحزب الاشتراكي الفرنسي الـذي كان يتبع سياسة معتدلة . كان « الاتحاد العام للعمل » ضد الاقتراع على نحـو مبدئي . لقد ذكر لاغارديل أنه أجرى تحقيقاً مع ٤١ قائد مناضل من الاتحاد ؛ وقـــد رفضوا جميعاً ، عملياً ، أن يعتبروا أن ثمة هوية أو تطابق بين الوطن ونظام الملكية الخاصة ؛ أما جوابهم على السؤال « هل للعمال وطن؟ » فكان بالنفي .

بيد أن ميرهام ، زعيم عمال التعدين، كان يردد باستمرار أن العمال في القاعدة وطنيون . وقد اضطر لاغارديل إلى الاعتراف أن ثمـــة نزوع شوفيني لدى الجماهير * .

وإذا كان قبول « الحزب الاشتراكي الفرنسي » بالكولونيالية أمراً غير أخلاقي وغير ماركسي ، فإن موقف جوريس والاتحاد العام للعمل كان يفتقر إلى الانسجام والتماسك . لقد شن « الاتحاد ... » هجومه الرئيسي على الجيش والنزعة العسكرية ، بينما أولى اهتماماً ثانوياً بتوسع فرنسا الكولونيالي ، مـع أنه كان واضحاً أن هذا التوسع هو السبب الرئيسي للاحتكاك الدبلوماسي مع ألمانيا ، وهو ـ أي التوسع ـ الذي بلغ درجة زج فيها فرنسا في مواجهـــة خطرة مع انكلترا ، وهي أقرب حلفائها . وبينما كان الفرنسيون المعادون للنزعة العسكرية يعلنون معارضتهم للحرب ، إلا أنهم بذلوا اهتماماً غير كافٍ بأسباب الحرب . من الممكن أن تكون آراؤهم صادرة عن نزاهـة ، لكن أحكامهم كانت عرضة لتساؤلات وشكوك جدية . لقد هاجموا القومية ، إلا أنهم لم يأتوا ، إلا بشكل محدود جداً ، على ذكر بعض تجلياتهـا وتظاهراتها المؤذية .

من المتفق عليه عموماً أن الحماس الثوري لدى « الاتحاد العـام للعمل » الفرنسي قد خبا بعض الشيء بعد العام ١٩٠٨ . وعشية الحرب التقى « ليون جوهو » (زعيم الاتحاد العام للعمل الفرنسي) بـ « كارل ليجـين » (زعيم الاتحاد النقابي الالماني) ، فسأله عمـا هيأه العمال الألمان من أجل درء خطر الحرب ، فلاذ بالصمت ، كما قال جوهو . وعندما أعلنت الحرب ، شارك جوهو في دعمها ، وفعل مثله العمال الفرنسيون .

---

* انظر مقـــاله في مجلة « الأزمنة الحديثة » ، الذي استشهدنا به في الفصل الثالث ، صفحة ١٠٣ .

انكلترا

لم يجر في انكلترا تطور هامّ في النظرية الاشتراكية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. والطبقة العاملة، التي كانت تغلي بالاضطراب في الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر، أخذت تفقد اهتمامها بالاشتراكية عندما بدأت ظروف معيشتها بالتحسن بعد إلغاء « قوانين الحبوب » . وبقدوم العام ١٨٧٠ ، كان التحسن قد أصبح بارز المعالم بحيث اضطر ماركس وانجلس إلى القبول به كحقيقة واقعة . ولهذا فإن « الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي » (S. D. F.) ، الذي تأسس في العام ١٨٨١ على أساس برنامج ماركسي ، بقيادة « هيندمان » ، قد بقي صغير الحجم * . و « الجمعية الفابية » ، التي أُسست في العام ١٨٨٤ وبقي عدد أعضائها قليلاً رغم بعض نفوذٍ كانت تتمتع به السياسة العامة ، ركزت جهودها إلى حد كبير لجعل الخدمات العامة خدمات حكومية . وأسس « كير هاردي » ، وهو عامل منجم ، « حزب العمال المستقل » في العام ١٨٩٣ ببرنامج اشتراكي مبهم . ونشر « روبرت بلاتشفورد » ، الذي كان ذئباً وحيداً دون منظمة ، الدعاية الاشتراكية في جريدته « البوق » (كلاريون) . وعندما اندلعت حرب البوير في العام ١٨٩٩ ، كان عدد أعضاء الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي ٢٨٦٠ ، والفابيين ٨٦١ ، وحزب العمال المستقل ٧٠٩٢ [٩] .

كان هيندمان في أول أيامه امبريالياً صريحاً يعتقد أن التوسع الاستعماري البريطاني ، الذي امتد امتداداً واسعاً بعد ١٨٧٠ ، أمر « جيد بالنسبة إلى

---

* انقسم « الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي » بُعيد تشكيله وأسست مجموعة يقودها وليم موريس وآخرون ، بدعم من انجلس ، تنظيماً سمته « العصبة الاشتراكية ». لكن العصبة الاشتراكية فشلت في ترسيخ جذورها ، وارتد بعض أعضائها ثانية إلى « الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي » .

(٩) هنري بيلينغ : « أصول حزب العمال : ١٨٨٠ — ١٩٠٠ » ، لندن ، ١٩٥٤.

الحاكمين والمحكومين[١٠] » . وقد حولته التجارب وملاحظاتـه فيما بعد إلى واحد من أشد نقاد الحكم الكولونيالي البريطاني ، وبخاصة في الهند ؛ وكتب عن حالة الفقر الشديد التي يعيشها الهنود ، فقـال : « لم ترتكب في تاريخ الجنس البشري جريمة أشد فظاعة من الجريمـــة التي ارتكبتها انكلترا في الهند[١١] » .

كانت حرب البوير امتحاناً للاشتراكيين والطبقة العـاملة البريطانية على حد سواء . فهل سيغرقون في الموجة القومية التي سعّرها جزئياً ، بالطبع ، بلاتشفورد في جريدته « البوق » التي أيدت الحرب على طول الخط ؟

أطلق « الاتحـاد الاشتراكي الديمقراطي » النذير حتى قبل بدء الحرب ؛ وأعلنت جريدته أن الحرب قد نشبت «لصالح مجموعة من أصحاب المناجم »، الذين ، كما قالت باندفاع معادٍ للسامية لا داعي له ، يتألفون في غالبيتهم من يهود أجانب[١٢] . وواصلت جريدة « الاتحاد ... » حملتها الهستيرية المعادية للسامية ، ولكن تألفت داخل « الاتحـــاد الاشتراكي الديمقراطي » مجموعة تعارض موقفه في هذه المسألة. وهاجم هيندمان الحرب في الاجتماعات العامة، متحدياً غوغاء لندن ، طوال سنة كاملة قررت بعدها اللجنة التنفيذية للاتحاد وقف الحملة . وخلال هذه الفترة أُبرزت في بعض الأحيان مصالح الافريقيين السود ، بيد أن الاتحاد قد وقف ، على كل حـال ، إلى جانب البوير الذين اعتبرهم ضحية مؤامرة رأسمالية عالمية[١٣] .

لقد أدان حزب العمال المستقل ، في اجتماعه المعقود في نيسان ١٩٠٠ ، الامبرياليـة ، وأعلن أن من واجب أنصار الاشتراكية حماية الشعوب الأقل

---

(١٠) ه . هيندمان : « من ذكريات الماضي » ، لندن ١٩١٢ ، ص ١٥ .

(١١) ف . غولد : « هيندمان : نبي الاشتراكية »، لندن ١٩٢٨، ص ١٣٣-١٣٤ .

(١٢) ف . بيلي ، مجلة « الحركة الاجتماعية » العدد ٤٥ ، ١٩٦٣ ، ص ٤٦ .

(١٣) المرجع السابق .

تمدناً ومساعدتها على نيل استقلالها . كما سجل موقفاً يعارض التجنيد الالزامي ويدعو أعضاءه إلى رفض حمل السلاح . وأخذ كير هاردي، الناطق الرئيسي باسم الحزب ، موقفاً سلمياً مسيحياً . ومـــال إلى النظر إلى البوير نظرة مثالية ، لكنه قال أيضـاً أن الهدف الرئيسي من الحرب كان انقاص اجور عمال المناجم من السكان الأصليين[١٤] . أما رمزي ماكدونالد ، ذلك العضو الهام في«حزب العمال المستقل»، الذي كان سلمياً مثل هاردي في ذلك الحين ، فلم يدعُ علانية ضد الحرب ، لكنه زار جنوبي افريقيا بعد ٤ أشهر من انتهاء الحرب ووجد أن أجور الافريقيين في « راند » قد ُخفضت حقاً .

لم يكن « حزب العمال البريطاني » قد تشكل في ذلك الوقت ، وكان زمام القيـــادة السياسية للحركة النقابية بيد « مؤتمر الاتحادات النقابية » . كانت مشاعر العديد من القادة ضد الحرب تقوم على أسباب صحيحة . وفي أواخر ١٨٩٩ ُوزع بيـــان وقعه ٨٣ منهم ، أكدوا فيه على أن الهدف من وراء الحرب كان زيادة غنى الرأسماليين بواسطة « العمل القسري الرخيص ». وكان من بين الموقعين قادة معروفون : جوزيف آرك ، هنري برودهيرست ، توماس بيرت ، جون بيرنز ، كير هاردي ، روبرت سميلي ، ويل ثورن ؛ وكان تسعة منهم ، في ذلك الحين أو قبله ، أعضاء في البرلمان[١٥] . ولقـــد أبرز البيان بشكل واضح وصارم مسألة العمل الرخيص وتخفيض الأجور ؛ ولكن كان من الواضح ان هناك جماعة في الاتحادات النقابية كانت تعطف على موقف « اتحاد الاشتراكيين الديمقراطيين » وتعمل من وراء ستار ، ولم تكن بلا نفوذ في الحركة النقابية ، التي كان معظمها غير مبالٍ ، بالتأكيد ، بتلك

---

(١٤) المصدر السابق ، نقلاً عن «التقرير السنوي لحزب العمال المستقل»، عام ١٩٠٠ ، ص ٢٨ ، ٢٩ و « القائد العمالي » ، ٢٤ شباط ، ١٩٠٠ .

(١٥) اوغدن : « الحرب ضد الجمهوريات الهولندية » ، لندن – مانشستر ، ١٩٠١ ، ص ٨٢ – ٨٥ .

المسألة . وفي مؤتمر الاتحادات النقابية لعام ١٩٠٠ تناول رئيس المؤتمر قضية الجماعية أو سيطرة الدولة على وسائل الانتاج collectivism بإيجابية وتأييد ، وختم خطـــابه باستشهاد بنص طويل من كتابات انجلس . واتجه « تقرير الجمعية البرلمانية » إلى الإقلال من أهمية حرب البوير والتخفيف من صداها ؛ لكن عاملاً من القاعدة ، « ج. وارد » الذي كان حمّالاً في مرفأ لندن ، أثار المسألة ، وطرح توصية بقرار يأسف لإغفال التقرير آثار الحرب المفجعة على التجارة والصناعة في البلد ، ووصف الحرب بأنهـا وحشية وغير ضرورية ، وقال أنها « ضربة مسددة إلى استقلال عمال جنوبي افريقيـــا وإلى مبادىء التحرر القومي التي تميز بهـا تاريخ الجزء الأخير من القرن »[١٦] . وقوطع خطابه بالتصفيق ، ولاقى استحساناً عاماً كما ذكرت « جريدة وستمنستر » (وستمنستر غازيت) . ووافقت على مشروع القرار « أغلبية ضئيلة » مع امتناع الكثيرين عن التصويت[١٧] .

يبدو واضحاً من هذه الحادثة أن هؤلاء الذين ينسبون محافظة برنشتاين وتحريفيته إلى ارتباطه الطويل بحركة الاتحادات النقابية الانكليزية لا يقولون سوى نصف الحقيقة . فقد كان في هذه النقابات جناح راديكالي لم يكن يفتقر إلى التعاطف مع مبادىء الاشتراكية العلمية . لكن القادة كانوا يتصرفون بحيـــاء واضح في التعبير أمام الجمهور عن مشاعرهم التي يمكن أن تفسَّر على أنها انتقاص أو حط من قدر الامبراطورية ، وفضلوا الالتزام بما سمي « قضايا العمال » كالأجور والتجارة وقمع الحركة النقابية .

لا يمكن إعطاء حكم نهائي حول المسألة الهامة ، مسألة ما إذا كان العمال المهرة أم غير المهرة هم الأكثر تشبعاً بالدعاية الشوفينية التي كانت قـــد شقت

(١٦) « تقرير المؤتمر الثالث والثلاثين لمؤتمر الاتحادات النقابيـــة ، ١٩٠٠ » ، ص ٥٤ — ٥٥ .

(١٧) اوغدن ، ص ٨٥ — ٨٦ .

طريقها داخل الحركة العمالية . لقد حاول هيندمان البرهان على أن الغوغاء الذين هاجموا اجتماعاته المعادية للحرب وخربوها في البداية كانوا بروليتاريين مغموسين بالفساد ولا يتمتعون بتأييد جمهرة العمال . لكن تحليل صحـــافة الاتحادات النقابية قاد ف. بيلي إلى الاستنتاج بأن العمال الأكثر فقراً والأقل ثقافة كانوا أكثر شوفينية[(١٨)] .

انقسمت « الجمعيـــة الفابية » حول موضوع الحرب . فقد دافع جورج برنارد شو عن حرب البوير (التي أيدتها الجمعية) وبررها بوصفها وسيلة لحماية الوطنيين الافريقيين من الخضوع لاستعبـــاد البوير ؛ ودعا إلى وضع ملكية المناجم بيد كونسورسيوم دولي ، وقال أيضـــاً : « على » الامبراطورية البريطانية أن تطوّر المنطقة لصالح الانسانية جمعـــاء[(١٩)] . ولكن كان ثمة كتلة في الجمعية الفابية اتخذت موقف معارضة من حرب البوير ، وقد دعت إلى إجراء تصويت عام للأعضاء حول مسألة ما إذا كان على الجمعية أن تأخذ موقفاً من مسألة الامبريالية في علاقتها بالحرب . وتم التصويت فكانت النتيجة : ٢١٧ صوتاً بالموافقة و ٢٥٩ بالرفض . فترك الجمعية معظم المعادين للامبريالية وهم في حالة قرف[(٢٠)] . ولم يقل « سِدني ديب » ، أحـــد القادة الفابيين ، سوى القليل في فترة الحرب الأولى ، لكنه عبّر عن موقفه حول « حقوق » القوميات الصغيرة في مقال نشر في أيلول ١٩٠١ : « ما لنا ، باسم الحسّ السليم ، والنفاق القديم الذي فات أوانه حول نضال الشعوب المحق في سبيل التحرر ؟». وهزأ بالتجريد « الفينياني » حول « مبدأ القومية » ، وأضاف: « كم تبدو الآن لعبة قديمة كل هـــذه الكتابات عن قومية « بدايات العصر

---

(١٨) بيلي ، ص ٧٠ .

(١٩) جورج برنارد شو ، « الفابية والامبراطورية : بيان الجمعية الفابية » ، لندن ١٩٠٠ ، ص ٢٢ وما يليها .

(٢٠) بيلي ، صفحة ٤٢ — ٤٤ .

الفيكتوري»[٢١]، والإشارة هنا تعود بالطبع إلى قومية البوير والايرلنديين.

لم يكن جون هوبسون ماركسياً، رغم أن تأثير ماركس عليه كان واضحاً، كما أنه أثر بدوره على الكتاب الماركسيين؛ ولا يزال هناك بعض الاقتصاديين الذين يؤكدون، دون فهم، أن لينين أخذ أفكاره عن الامبريالية من دراسة هوبسون الكلاسيكية: «دراسة حول الامبريالية»[٢٢]. كان هوبسون، مثل آدام سميث، قومياً بريطانياً معتدلاً؛ ورغم انه زود نقاد الماركسية بذخيرة لنقدهم، وأعطى تفسيراً اقتصادياً للظاهرة، إلا أن فشله في إدانة الامبريالية في افريقيا، حتى في طبعات كتابه الأخيرة، يجب أن يعتبر نتيجة للعصبية القومية العمياء، ذلك أن الظلم البالغ الذي نزل بمناطق مثل الكونغو البلجيكي والممتلكات البريطانية في افريقيا قد أصبح أمراً معروفاً بشكل واسع في أوائل القرن العشرين.

لقد كان حزب العمال يتبنى، منذ تأسيسه في العام ١٩٠٦ وحتى العام ١٩١٤، قرارات سلمية معادية للنزعة العسكرية، في كل عام تقريباً، كما اتخذ الموقف ذاته «مؤتمر الاتحادات النقابية» على التوالي أيضاً. وتبنى مؤتمر حزب العمال في العام ١٩١٢ قراراً نال ١،٣٢٣،٠٠٠ صوتاً ضد ١٥٥،٠٠٠ يدعو إلى البحث في اضراب عام من أجل إنهاء الحرب، ولكنهم لم يذهبوا إلى أبعد من ذلك[٢٣].

في انكلترا، كما في جميع البلدان الامبريالية، كان ثمة تواصل في السياسة الخارجية أياً كان الحزب الموجود في السلطة. أما المعارضة فكانت توجه النقد حول نقاط تفصيلية، لكنها ما أن تصل إلى مركز السلطة حتى تتبنى ما فعلته

---

(٢١) سدني ويب، «فرار لورد روزبري من هوندسديتش»، نشر في مجلة «القرن العشرين»، أيلول، ١٩٠١، ص ٣٧١.

(٢٢) هوبسون: «دراسة حول الامبريالية»، الطبعة الأولى، لندن، ١٩٠٢.

(٢٣) تسيانغ: «العمال والامبراطورية»، نيويورك، ١٩٢٣، ص ١٦٩–١٧٠.

الحكومة السابقة وتتقدم منطلقة في أفعالها من المكان الذي انتهى إليه الحزب الآخر . فقبل الحرب العالميـــة الأولى كان نقد المعارضة يدور حول حجم المخصصات المالية للبحرية وحول نقاط أخرى صغيرة تتعلق بتوجيه العلاقات الخارجية . التزم ممثلو « العمال » في البرلمان منذ ١٨٨٠ بهذا النقد ، وعارضوا اعتمادات التسلح بخاصة ؛ وكان « العمال » وحدهم تقريباً يعارضون زيادة مخصصات البحرية[٢٤] . أما بخصوص مسألة الهند ، وهي مسألة رئيسية ، فإن طليعة أنصار حقوق الهند في مجلس العموم ما بين ١٨٨٠ و ١٩٠٥ كانوا من غير العماليين . وإذا اتخذ العماليون موقفاً من الهند فإنمـــا يتخذونه سيراً وراء هؤلاء الرجــال . وفيما بين ١٩٠٥ و ١٩١٧ ، قاد كير هاردي (حتى موته في ١٩١٤) وجيمس أوغرادي ، وكلاهما من « حزب العمال المستقل »، حملة تطالب بحرية الهند،وهذا مطلب يوازي في أهميته مطلب «غير العماليين». وعلى كل حال ، لم تكن القواعد العمالية صفاً واحداً حول هذه المسألة ، فقد صوتت في العام ١٩٠٨ أقلية من ممثلي « العمال » في البرلمان إلى جانب استعمال القوة ضد الهند ، وفي السنة التالية، أيضاً ، صوتت أقلية عمالية مع حكومة « الأحرار » ضد توسيع الحكم الذاتي في الهند* [٢٥] .

وقد ساهم ممثلو العمال مساهمة ضئيلةالأثر في مسائل الامبراطورية الاخرى. إن عزوف القادة ، حتى الذين كانوا على قدر أوسع من المعرفة ، عن اتخـاذ أي موقف مناهض للحفاظ على الامبراطورية وتوسعها، قد ظهر بوضوح خلال حرب البوير . لذا ليس أمراً مستغرباً أن يقدمالعمال البريطانيون قبل الحرب العالمية الأولى خدمة لفظية فحسب لقضية السلام والاممية والحد من التسلح

---

(٢٤) المصدر السابق ، ص ١٦٦ .

* في فترة ما قبل العام ١٩١٤ ، كان معظم العماليين الذين عارضوا تحرير الهند أعضاء في حزب الأحرار .

(٢٥) المصدر السابق ، ص ٥٩ .

وذلك لأنهم بقوا قوميين . ولقد صوّر ، آسفاً ، صحافي عمالي هو برايلسفورد الذي كان ينتقد السياسات الامبريالية بقوة ، نفسيتهم بقوله :

« دع جماعة من القادة العماليين ، انكليز وألمان ، يخاطبون اجتماعاً جماهيرياً للعمال البريطانيين . يمكن الارتفاع بالمجتمعين إلى مستوى تضامن حقيقي بين الطبقتين البروليتاريتين ، كما يمكن دفع المجتمعين إلى التصويت للتبرع من صندوق نقابتهم الخاصة لمساعدة عمال المناجم الالمان المضربين ، وسيتركون الاجتماع مفعمين برغبة من أجل السلام والأخوة بين الأمتين ... بيد أن نفس الجمهور ، إذا هيأته الصحافة وحرّكه ببراعة خطباء مفوّهون ، يمكن أن يصفق أيضاً لخطابات تجار الرعب البحري ، ويذهب صارخاً طالباً المزيد من المدرعات ، ويفتش في السماء عن طائرات المانية[٢٦] » .

لقد حمل الماركسيون واليساريون الآخرون ضرباً من النزعة الاممية العملية إلى صفوف حركة العمال البريطانيين عندما ساعدوا الايرلنديين في نضالهم من أجل الاستقلال . وقد محضهم جيمس كوناللي الاحترام والتقدير في مقال نشره في جريدة « إلى الأمام » (فور وورد) ، في ١ تموز ١٩١١ :

« لقد كان كير هاردي يقاتل من أجل حكم ذاتي ايرلندي عندما كانت « حكومة الأحرار » تملأ السجون الايرلندية برجال ونساء ايرلنديين يخالفونها الرأي. وكان « بروس كلازير » عضواً في « عصبة الارض الايرلندية» في كلاسكو في ذات الوقت العاصف. وكان ه. م. هيندمان على رأس « اللجنة التنفيذية الوطنية » لـ « عصبة الأرض الايرلندية » في بريطانيا العظمى ؛ وكان ادوارد أفلينغ ، ذلك الشارح اللامع للعلم الاشتراكي ، أول رجل من خارج إيرلندا ينتسب رسمياً إلى « الحزب الجمهوري الاشتراكي الايرلندي »؛ وقالت زوجته

---

(٢٦) برايلسفورد : « حرب الفولاذ والذهب » ، لندن ١٩١٥ ، ص ١٦٠ .

إيليانور ماركس أفلينغ ، ابنة كارل ماركس ، في كتابها « تاريخ حركة الطبقة العاملة في انكلترا »، قولاً ينم عن تأييد لنضالنا القومي، وفحواه : « إنه لأمر أكيد أن الأمل في أن تصير « إيرلندا أمة » إنما يكمن لا في أبناء الطبقة الوسطى ، لكن في رجالها ونسائها العمال المخلصين النبلاء الأبطال ! » . وكتبت إلى فرع المنظمة في دبلن بعد شهر من تشكيلها في العام ١٨٩٦ تعرض العون وكل مساعدة في وسعها تقديمها [الإشارة هنا هي إلى حزب كونالي « الحزب الجمهوري الاشتراكي الإيرلندي] » [٢٧] .

ينبغي ألا ينسى أن انكلترا هي البلد الذي اكتشف فيه جيم لاركين العلاقة بين الاشتراكية والقومية ، في ليفربول ، حيث نشأ واعتاد الالتقاء بجماعة من الاشتراكيين في مقهى الكلاريون [٢٨] .

وفي النهاية أعلن حزب العمال البريطاني موقفه إلى جانب استقلال إيرلندا . لكنه استمر في التعاون عدة سنوات ، بعد تشكيله كحزب مستقل ، مع « الاحرار » في دعم حكم ذاتي لايرلندا لا أكثر . وكان « الجمهوريون الاشتراكيون الايرلنديون » يريدون سياسة عمالية أكثر نشاطاً وتأييداً للاستقلال ، وأشاروا إلى أن التشريع الاجتماعي الذي جرى تطبيقه لصالح الطبقة العاملة الانكليزية كان يمكن توسيعه ليشمل إيرلندا لو أن « العمال البريطانيين » قد عقدوا العزم على النضال من أجل ذلك . ان السير في سياسة كهذه ، ودعم مطلب استقلال إيرلندا كان يمكن أن يؤديا إلى

---

(٢٧) « الاشتراكية والقومية » ، مختارات من كتابات جيمس كونالي ، مع مقدمة وملاحظات كتبها دسموند رايان ، دبلن ١٩٤٨ ، صفحة ٢٠ — ٢١ . سيشار إلى هذا المرجع في الصفحات التالية بكلمة كونالي .

(٢٨) فوكس : « جيم لاركين : قائد العمال الايرلنديين »، نشر الانترناشونال ١٩٥٧ ، صفحة ١٨ .

توسيع نفوذ « العماليين البريطـانيين » في صفوف الايرلنديين ونيل أصواتهم في الدوائر الانتخابية الانكليزية، الذين مضوا في دعم الليبراليين بسبب تبني هؤلاء التقليدي « للحكم الذاتي» . لكن العماليين البريطانيين لم يكونوا يؤيدون الاصلاحات في إيرلندا إلا إذا لاقت موافقة القوميين الايرلنديين (روموند)، وكان أعضاء جماعـــة روموند من الطبقة الوسطى ، وقد عارضوا مطالب العماليين الايرلنديين* (٢٩) .

كان ارتباط هيندمان الوجـداني بالثقافـة البريطانية (في تعارضها مع الالمانية) قد برز أكثر فأكثر في العقد الذي سبق العام ١٩١٤ . وكان ، كما قال كاتب سيرته جولد ، يؤمن ان الاشتراكية الديمقراطية في انكلترا إنمـا تتوقف على حماية القومية الانكليزية وتقديرها لهـا حق قدرها(٣٠) . ولم يعر اهتماماً لنزعة كير هاردي السلمية ، كير هاردي الذي كان يحاول أن يبرهن أن لا أحد سيجرؤ على مهاجمة أمة نزعت سلاحها نزعاً تاماً . ورأى ، في وقت مبكر ، شأن رودولف هيلفردنغ ، أن المانيا سوف تنافس بريطانيـا سيطرتها الامبريالية ، وقضى جزءاً متزايداً من وقته في التحذير من « الخطر الالماني » ، وأصبح داعية عنيداً لبحرية كبيرة ، ونادى ببنـاء بحرية كبيرة تكفي لمواجهة تحدي أية مجموعة ممكنة من الأعـداء ، بحيث وجد نفسه في عزلة متزايدة عن الاشتراكيين الآخرين . وعندمـا اندلعت الحرب كان في طليعة الداعين إلى نصر عسكري تام . وأخيراً طرده « الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي » .

مات كير هاردي ، مثل جوريس ، عند اندلاع الحرب بالضبط . وأخذ

---

* انتقد كونالي كير هاردي لفشله في رؤية الطابع الطبقي ، طابع الطبقة الوسطى ، في قومية ردموند الايرلندية ، كونالي ، ص ٤٧ .

(٢٩) كونالي ، صفحة ٦٧ – ٧١ ، ١٠٥ ، ١١٢ ، ١٢١ .

(٣٠) جولد ، ص ١٤٨ .

قادة « حزب العمال المستقل » الآخرون مواقف مغايرة ، فذهب السكرتير ، « أ . فنر بروكواي » ، إلى السجن « كمستنكف ضميرياً » عن حمل السلاح . وأيد رمزي ماكدونالد الحرب ، رغم أنه لم يعط دوراً مسؤولاً في شؤون سيرها . ووقف « حزب العمال المستقل » موقفاً يدعو إلى وجوب إعطاء جميع المستعمرات ، بما في ذلك إيرلندا والهند ، حق تقرير المصير .

ولقد وقفت الحركة العمالية النقابية عموماً ، وحزب العمال ، بعد فترة تردد ، إلى جانب الحرب .

وقامت مجموعة صغيرة من القادة العماليين والمثقفين ، الذين أقلقهم تسامح حركة العمال بشكل عام تجاه اليسار السلمي ، في نيسان ١٩١٥ بتنظيم « اللجنة الاشتراكية للدفاع القومي » ، التي ستصبح فيما بعد « عصبة العمال البريطانيين القومية » . وقد أيدت هذه المجموعة ، التي ضمت في صفوفها بلاتشفورد ، و هـ . ج . ولز (وجون هودج قائد عمال الفولاذ) الحفاظ على الامبراطورية وتوسيعها من خلال السيطرة على مستعمرات المانيا . وشنت جريدة « المواطن البريطاني والعامل الامبراطوري » ، التي أُصدرت لنشر آراء هذه المجموعة ، فضلاً عن جريدة بلاتشفورد « كلاريون » ، حملة « وجهت نيرانها بشكل ثابت ضد اليسار ، وفاق بعض أعضاء تحريرها ومراسليها أعضاء حزب « التوري » في عنف هجومهم »[٣١] .

ايطاليـــا

لم يظهر في ايطاليا ، حتى نهاية القرن التاسع عشر ، سوى نفوذ أو تأثير ماركسي محدود نسبياً . واندريه كوستا ، الذي انتخب في العام ١٨٨٥ ، بوصفه اشتراكياً ، عضواً في البرلمان الايطالي كان ينتسب إلى الجناح المعادي للسلطوية (الباكونيني) في الاممية الأولى . وواجه كوستا ضرورة اتخاذ

---

(٣١) براند : «صعود العمال البريطانيين إلى السلطة» ، لندن ، ١٩١٤ ، صفحة ٧٧ .

موقف من الامبريالية عندما انطلقت ايطاليا في أولى مغامراتها الكولونيالية الافريقية . وتصدى للتحدي في مناقشة ٦ – ٨ أيار ١٨٨٥ ، قائلاً بكل وضوح وصراحة أن الكولونيالية ليست في صالح العمال الايطاليين ، ولن يسهموا فيها . وينبغي على الحكومة أن تلتفت ، بدلاً من أن تبذر أموالها في حروب باهظــة التكاليف فيما وراء البحار ، إلى حل المشاكل الاجتماعية . وأبدى النواب معارضة ضئيلة لهذه الحجة ، ولكن عندما أعلن كوستا بعد عامين أن المغامرات الكولونيالية قد لطخت شرف ايطاليـا ، أُمطِر بوابل من الذم والشتم . وقد قام عمال المناجم في تيرني بمظاهرة ضد الحرب الكولونيالية[٣٢] .

كان فيليبو توراتي ، الذي ظهر في العقد الأخــير من القرن التاسع عشر كقائد اشتراكي معتدل ، ومحرر لجريدة « أفانتي » (إلى الأمام) ، معارضاً منذ البداية للكولونيالية التي وصفهـــا بـ « المرض » و « الحمى » و « الحالة المرضية » التي ينبغي لايطاليا أن تشفى منها . وفي مواجهة الحجج القائلة أن المستعمرات ضرورة لمعالجة تزايد السكان في ايطاليا ، لم يرَ توراتي مانعاً من إقامة تعاونيات زراعية فيما وراء البحار ، لكنه رفض اعتبار الهجرة دواء للفقر في ايطاليا . وأكد أن الكولونيالية ليست ضد مصالح العمال وحسب ، وإنما ضد المصالح البورجوازية أيضاً ، حيث ستعيق المغامرات العسكرية تطورها السلمي . وفي ١٨٩٥ – ١٨٩٦ ، عندما برهنت القوات الايطالية على عجزها عن دحر جيوش ملك الحبشة « منليك » ، ارتفعت صرخة « يعيش منليك » ، وأصبحت مسموعة في أحياء الطبقة العاملة[٣٣] .

---

(٣٢) روبرتو باتاغليا : « تقاليد مناهضة للكولونيالية في الطبقة العاملة الايطاليـــة » ، « ريناشيتا » ، مجلد ١٥ ، عدد ١١ – ١٢ . رومـا ، تشرين الأول – كانون الأول ، ١٩٥٨ ، صفحة ٨٥٢ – ٨٥٣ .

(٣٣) المصدر السابق ، صفحة ٨٥٤ ، ٨٥٦ .

في العام ١٨٨٨ ، أعلن العلامة الشهير انطونيو لابريولا نفسه ماركسياً ، وكان جيل من الاشتراكيين الشبـــان والامبرياليين الصاعدين ينتظر آراءه وإرشاداته باهتمام عظيم . ودعا لابريولا، الذي ادعى انه يستلهم روح الماركسية لا نصوصها وحروفها، إلى سياسة توسعية ومحض تأييده لاحتلال طرابلس (ليبيا) العسكري[٣٤] .

كانت المشاعر القومية تحتدم في ظل قيادة رجال من أمثال غبريال دانونزيو وإنريكو كوراديني . وبذل الأخير جهداً قصد منه استقطاب أتباع من الطبقة العاملة ، فنبش فكرة ، ساعده باسكولي على نشرها ، تقول ان على « الامم البروليتارية » في اوروبا أن تحطم الاحتكار الكولونيالي الذي تسيطر عليه « الامم البلوتوقراطية » . وانشق بونومي ، وهو اشتراكي من الجناح اليميني ، عن الحزب بسبب الخلاف حول المسألة « الوطنيـــة »[٣٥] . وأسس أنجيلو أوليفتي ، النقابي الأصيل ، مجلة « صفحات حرة » (باجيني ليبريه) في لوكانو في العام ١٩٠٧ ، لكي يظهر مزايا وفوائد الكولونيالية بالنسبة للعمال[٣٦] . وقبل أرتورو لابريولا (لا قرابة له بأنطونيو) ، الذي كان واحداً من ألمع القادة النقابيين ، مفهوم « الامم البروليتارية » ، واعتقد بالاضافة إلى ذلك أن الحرب الليبية (١٩١١ — ١٩١٢) سوف تقرّب الثورة البروليتارية — وهذه فكرة من بقايا مذهب « الأسوأ يؤدي إلى الأفضل » الذي بشّر به بعض الأحيان قادة فوضويون .

وقـــد برهن توراتي على موقف صلب عنيد ضد الكولونيالية ، بل ضد

---

(٣٤) انطونيو لابريولا : « الاشتراكيون والتوسع الكولونيالي » ، مقابـــلة نشرت في « جورنال ايطاليا » ١٣ نيسان ، ١٩٠٢ .

(٣٥) باتاغليا ، ص ٨٥٧ .

(٣٦) موريس فوسارد : « من بترارك إلى موسوليني، تطور الشعور القومي الايطالي» ، باريس ١٩٦١ ، ص ١٨٢ .

الحرب الليبية ، حيث ظهر حينهـــا ان ثمة قادة آخرين معتدلين كانوا على استعداد للتراجع . وصمد مؤتمرا الحزب في مودينا وريجيو إيميليا على موقف اشتراكي معارض . وأعلن موسوليني في ١٩١٠ أن « البروليتاريا ليس لهـــا وطن ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى البورجوازية ؛ وفي حال وقوع الحرب لن نذهب نحن الاشتراكيين إلى الجبهة ــ بل سنفجر انتفاضة داخل حدودنا»[٣٧]. وشن في «مؤتمر ريجيو إيميليا» في العام ١٩١٢ هجمات عنيفة ضد الاشتراكيين الذين انحازوا إلى صف الحكومة ؛ كما اشترك في أعمـــال مباشرة ، فخرب خطوط السكك الحديدية لمنع نقل الجنود إلى المرافىء التي ينطلقون منها إلى طرابلس . واحتل مركز المسؤول عن تحرير « أفانتي » بدلاً عن توراتي ، كقائد للجناح اليساري القوي في الحزب الاشتراكي .

لكن موسوليني أخذ يدعو ، مع انتشار الحرب العالمية الأولى ، إلى خط « وطني » متشدد ، وأسس ، بواسطة مبلغ مليون فرنك وصلته من الحكومة الفرنسية ، جريدة تبنت الدعوة إلى دخول إيطاليـــا الحرب إلى جانب الحلفـــاء . فعاد توراتي إلى مركز المسؤول عن تحرير « أفانتي » . وإزاء الحرب ، تبنى الحزب الاشتراكي سياسة « لا تعاون ولا تخريب » . وكان هذا الموقف هو ، من حيث الجوهر ، عين موقف رمزي ماكدونالد في انكلترا وكاوتسكي في المانيا ؛ وقد هاجم لينين هذا الموقف بلا رحمة ، باعتبـــار انه يقدم موضوعياً ، مساعدة لمفتعلي الحرب ويشجعهم .

هولندا

لقد احتلت هولندا ، وهي البلد الصغير الذي يملك امبراطورية واسعة ، مركزاً خاصاً في اوروبا خلال الفترة التي سبقت العام ١٩١٤ ، وبخاصة لأن ممتلكاتها في جزر الهند الشرقية كانت غنية وتدر أرباحاً طائلة . وكان

---

(٣٧) بالم دات : «الفاشية والثورة الاشتراكية»، نشر الانترناشونال، ١٩٣٤، ص ١٨٨.

« حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي » من أوائل الذين قدموا برنامجاً للاصلاح في المستعمرات . وتضمنت هذه الاصلاحات ، التي اقترحت في مؤتمر الحزب عام ١٩٠١ ،تأميم «المشاريع الملائمة لذلك» ، من أجل منع إفقار المستعمرات؛ كما تضمنت تنظيم بروليتاريي المستعمرات القادرين على مقاومة هجوم الرأسمال، وعلى تحسين أحوالهم ، وعلى تهيئتهم من أجل إقامة حكم ذاتي ديمقراطي[٣٨] .

لم يطالب الحزب باستقلال المستعمرات حالاً ، ويعطي برنامج الحزب الانطباع بأن المستعمرات يمكن أن تنتظر وقتاً طويلاً لكي يقرر الحزب ، حين يستلم السلطة ،منح هذا الضرب من الاستقلال . كان الكتاب الاشتراكيون الهولنديون مهتمين كثيراً بمسائل القومية ، وكتبوا بعض أفضل المنشورات الصادرة في هذه الفترة . وكان بعضهم معادياً للكولونيالية ، ولكن عداءه كان يتجه بالأحرى ضد محاولات المانيا للحصول على المستعمرات لا تخلي الدول الكولونيالية عن مستعمراتها . ولهذا أخذ « دبليو فان رافستين » على عاتقه أن يبرهن كيف تزيد الكولونيالية أحوال الطبقة العاملة سوءاً ، حيث يتعين عليها أن تدفع ثمن التوسع الكولونيالي على شكل ضرائب ، وأن تتحمل تكاليف الحروب الامبريالية . لم يناقش مسألة ما إذا كانت الامبراطورية الهولندية الكولونيالية قد أفادت العامل الهولندي ، لكنه دعا إلى نضال أممي ضد الكولونيالية والامبريالية[٣٩] .

وقد أصدر ه غورتر ، الذي ما زال محتفظاً بمكانته كشاعر حتى يومنا هذا والذي كان كاتب كراريس ومنشورات مؤثر ، كراساً في العام ١٩١٥ (وصفه لينين بالـ « ممتاز ») ناقش فيه أسباب وجود النزعة القومية في صفوف البروليتاريا . وقال أن السبب الذي جعل البروليتاريا تضع نفسها

---

(٣٨) « برنامج حزب العمال الهولنديين في السياسة الكولونيالية ، مؤتمر عام ١٩٠١» ، امستردام ، ١٩٠١ .

(٣٩) رافستين : « الدعاية الكولونيالية » ، امستردام ، ١٩٠٩ .

كلياً في خدمة البورجوازية إنما يعود إلى انها لم تفهم بعد كيف تعمل أممياً ضد البورجوازية؛فهي لا تعرف كيف تقاتل من أجل أهداف بعيدة كالاشتراكية، بل تقاتل من أجل حاجاتها المباشرة فقط . يحصل العامل على عيشه من رأس المال الوطني ، ويعمل من أجل ذلك ؛ ومن هنا فهو يميل إلى الاعتقاد ان مصالح رأس المال الوطني هي مصالحه هو بالذات . فهو قومي بشكل متراخ وغير فاعل ، عدا الحالات التي يكون فيها اشتراكياً بشكل نشيط . وتتحكم الامبريالية بسياسة رأس المـال الذي يواصل سيره في توحيد أمم ضد البروليتاريا ؛ ومع ذلك فـ « الاشتراكية الاممية شعـار ، وليس ثمة أممية في الممارسة » . أيد غورتر موقف كارل ليبكنخت في المانيا حيث صوت ضد اعتمادات الحرب ، ودعا إلى إضراب جماهيري ضدها[٤٠] .

وما لبث الجناح اليساري في « حزب العمال الاشتراكي – الديمقراطي » ، الذي انشق في العـام ١٩٠٩ عن الحزب وأسس « الحزب الاشتراكي – الديمقراطي » ، أن أعاد النظر في موقفه عند اندلاع الحرب ، وشن ، بقيادة « وينكوب » وغورتر وناكوك ، حملة ناشطة من أجل استقلال اندونيسيا . وشقت الطريق إلى مناقشة استقلال اندونيسيا كتابات س . ج . روجرز ، الاشتراكي الديمقراطي ومؤلف كتاب في جزئين حول هذا الموضوع . وكما ان هوبسون قد فضح ، في انكلترا ، التأثير المفسد لكبار أصحاب الثروات nabobs على السياسة البريطانية ، كذلك حمّل الاشتراكيون الديمقراطيون اليساريون الهولنديون طبقة الملاكين العقاريين ، الذين خلقتهم الامبريالية ، مسؤولية العجز عن تطوير الرأسمالية الهولندية .

اسبانيــــا

في ايطاليا، كانت المعارضة للنزعة الوطنية وللكولونيالية متصلة باستمرار

---

(٤٠) غورتر : « حول الامبريالية والطبقة العاملة والاشتراكية – الديمقراطيـــة » ، امستردام ، ١٩١٥ . ص ٥٤ – ٥٦ ، ٦٠ ، ١٠٩ .

وتواصل تأثير أفكار باكونين في حركة الطبقة العاملة. وفي مناطق من اسبانيا، مثل كاتالونيا وأستورياس، حيث كانت أفكار باكونين متصاعدة النفوذ أيضاً، لم تكن الحركة الفوضوية — النقابية متصلة بنزعة العداء للكولونيالية فحسب (وكان هذا العداء قوياً في اسبانيا نظراً لأن نتائج المغامرات الكولونيالية كانت سيئة المردود إلى حد كبير)، بل ومتصلة بالحركة الاقليمية أيضاً. وما زاد في تعقيد الامور الشعور المعادي للاكليركية في كاتالونيا. ان الاضطرابات الفوضوية — النقابية في برشلونه ضد الحرب المراكشية في ١٩٠٩ قد ضربت بقوة على وتر إقليمي معاد للاكليركية؛ حيث أُحرق عدد من رجال الدين.

ايرلندا

بينما كانت انكلترا والدول الاوروبية الكبرى في القارة توسع نطاق سيطرتها في مناطق من البسيطة لم تكن قد خضعت لها بعد، وتفعل ذلك دون رادع سوى مقاومة رمزية من قبل الحركات « الاشتراكية » في البلدان الامبريالية المعنية، كانت هناك حرب من أجل الاستقلال تُشن في عقر دار انكلترا، في ايرلندا، لدفع السيطرة الاستعمارية البريطانية عنها. وكان جيمس كونالي، قائد جناح الطبقة العاملة في هذه الحركة، واحداً من ألمع الاشتراكيين في هذه الحقبة. وكانت نظريته، حول ما يمكن أن نسميه قومية بروليتارية، مساهمة حقيقية في فهم العلاقات بين الاشتراكية والقومية. وفي حين كان موقف الفلاحين المضطهدين من المسائل القومية في أوروبا الوسطى مرتبطاً إلى حد كبير بالنزوع القومي لأسياد الأرض، كان الحكم البريطاني في إيرلندا ذا تاريخ طويل ونتائج مفجعة، بحيث أثار ضده سائر الطبقات الاجتماعية بحكم الضرورة. ومَن مِن هاته الطبقات يعاني أكثر من البروليتاريا المجاعات والاجور التي لا تسد الرمق؟

وقد قال كونالي ان السبب في عدم نجاح حركات التحرر الايرلندية في

القرن التاسع عشر إنما يعود إلى أنها افتقرت إلى دفع ديناميكي وواسع بشكل كافٍ . وعاد كونالي إلى الماضي ليستمد وحيه من حركة « وولف تون » في سبيل ايرلندا متحدة لعام ١٧٩٨ ، وإلى جون ميتشل الذي جـاء بعد « وولف تون » بخمسين عاماً . وقال أن وولف تون « رأى بوضوح ، كما نرى نحن ، أن سيطرة عميقة الجذور في أي بلد ، كالسيطرة البريطانية في ايرلندا ، لا يمكن أن تُقلب إلا بدفع ثوري متفق مع خط تطور العصر بكامله »[٤١] .

انتسب كونالي في العام ١٨٨٩ إلى « العصبة الاشتراكية » . وفي العـام ١٨٩٦ أسس « الحزب الجمهوري الاشتراكي الايرلندي » . وقد اعتبر نفسه على الدوام وطنياً ايرلندياً ، بيد ان نزعته الوطنية كانت تنطوي على فكرة المساواة الاشتراكية :

« تنشد النزعة الوطنية رفاهية كل واحد في إطار سعادة الجميع ، وهي لا تنسجم مع الرغبة الأنانية في الاستحواذ على ثروات هـذا العالم ، التي لا يمكن حيازتها إلا باستغلال المعدمين الآخرين . ان رسالة الطبقة العاملة هي اعطاء النزعة الوطنية هذا المغزى الأسمى والأنبل »[٤٢] .

كان كونالي قومياً متطرفاً أيام شبابه ، شأن الجلس . وخـلال تطور فلسفة كل منهما أصبحت الاشتراكية هي الحركة الأكثر أهمية . «نحن جمهوريون لأننا اشتراكيون» : هكذا كتب كونالي في العدد الأول من جريدة «جمهورية العمال » . وقـد أدرك إدراكاً تاماً أن من الممكن أن ينجم عن الاستقلال السياسي خضوع جديد لسلطة رأس مال أجنبي ، إذا لم يتم في الوقت ذاته

(٤١) كونالي ، صفحة ٤٠ — ٤١ .

(٤٢) المصدر السابق ، صفحة ٢٩ .

انتقال موارد البـــلاد إلى أيدي الشعب الايرلندي . وعداؤه للامبريالية الاقتصادية كان لا يقل شدة عن عدائه للامبريالية السياسية :

« إذا أبعدتم الجيش الانـكليزي غداً ورفعتم العلم الأخضر فوق قلعة دَبلن ، فإن جهودكم كلها ستذهب سدى ، ما لم تشرعوا ببناء « الجمهورية الاشتراكية » .

وستبقى انكلترا حاكمة عليكم . ستحكمكم من خلال رأسماليها ، من خلال سادة الأرض لديها ، من خلال أصحاب مصارفها، من خلال مجمل شبكة مؤسساتها التجارية والفردية التي زرعتهـــا في هذا البلد وروّتها بدموع امهاتنا ودماء شهدائنا ...

القوميـة دون الاشتراكية ، دون إعادة تنظيم المجتمع على أساس الملكية العــامة الأكثر شمولاً وتطوراً التي كانت مرتكز التركيب الاجتماعي في ايرلندا القديمة هي خيانة قومية فحسب »[٤٣] .

يصور المقطع الأخير مرحلة من تفكير كونالي يمكن اعتبارها أصيلة ، لكن من الصعب اعتبارها ناجحة ، ونعني محاولة بناء اشتراكية حديثة على أساس مشاعية قديمة يفترض انها ازدهرت في ايرلندا القديمة .

ان السبب الذي قاد كونالي إلى الاعتقاد ان الاشتراكية شرط ضروري للاستقلال القومي الحقيقي هو ، ببساطة ، اعتقاده أن ليس من طبقة غير الطبقة العاملة يمكن الوثوق بأنها ستقطع كل صلة مع السادة البريطانيين . فقد وجد أن الطبقة الوسطى كانت تربطهـــا ببريطانيا ألف رابطة ذات طبيعة اقتصادية ، لذا « فالطبقة العاملة الايرلندية هي وحدها التي ستكون وريثة ، لا يمكن إفسادها، للنضال التحرري في ايرلندا »[٤٤] . هذه الكلمات مطابقة تقريباً لما قاله انجلس في وصف الدور القائد الذي يجب أن تلعبه البروليتاريا

---

(٤٣) المصدر السابق ، ص ٢ و ٢٥ .
(٤٤) المصدر السابق ، ص ٢ ، أنظر أيضاً ص ١٧١ .

البولونية في النضال من أجل استقلال بولندا . وقد وجد كونالي أن من الممكن التعاون مع «سن فين» (جيمس غريفيث) و « حزب الحكم الذاتي » (جون ردموند) رغم اختلافه العميق معهما حول التكتيكات والأهداف النهائية . كتب في العام ١٩١٣ : « اننا نعلن للجميع اننا من دعاة « الحكم الذاتي » بوصفنا اشتراكيين . ولكن ما أن تصعد حكومة « الحكم الذاتي » إلى سدة الحكم، ستنتقل الحركة الاشتراكية في ايرلندا إلى صف المعارضة »[٤٥].

بقي كونالي اشتراكياً تطورياً خلال عدة سنوات . وأعلن في العام ١٨٩٧ أن لا علاقة له باشتراكية تأتي عن طريق الانتفاضة المسلحة ، ودعا إلى استعمال طريقة صندوق الاقتراع ، إذ ان نتائجها أفضل وإن كانت أبطأ .

وبعد عامين وصف في مقاله « إعادة فتح ايرلندا » كيف يمكن للعمال

« السيطرة على شؤون البلد وأعمالها وانتزاعها من أيدي الأفراد وتوظيفها في خدمة المؤسسات الشعبية الممثلة للشعب الايرلندي ... ومن خلال انتهاج هذه السياسة يمكن قلب سيرورة إخضاع ايرلندا.. هذا الطريق في تحويل البلد إلى الاشتراكية وإعادة الفتح التدريجية هذه لايرلندا سيدفعا الحكومة الرأسمالية الامبراطورية إلى معارضتهما وقطع الطريق أمام الهيئات الشعبية المعنية . وسترتفع عندئذ الطبقة العاملة من موقع الهيمنة المحلية إلى موقع الحزب المهيمن قومياً ، وستأخذ زمام المبادرة في القتال لأجل الاستقلال الكامل ، وهي التي كانت قد هيمنت على الحكم الداخلي في البلد »[٤٦] .

حتى ١٩١٤ لم يكن كونالي قد تبنى بعد الدعوة إلى استخدام القوة للسيطرة على السلطة . وقد كتب « إن القوة الوحيدة المتاحة للعامل هي القوة الاقتصادية ؛ وعندما يحل أوان السيطرة على زمام السلطة السياسية فإن

---

(٤٥) المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

(٤٦) المصدر السابق ص ٣٣ - ٣٤ .

ذلك سيأتي كنتيجة للغلبة السابقة على القوى الاقتصادية ، رغم ان الممارسة المستمرة للعمل السياسي يمكن ، ويجب ، أن تساعد على الانتصار »[٤٧] .

قضى كونالي عدداً من السنين في الولايات المتحدة، وكان من أوائل منظمي اتحاد « العمال الصناعيين في العالم »[٤٨] . وعاد إلى ايرلندا في العام ١٩١٠ وهو يتحدث بلغة نقابية ، ولكن في بعض النواحي فقط . وتضمنت هذه اللغة إدارة صناعات البلد بواسطة « اتحادات نقابية صناعية »[٤٩] في كل فرع من الصناعة ؛ كما انهـا حوت فكرة « الاتحاد النقابي الكبير الموحد » والاضراب تعاطفاً مع الآخرين ؛ وعندما تحدث عن الاممية استعمل تعابير باكونينية حقيقية، مثل « الاتحاد الحر لشعوب حرة »[٥٠] . لكن الاضراب العام الثوري والانتفاضة لا يندرجان في لغته هذه .

ان « جيمس لاركين » اشتراكي ايرلندي آخر له أهميته فيما يتعلق بموضوع دراستنا ، رغم أنه لم يكن نظرياً ولم يكتب سوى القليل في الصحافة العامة. كان لاركين ضخم البنية وخطيباً مفوهاً مما جعله يلقى كرهاً صريحاً من أرباب العمل ومن « آرثر غريفيث » قائد تنظيم البورجوازية المتوسطة « سن فين »، وذلك بسبب أسلوبه الفعال الذي نظم بواسطته عمال المرافىء . وعندما جاء إلى ايرلندا في العـام ١٩٠٧ بعد فترة شبابه التي قضاها في ليفربول ، حيث أصبح منظماً نقابياً ، وجد نفسه على رأس اضراب هام في مرفأ بلفاست . كانت القوة العمالية مؤلفة جزئياً من «الاورانجمان» ومن القوميين الايرلنديين . لكن بالرغم من محاولات أرباب العمل الرامية إلى قطف ثمار الريبة القومية في صفوف العمال ، فإن العمال الكاثوليك والبروتستانت قد وقفوا كتفاً إلى كتف خلال معظم فترة الستة أشهر . ولو أن الروح نفسها ، التي أظهرتهـا

---

(٤٧) المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(٤٨) المصدر السابق ، ص ٥٧ .

(٤٩) فوكس ، ص ١٣٤ و ٧٤ .

(٥٠) كونالي ، صفحة ١١ و ١٢ ؛ فوكس ص ٧٤ .

آنذاك حركة العمال المنظمين ، قد نفذت إلى الحياة العامة عموماً ، لأمكن تفادي تقسيم ايرلندا . ولا يزال البعض يعتقد انه كان ممكناً تحقيق النصر لو أن « الاتحـــاد الوطني لعمال النقل » دعم الاضراب بقوة . لكن تضامن العمال البروتستانت والكاثوليك لم يدُم . وانقسمت كل من الحركتين السياسية والعمالية . وركزت فروع « حزب العمال المستقل » في بلفاست اهتمامها على ملكية البلديات للخدمات العـامة (وقد أُطلق في انكلترا على هذه السياسة اسم « اشتراكية المجارير » استخفافاً) ، وبقيت هذه الفروع بعيدة بعض الشيء عن الحزب الاشتراكي الايرلندي .

وعارض جيمس ساكستون ، السكرتير العـــام « للاتحاد النقابي للنقل وعموم العمال » في انكلترا الأماني القومية الايرلندية . وانتهت مرحلة طويلة من الاحتكاك المتزايد بينه وبين لاركين إلى نقطة الانقطاع . فنظم لاركين نقابة جديدة، «الاتحاد النقابي للنقل وعموم العمال الايرلندي»، وجعل مركزها دبلن ، وارتدت منذ البداية لوناً قومياً متطرفاً . وقادت في العـام ١٩١٣ إضراباً تاريخياً في دبلن بقيادة لاركين من أجل الحصول على الاعتراف، وقد استمر هذا الاضراب ثمانية أشهر ، نظم كونالي خلالهـا « الجيش الشعبي » كقوة من العمال المتطوعين . ودعم هذا الاضراب مثقفون ، بل العديد من البريطانيين ، بيد ان لاركين (الذي طاف في انكلترا لجمع الأموال من أجل الاضراب ، وحصل عليها فعلاً) لاقى صمتاً أصم عندما حاول عرض المطالب القومية الايرلندية .

وذهب لاركين إلى الولايات المتحدة وزجّ نفسه في أعمـال « عمال العالم الصناعيين » .I.W.W كما فعل كونالي من قبل . ولم يكن ثمة تعارض بين النزعة المعادية للقومية عند « عمال العـالم الصناعيين » وبين النزعة القومية الايرلندية عند كونالي ولاركين ، وذلك لأن الأولى كانت موجهة ضد القومية الامبريالية الأميركية والبريطانية وليست ضد المشاعر القومية الصاعدة في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة .

وخلف كونالي لاركين في قيادة نقابته . وكان شخصية معروفة بشكل واسع أيضاً في مجالس العمال والأممية الاشتراكية (الثانية) ، حيث التزم صف مجموعة الجناح اليساري . وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى ، وضع ردموند خدمات « حزب الحكم الذاتي » بتصرف البريطانيين ، في الظاهر ، لكن كونالي دعا العمال الايرلنديين إلى الثورة ضد الحرب ، وفي ٢٢ آب ١٩١٤ كتب في المجلة السكوتلاندية « إلى الأمام » قائلاً :

« إن حرب شعب مُخضع من أجل الاستقلال ، من أجل حقه في أن يعيش حياته الخاصة ، يمكن ، وفي الاستطاعة ، تسويغها كأمر مقدس مبرر أخلاقياً ؛ إن حرب طبقة مُخضعة لتحرير نفسها من ظروف العبودية الاقتصادية والسياسية المهينة يجب أن تختار سلاحها الخاص في جميع الظروف ... لكن حرب أمة ضد أمة لمصلحة قطّاع الطرق الملكيين واللصوص الكوسموبوليتيين هي أمر لعين»[٥١].

والواقع ان كونالي ، شأن لاركين ، كان يأمل ويتوقع أن ينهض العمال ضد الحرب ، بل ربما استطاعوا وقفها . وكان معجباً إلى حد كبير بكارل ليبكنخت لمقاومته الجريئة اشتراك المانيا في الحرب . ولم ير ان ثمة انقساماً أو اختلافاً ايديولوجياً بين الدول الامبريالية الكبرى وأوصى بمقاومة الحرب لا في ايرلندا فحسب ، بل في سائر أنحاء العالم .

وفي الشهور التي تلت ذلك ، سار كونالي في نفس الطريق الذي سار فيه لينين في سعيه إلى انهاء الحرب الامبريالية وإحداث حرب أهلية . وجرّ معه الأجنحة النقابية والسياسية في الحركة الايرلندية . كان لينين ، بمعرفته الواسعة وقدرته التنظيمية العظيمة ، منظّر هذه المدرسة ، لكن كونالي سبق تفكير لينين في بعض الأحيان بصيغ أنضجها بنفسه . استخدم لينين في البداية شعار « حولوا الحرب الامبريالية إلى حرب أهلية » في ١ تشرين الثاني ١٩١٥ ،

---

(٥١) فوكس : « جيمس كونالي : الرائد » ، ترالي ، ١٩٤٦ ، صفحة ٢٣٩ .

وكان كونالي قد كتب في آذار من تلك السنة في «مجلة الاشتراكية الأممية» :

« إن اشارة إشعال الحرب كان ينبغي أن تكون اشارة تفجير التمرد ... وعندما نفخت في الأبواق أولى نغمات الحرب ، كان واجباً اعتبار هذه النغمات ناقوس الثورة الاجتماعية .. إن حرباً أهلية كهذه ما كان يمكن أن ينتج عنها خسارة بالنسبة إلى الحياة الاشتراكية كتلك التي أدت إليها هذه الحرب العالمية [٥٢] .

إن « مؤتمر الاتحادات النقابية الايرلندية » ، دون سائر الحركات النقابية في أوروبا الغربية ، هو وحده الذي وصم الحرب الاوروبية بوصفها « حرباً من أجل تضخيم الطبقة الرأسمالية » . وكان الروس والصرب هم وحدهم ، دون سائر الأحزاب الاشتراكية الأوروبية ، الذين اتخذوا عين الموقف الايرلندي . وكانت الحركة القومية الايرلندية قد شرعت تضع موضع التنفيذ في العام ١٩١٥ السياسة التي دعا إليها مؤتمر « زيمر فالد » في تلك السنة :
« الآن يجب أن تقفوا مدافعين عن قضيتكم ، من أجل الأهداف المقدسة للاشتراكية ، **من أجل تحرير الامم المضطهدة** ومن أجل الطبقات المستعبدة سواء بسواء ، بواسطة الصراع الطبقي البروليتاري الذي لا يلين) [٥٣] .

لقد أضحى واضحاً أمام كونالي أن انتفاضة مسلحة تقدم الفرصة الأفضل من أجل استقلال ايرلندا . لكنه سعى ، عندما تحقق له أن العمال لا يستطيعون العمل وحدهم ، إلى تأليب جميع المعادين للامبريالية تحت علم واحد . ونوه بمفهوم « الجبهة الوطنية » التي تضم سائر الطبقات المستعدة للقتال ضد الحاكم الأجنبي من أجل التحرر القومي ، وقدر ان انتصار هذه الجبهة سيؤدي إلى اقامة حكومة قومية ثورية .

كان كونالي قد شطب العماليين البريطانيين من حسابه لأسباب عملية .

---

(٥٢) دسموند غريفز : « حياة جيمس كونالي وعصره » ، لندن ١٩٦١، ص ٢٨٥.
(٥٣) المصدر السابق .

فبعد فترة وجيزة من اندلاع الحرب ، قُدمت إلى مجلس العموم لائحة تقضي باجراءات قمعية جديدة في ايرلندا ، جعلت من الممكن إنزال أحكام الأعدام بواسطة محاكم عرفية . فقال كونالي عندئذ أن الأعضاء العماليين البريطانيين هم « أكثر استعداداً ، كشأن سائر المرتدين ، لطعن وتحطيم جميع هؤلاء الذين بقوا مخلصين لمثـــال الحرية الديمقراطية ، الذي خانوه وارتدوا عنه »(٥٤) . كان ماركس قد دعا العمال في الامم المستعمرة والمضطهدة إلى العمل جنباً إلى جنب مع بروليتاريي البلدان الامبريالية والسير في ركابهم . إلا أن منطق الأحداث وموقف العمال الانكليز أنفسهم قد أملى على كونالي سياسة مختلفة؛ وفي النهاية أصبح رأي كونالي الرأي المقبول في العـــالم الخاضع للسيطرة الكولونيالية وفي النظرية الماركسية أيضاً .

ورتب كونالي ، في تحضيره الانتفاضة المسلحة التي كان ينظمهـــا ، أمر الدمج بين « الجيش الشعبي » و « المتطوعين » . واشترك في هذه الانتفاضة الفاشلة ، وأُلقي القبض عليه وأُعدم رمياً بالرصاص . وما زال يُنظر إليه ، منذ ذلك الحين ، نظرة إجلال واحترام بوصفه شهيد القضية القوميـــة الايرلندية . وما تزال المناقشات مستمرة حول ما إذا كان قد أعطى الأولوية في تفكيره للثورة القومية أم للثورة الاشتراكية. وقد انتهت إحدى الدراسات القريبة العهد إلى انه

« كان ميالاً في البداية إلى جعلهما متطابقتين . وميز فيما بعد بينهما قائلاً انهما الوجهان السياسي والاقتصادي لسيرورة أو لعملية واحدة. وتوصل في النهاية إلى الاستنتاج انهما مرحلتان في إعادة تنظيم المجتمع تنظيماً ديمقراطياً ، وأن كل مرحلة تستدعي تغييرات اقتصادية يعتبر تعزيزها هو المهمة السياسية »(٥٥) .

---

(٥٤) كونالي ، ص ١٨١ .
(٥٥) غريفز ، ص ٣٤٢ .

إن « المرحلة الأولى من الحرية » تتطابق ، في رأي كونالي ، مع الفترة التي تلي مباشرة نجاح الثورة القومية ، التي يتم الوصول إليها عبر تحالف الطبقات . وستكون تلك مرحلة ديكتاتورية ، يجري خلالها ، قمع الامبرياليين وأعمالهم دونما شفقة ، ولكن هذه المرحلة لن تكون مرحلة دكتاتورية البروليتاريا . في « المرحلة الأولى من الحرية » سيسمح ، في رأي كونالي ، للرأسماليين الذين شاركوا في الحركة القومية بالحفاظ على رؤوس أموالهم[٥٦] . أما العمال فسيكونون « في الطابق الأرضي » ، مشاركين في الحركة القومية وساعين دوماً إلى قيادتها . ورفض كونالي الفكرة التي حمل لواءها بعض معارضيه والقائلة أن واجب التقدم في سبيل الاشتراكية أمر منفصل عن حركة التحرر القومي . ونلاحظ هنا تمايزاً حقيقياً بين فكر كونالي وفكر لينين ، ذلك ان لينين استنكر اشتراك العمال في حركات قومية انفصالية باعتبار ان البورجوازيين هم قادة هذه الحركات ، وان العمال سيقعون ، عند اشتراكهم في هذه الحركات ، تحت نفوذ البورجوازيين ؛ أما كونالي ، الذي لم يشك البتة في انتصار الحركة القومية ، فقد قدّر أنه سيكون خطأ مميتاً بالنسبة إلى البروليتاريا الثورية أن تركز اهتمامها حصراً في الدعاية الاشتراكية وتسلم قيادة النضال القومي إلى البورجوازيين[٥٧] . هذه المسألة بالذات كانت قد برزت وطرحت على الحركات العمالية والاشتراكية في أوروبا الشرقية وحمى وطيس الجدل حولها ، حيث أُدين قرار قوميي الجناح اليساري الخاص بالاشتراك في التنظيمات الانفصالية الخاصة بالطبقة الوسطى ، لكن هذا القرار ما لبث أن نال التأييد في الدوائر الماركسية .

لقد لقيت أنباء الانتفاضة الايرلندية وقمعها ، في العام ١٩١٦ ، ردود فعل مختلفة لدى الماركسيين في البلدان الأخرى . وهاجم بعضهم كونالي لكونه

(٥٦) المصدر السابق ، ص ٣٤٤ .

(٥٧) المصدر السابق ، ص ٣٤٣ .

« ابتعد عن الاشتراكية » في سبيل القومية . واتفق الجميع على أن الانتفاضة كانت سابقة لأوانها. لكن لينين هو الذي برهن على العظمة عندما رفض أن يدين أو يلوم المشتركين فيها، شأن ماركس بالضبط الذي رفض أن يدين المشتركين في كومونة باريس . لقد رأى لينين بوضوح ان تلك كانت واحدة من الحالات اشتعلت فيها « نيران الانتفاضات القومية في المستعمرات وفي أوروبا لمناسبة نشوب أزمة الامبريالية » . و « ان مصيبة الايرلنديين انهم تمردوا وثاروا في فترة غير مناسبة، في فترة لمّا تنضج فيها ثورة البروليتاريا في أوروبا». وتابع قائلاً :

« من تجارب الحركات الثورية الخاصة ، المجزأة ، التي تنشب في غير أوانها ، والتي فشلت لهذا السبب – من هذه التجارب وحدها تكتسب الجماهير الخبرة اللازمة ، وتتعلم ، وتحشد قواها ، وتعرف زعماءها الحقيقيين ، البروليتاريين الاشتراكيين، وتهيء على هذا النحو الهجوم العام ، كما هيأت الاضرابات المنفردة والتظاهرات في المدن وفي عموم البلاد وأعمال التمرد في الجيش والانتفاضات الفلاحية الهجومَ العام سنة ١٩٠٥ »[٥٨] .

اليابان

في العالم كله ، صارع الماركسيون في أخذ وردّ ، خلال العقد الذي سبق الحرب العالمية الأولى ، مسألة أين ينبغي أن يتجه ولاؤهم الأول : مع الوطن أم مع حركة الطبقة العاملة الأممية ؟ وقد كتب « سِن كاتاياما » ، رائد الماركسية اليابانية الذي قضى سنين عديدة في الخارج ، حول الحرب الروسية اليابانية في ١٩٠٤، فقال أنه كان يعارض الحرب منذ البداية، وأقام اجتماعات ضد الحرب عندما كانت حمى الحرب في أوجها . وقال أيضاً أن

---

(٥٨) لينين : « المؤلفات المختارة » ، الأنترناشيونال ، ١٩٤٣ ، مجلد ٥ ، ص ٣٠٦ .

الطبقة العاملة تخسر كل شيء من جراء الحرب ولا تربح شيئاً ؛ فلماذا يطلقون النار على اخوانهم الروس ؟ وأضاف قائلاً :

« انني أعارض الحرب ، لكنني كياباني لا أريد أن أُقْهَر على يد روسيا التي عاملت اليهود في الماضي كما في « كيشينيف » ، وما زالت تعامل الفنلنديين بأشد الأساليب وحشية ، فضلاً عن انها قد قتلت بالرصاص العديد من العمال خلال الاضرابات »[٥٩] .

لقد كتب كاتاياما « كياباني » بَرِماً مغاظاً من نفسه .

الأممية الثانية

لم يكن من المتوقع أن يصدر عن « الاممية العمالية والاشتراكية » (الثانية) موقف محكم ومعقول حول المسائل المتعلقة بالقومية ، خاصة وأن مندوبيها قد جاؤوا من أحزاب هي أحزاب ذات انتماء قومي معين قبل كل شيء ، وربما كان منتظراً منها أن تدافع في الاجتماعات الاممية عن مواقف البلدان التي تنتمي إليها . لقد كان أمراً معتاداً أن تأتي المقررات المتخذة تعبيراً عن تسويات . وكانت المناقشات ، التي تدور في الجلسات المفتوحة ، شكلية أحياناً ، وتدور بعد الاتفاق على الموقف الحقيقي في اللجان وراء أبواب مغلقة ، في جلسات لم تُحفظ سجلاتها في غالب الأحيان . ولما كانت « الأممية » لا تتمتع بسلطة ، لذا وُجد من يقاطع جلساتها .

ومع ذلك فإن المواقف التي تُقرها كثيراً ما كانت متقدمة على مواقف أكثرية البلدان . وكان بعض القادة ، من الجناح اليساري بخاصة ، (لينين ، وآخرون) ، يعلقون أهمية كبرى على جلسات « الأممية » فبذلوا جهوداً كبيرة لدفعها إلى اتخاذ موقف صحيح .

---

(٥٩) سن كاتاياما : « موقف الاشتراكيين اليابانيين من الحرب الحالية » ، المجلة الاشتراكية الاممية ، شيكاغو ، مجلد ٤ ، آذار ١٩٠٤ ، ص ٥١٣ — ٥١٤ .

لقد اتخذت « الأممية الثانية » مقررات ضد النزعة العسكرية في مؤتمراتها المنعقدة في الأعوام ١٨٨٩ ، و ١٨٩١ ، و ١٨٩٤ . وفي مؤتمر ١٨٩٦ ، الذي انعقد في لندن، اتُّخذ قرار حول الكولونيالية كتب مسودته مندوب انكليزي ذو نزعة سلمية مسيحية ، هو « جورج لانسبوري » . وجاء في القرار : « أياً كانت الذرائع الدينية أو التأثيرات التمدينية للسياسة الكولونيالية ، إلا أن هدف هذه السياسة كان على الدوام توسيع حقل الاستغلال الرأسمالي ، لصالح الرأسماليين وحدهم »[٦٠] . كما اتخذ هذا المؤتمر موقفاً مؤيداً لحق الشعوب في تقرير مصيرها ، كمبدأ عام .

وتبنى المؤتمر التالي ، الذي انعقد في باريس عام ١٩٠٠ ، إدانة شديدة للكولونيالية . وقد أكد مقرر لجنة شؤون المستعمرات، الهولندي فان كول، انه لا يمكن فصل الكولونيالية عن الرأسمالية في مرحلتها الحالية ، ودعا إلى العمل لتحسين أحوال المستعمرات . ولم يكتف القرار المُتبنى بتكرار مبدأ ١٨٩٦ ، الذي قطع بأن الغرض من حيازة المستعمرات هو زيادة أرباح الرأسماليين ، بل دعا العمال في كل مكان إلى النضال ضد الكولونيالية . وتم لأول مرة ربط الكولونيالية بالنزعة العسكرية ، وحثّ العمال على محاربتهما أيضاً[٦١] .

وفي هذا المؤتمر ، مؤتمر باريس، خُصّ البريطانيون وحدهم بادانة تناولت الطريقة التي خاضوا بها حرب البوير ، التي كانت رحاها تدور آنذاك . فجمع هيندمان وكويلش ، المندوبان البريطانيان ، ملفاً حول البلدان الأخرى وقدماه إلى مجلس « الاممية » بعد المؤتمر ، مطالبيْن بادانة سائر السياسات الامبريالية التي تمارسها « جميع البلدان الأوروبية المتمدنة بما في ذلك الولايات المتحدة » . وقد تم لهما ذلك بالفعل[٦٢] .

---

(٦٠) براونتول ، مجلد ١ ، ص ٣١١ .
(٦١) ريبيرو وهوبت ، مصدر مذكور قبلاً ، ص ١٠ – ١٤ .
(٦٢) بيلي ، ص ٤٩ .

في مؤتمر باريس ، تباين موقف فان كول الأبوي عن إدانة هيندمان المبدئية للكولونيالية ، ودعي كلاهمـــا إلى تحضير تقارير لمؤتمر أمستردام في ١٩٠٤. ومع ذلك فقد خاب أمل هؤلاء الذين توقعوا مناقشة هامة حامية في قاعة المؤتمر ، كما خاب أمل الذين توقعوا قراراً شديد اللهجـــة . فلم يقم المؤتمر بتحليل أساسي للمسألة الكولونيالية، ولا للنزعة العسكرية أو الصناعية بوصفهما من أسباب الكولونيالية، بل فشل في أن يتخذ موقفاً من مسألة كانت تناقش بشكل واسع ، مسألة ما إذا كانت الكولونيالية نافعة لسكان البلدان المعنية. وسجل المؤتمر سابقة هامة تمثلت بدعوة ممثل دولة مستعَمرة (الهند) إلى الحديث في المؤتمر . وفيما عدا ذلك ، جاءت إدانـــة مؤتمر أمستردام للكولونيالية بنفس اللهجة تقريباً التي أدينت بها في العام ١٩٠٠[٦٣] .

إلا أن الانتفاضات في المستعمرات، وفضح شرور الكولونيالية ، بالاضافة لى الأزمة المراكشية عام ١٩٠٥ ، قد أبرزت المسألة الكولونيالية وطرحتها وسلطت عليها الأضواء في العام ١٩٠٧ . وفي شتوتغارت لم تكن « الأسمـاء الكبيرة » في عداد اللجنة الخاصة بشؤون المستعمرات ، التي قدمت تقريراً يؤيد سياسة كولونيالية « إيجابية » ، أي القبول بالكولونيالية . وقد قدم ليدبور تعديلاً لاقتراح اللجنة يعيد تأكيد معارضة المؤتمر للكولونيالية، فنجح في التصويت العام للمؤتمر بأغلبيـــة ١٢٧ صوتاً ضد ١٠٨ * ، بفضل أصوات ممثلي البلدان التي ليس في حوزتهـــا مستعمرات ؛ وكانت غالبية أصوات الفرنسيين والانكليز ، وجميع أصوات الالمان والهولنديين والبلجيكيين، تؤيد تقرير اللجنة . ويبدو أن تصويت وفود البلدان أو بعضهـــا كان يجري على أساس الوحدات الكاملة (أي أن يصوت وفد كل بلد كوحدة كاملة ، وان

---

(٦٣) ريبيرد وهوبت ، ص ١٠ — ١٤ .

* يقول لينين أن الأصوات كانت ١٢٨ ضد ١١٠ ، مع امتناع ١٠ . الأصوات المعطاة أعلاه مأخوذة عن براونتول .

اعترض أحد أعضائه) ، ذلك أن ليديبور وكاوتسكي ، الالمانيين ، قد قادا الهجوم ضد تقرير اللجنة .

وكان أقصى اليمين ممثلاً بالدكتور دافيد من المانيا . وكان يقول أن لاوروبا رسالة تمدينية ، فضلاً عن أنها بحاجة إلى المستعمرات . وفي الوسط كان يقف فان كول والبلجيكيون وجوريس، الذين ساعدهم برنشتاين ورينو وفاندرفيلد وماكدونالد . لقد كان هناك خلافات فيما بينهم : كان دي لافونتين وجوريس يحلمان بادارة أممية المستعمرات ، الأمر الذي لم يقبله فان كول وبرنشتاين . ولم يكن ثمة اتفاق حول ما إذا كانت المستعمرات تفيد كل ما في بلدان أوروبا الغربية أم الرسماليين فقط . واعتقد جميع الوسطيين أن الكولونيالية أمر واقع ، وأن محاربتها لا جدوى منها . فأدانوا جميعاً « البربرية الكولونيالية » وحسب ، ولكنهم لم يعتقدوا أن الشعوب المستعمرة يجب أن تعامل كما يعامل الأوروبيون .

وأصدر كاوتسكي ودافيد دراسات مطولة حول الموضوع بعد المؤتمر . وقد أرسى كاوتسكي حجته على أسس أخلاقية ، بشكل أساسي ؛ كما أكد أن الكولونيالية ليست دافعاً من أجل التقدم(٦٤) . وقال أن الكولونيالية لا تساهم في الحقيقة في تنمية قوى الانتاج ولا وسائل الانتاج ؛ بل على العكس ، فهي تستخدم مختلف أشكال العمل القسري والنهب كوسائل في أشكال التراكم والانتاج الأكثر بدائية . السلالة البشرية واحدة؛ والاشتراكية والديمقراطية أمران صحيحان بالنسبة إلى المستعمرات أيضاً . وقد عبر لينين عن تأييده هذا الرأي تأييداً كاملاً .

لم يقدم الوسط أو اليمين أي تحليل اقتصادي متماسك على الاطلاق. ووجه اليسار اهتمامه إلى ولادة حركات المقاومة في البلدان المستعمرة ، وساعدت

---

(٦٤) المصدر السابق، صفحة ١٧ – ٢٢ ، نقلاً عن كاوتسكي : «الاشتراكية والسياسة الكولونيالية»، برلين ١٩٠٧ . ولينين في : « البروليتاري » ، ١٦ تشرين الأول ١٩٠٨ .

الاممية بالذات على بناء حركات من هذا النوع في بعض تلك البلدان . «لا شك في أن الحركة الاشتراكية الاندونيسية قد رأت النور في هذا المنـــاخ من نمو الحركة القومية كما كان الأمر في ايران والصين أيضاً » .

قال البعض انه حتى عندما كانت الاممية تصوت إلى جانب قرارات عالية الضجيج ضد الكولونيالية، فإن أفعالها بقيت دائماً ذات نزعة سلمية وليبيرالية وإنسانية [٦٥] . إن هذه الصيغة تخطيء في نقطتين . ففي المكان الأول ، لم تتخذ « الاممية » أي إجراء ضد الكولونيالية . وفي المكان الثـــاني يوحي الكاتبان أنهناك نوعاً من التضارب أو عدم الانسجامبين النزعتينالراديكالية والانسانية ، بينما الحقيقة هي أن الاشتراكية الراديكالية (الماركسية الثورية) قد كانت إنسانية على الدوام في فلسفتها الأساسية [٦٦] .

لقـــد اقترح بيبل في العام ١٩١٢ في مؤتمر « بال » مشروع قرار يتعلق بالخطوات الواجب اتخاذهـــا من أجل منع وقوع الحرب . واحتوى تعديل اقترحه روزا لوكسمبورغ ولينين ومارتوف المقطع التالي :

« إذا اندلعت الحرب فإن واجب الطبقة العاملة وممثليها البرلمانيين في البلدان المعنية ، الذين يتدعم موقفهم بما يقوم به مجلس الاممية من نشاط تضامني،هو بذل كل مجهود لمنع اندلاع الحرب بواسطة الوسائل التي يعتبرونهـــا الأكثر فعالية والتي تتنوع بالطبع حسب تنوع الصراع الطبقي والوضع السياسي العام .

وعلى كل حال ، إذا اندلعت الحرب فإن واجبهم يقضي بالتدخل في سبيل انهائها بسرعة وبالقيام بكل مـا بوسعهم من أجل استخدام الأزمة الاقتصادية والسياسية التي تسببهـا الحرب لتحريض الشعوب وبالتالي إزالة الحكم الطبقي الرأسمالي » .

---

(٦٥) ريبيريو وهوبت ، ص ٢٣ ، ٣٣ — ٣٧ .

(٦٦) دونالد كلارك هودجز : « مساهمات ماركس في النزعة الانسانية » ، مجلة « العلم والمجتمع » مجلد ٢٩ ، عدد ٢ ، ربيع ١٩٦٥ ، ص ١٧٣ — ١٩١ .

ربما اعتبر اليسار هذا الكلام التزاماً بتحويل الحرب الامبريالية إلى حرب طبقية ، لكن الأمر لم يكن كذلك ، كما يشير مشروع القرار ، والتعديل المدخل إليه ، اللذين تم تبنيهما بالإجماع .

لقد حوت « الاممية » عناصر كانت تعمل من أجل اعتبار الاشتراك في حرب دفاعية أمراً منسجماً مع مبادىء الاشتراكية . ولم تقيَّم الثغرات في هذا الموقف على نحوٍ موازٍ لاهميتها، وأقرَّ مؤتمر الاممية في كوبنهاغن في العام ١٩١٠ حق الدفاع القومي ضد هجوم ما .

وفي جميع البلدان الأوروبية ، أصبحت القومية أسلوباً في الحياة، بالنسبة إلى الطبقة العاملة وبالنسبة للآخرين سواء بسواء ، ووصل ذلك إلى درجة أن العمال الذين كانوا يتكلمون أممياً قد مارسوا القومية كأمر طبيعي. والاستثناءات الوحيدة كانت تتصل ببعض ذوي النزعة السلمية الكاملة (ولا يجب الخلط بينهم وبين أصحاب النزعة السلمية في الجناح اليساري الذين أحجموا عن تأييد الحرب) وفرقة صغيرة من الثوريين الذين لم يترددوا في الوقوف إلى جانب هزيمة « الوطن » الامبريالي ، باسم الاشتراكية الاممية .

٦

ماركسية اوروبا الشرقية والدولة متعددة القوميات

لم يكن اللورد آكتون ، كما أشرنا قبلاً ، هو وحده الذي لاحظ ، في الستينات من القرن التاسع عشر، النزاع المحتمل بين المطالب القومية والمطالب الديمقراطية . فقد شاركه في ذلك كتّاب من أوروبا الشرقية أيضاً ، أحدهم هو « بيرنهارد بيكر» الذي أصدر كتاباً اسمه « سوء استعمال علم القوميات » ، في أواخر الستينات من القرن التاسع عشر .

لقد ذكر بيكر ان التقدم الانساني قد خطا إلى الأمام عندما تحررت هولندا ، باستخدامها مبدأ القومية ، من السيطرة الاسبانية في القرن السابع عشر . كانت القومية إبان الثورة الفرنسية وبُعيدها حركة شعبية وديمقراطية . بيد أن القومية ، التي حاول اللاجؤون اليونانيون والبولونيون والايطاليون استخدامها بمثابة مبدأ موحّد ، استطاعت أن تعبر الخطوط الاشتراكية والاجتماعية الأخرى، فساعد هذا الأمر في خلق ارتباك وتشويش. قال بيكر : « القومي هو لا عقلاني » . لذلك لم يستطع الديمقراطيون الأوائل أن يدركوا أن المبدأ القومي يمكن أن ينقلب ضدهم تحت تأثير القيصر الروسي والرجعيين الآخرين ، كما حصل فعلاً في السنوات الثلاثين التي

أعقبت الثورة الفرنسية . وانتهى بيكر إلى الاستخلاص التالي : « إن الإيمان بالمبدأ القومي ليس سوى عاطفية وخرافـــة » . وأنذر بيكر بموت بعض « الدول المتوارثة » التي لا تسمح اقتصادياتها المحدودة وشكل الحكم فيهـــا ببناء دولة قابلة للحيـــاة والنمو إلا إذا اندمجت بمعاهدة ما غير متكافئة مع دولة أوسع . لقد توقع ماركس وانجلس تلك المخاطر ، كما أدركا مخاطر المبدأ القومي في تطبيقه في نزعة الجامعة السلافية القيصرية . غير أن حلّهما للمشكلة النمساوية – المجرية كان وهمياً ومصطنعاً ، شأن فكرة بيكر، حتى في الوقت الحاضر ، القائلة بإعادة تنظيم أوروبا في دولة واحـــدة ، أو ثلاث دول على الأكثر [1] .

وأياً كانت صيغة التعريف الذي نعطيه للقومية ، فلا بد لنا من الاعتراف ان أي خريطة تُرسم لأوروبا الشرقية والوسطى ستجعل عدداً كبيراً من أبناء قومية ما واقعين في أراضٍ تابعة لقومية أخرى . والتأكيد على ولاء الانسان لقوميته بدلاً من ولائه للسلطة السياسية (وهذه نقطة رئيسية عند بيكر) لا بد أن يخلق الانقسام في الوقت الذي يفترض فيه خلق الوحـــدة . وان أقوى المدافعين عن المبدأ القومي ليسوا مهيئين لتقديم إجابـــة أو حل لهذا النزاع ، ولا للصعوبة المتمثلة في كون التمايزات القومية هي في غالبيتها تمايزات طبقية . وفي الحالة الأخيرة فإن إعادة رسم الحدود بين الخطوط القوميـــة قد تجلب الكوارث للطبقة الحاكمة ، كما أنها قد تجلب ، بالمقابل ، الكوارث لبعض الطبقات الأخرى كالفلاحين والعمال في حال سيطرة العناصر الرجعية على السلطة .

روزا لوكسمبورغ ومسألة تقرير المصير البولونية :

لقد كان هـــذا الحرج الأخير وارداً في ذهن روزا لوكسمبورغ عندما

---

(١) برنارد بيكر : « سوء استعمال علم القوميات » ، الطبعة الثانية ، فيينا ١٨٦٩ ، ص ٨ .

اتخذت ، في التسعينات من القرن التاسع عشر ، موقفاً معارضاً لمبدأ تقرير المصير . لقد توقعت روزا أن تسيطر البرجوازية الرجعية والملاكون العقاريون على بولونيا في حال حصولها على الاستقلال .

كانت المسألة البولونية قد تغيّرت نوعاً ما ، بشكل فعلي ، منذ منتصف القرن التاسع عشر ؛ إذ ظهرت بشكل ملحوظ طبقة بروليتارية مدينية في المدن الآخذة في الاتساع . إن بولونيا الروسية كانت أكثر المناطق تصنيعاً في الامبراطورية الروسية . لقد أدرك انجلس هذا التغيير عندما كتب قائلاً في مقدمة الطبعة البولونية الثانية من « **البيان الشيوعي** » عام ١٨٩٢ : « إن العمال في كل أرجاء أوروبا يريدون استقلال بولونيا تماماً كما يريده العمال البولونيون ... إن الطبقة العاملة البولونية الناشئة هي وحدها القادرة على إعادة تكوين بولونيا من جديد ، وفي يدها وحدها مفتاح الخلاص » . وفي شهر شباط من عام ١٨٩٦ ، عقد في لندن احتفال تذكاري برئاسة إدوارد آفلينغ وبحضور كل من م . بيبر وتوم مان وادوارد برنشتاين وإيليانور ماركس – آفلينغ ، وتبنى المجتمعون حلاً بنفس المعنى ، وبنفس الكلمات تقريباً[٢] .

وفي أثناء ذلك ، أعاد فريق من الاشتراكيين البولونيين ، بما فيهم روزا لوكسمبورغ ، تقييم مسألة استقلال بولونيا مستنتجين بأنه يمكن خدمة مصالح وحقوق البروليتاريا بشكل أفضل في حال بقاء بولونيا غير مستقلة ولكن متمتعة بالاستقلال الذاتي كمقاطعة من مقاطعات روسيا . ونُشرت آراء هذا الفريق على لسان روزا لوكسمبورغ في مقالين نشرا في مجلة «العصور الحديثة».

قالت روزا : إن البرجوازية البولونية بالرغم من سيطرتها الاقتصادية ، وبالرغم من أنها قد تكون قادرة على استلام السلطة في ظل بولونيا المستقلة ،

---

(٢) س . هيكر ، « العصور الحديثة » ، شتوتغارت، المجلد ١٤ ، عدد ٢ ، ١٨٩٥-١٨٩٦ ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٨ .

لا تحبذ الاستقلال لأن علاقاتها الاقتصادية مع روسيا والمانيا والنمسا كانت ، بالنسبة إليها ، أكثر أهمية من علاقاتها الاقتصادية في بولونيا المستقلة . وكذلك الأمر بالنسبة لكبار الملاكين العقاريين في غاليسيا الذين لا يريدون الاستقلال خوفاً من سيطرة البرجوازية في ظل بولونيا المنفصلة . وعلى هذا ، فإن أكثر الطبقات أهمية من الوجهة الاقتصادية لا تحبّذ الاستقلال ، وهـذا سيؤدي ، بدوره ، إلى تراجع في الاقتصاد وتراجع عام(٣) .

كان الاشتراكيون الديمقراطيون البولونيون قد انشقوا حديثـاً عن الأحزاب الديمقراطية الاشتراكية في البلدان المسيطرة على بولونيـا وأنشأوا الحزب الاشتراكي البولوني الذي كان استقلال بولونيا بنداً رئيسياً في برنامجه . وكانت مجموعة روزا لوكسمبورغ قد انسحبت من الحزب الاشتراكي البولوني مؤكدة أن التشديد على القومية سيدفع العمال إلى الاعتقاد بأن استغلالـهم وأوضاعهم السيئة ليست وليد النظام الرأسمالي ، بل نتيجة الطابع القومي لمضطهديـهم . وفي النمسا ، حيث يتمتع البولونيون بالاستقـلال الذاتي ، سيؤدي تحريك الحزب الاشتراكي البولوني الشعورَ الوطني إلى إضعاف الاهتمام بالتحريض الاجتماعي وتقسيم قوى البروليتاريا بالتالي . وأضافت روزا : إذا كانت البروليتاريا البولونية قوية بالقدر الكافي لإعادة بناء بولونيا ضد الأحزاب الثلاثة المعارِضة في البلد ، فإن باستطاعتها تحقيق الاشتراكية كذلك(٤) .

إن تحليل روزا لوكسمبورغ للتركيب الطبقي في بولونيا في العام ١٨٩٠ أمر بالغ الأهمية بالنسبة لموضوعنا هذا . كتبت :

« إن تحرير الأقنان عام ١٨٦٤ قد قطع الطريق أمام التحريض القومي للنبلاء البولونيين ، حيث كان بمقدورهم الاعتماد على دعم الأقنان لهم ضد القيصر ما داموا يرون في استقلال بولونيـا طريقاً

---

(٣) روزا لوكسمبورغ ، المصدر السابق ، ص ١٨٠ .
(٤) نفس المصدر ، ص ١٧٦ – ١٧٧ ، ص ٢٠٨ – ٢٠٩ .

لتحررهم . ومنذ إزالة قيود التعرفة الجمركية بين بولونيا وروسيا (١٨٥١) ، وتحرير الأقنان ، ازدهرت الصناعة البولونية ، بما فيها الصناعة الثقيلة ، فربطت بولونيا بإحكام بالاقتصاد الروسي الذي لا غنى للاقتصاد البولوني عن أسواقه . وتشكل صناعة الغزل والنسيج البولونية ربع صناعة الغزل والنسيج الروسية بأكملها ، كما تشكل صناعة الحديد والصلب البولونية سدس الصناعة الروسية في هذا المجال أيضاً . لذا ليس من طبقة بولونية لها مصلحه اقتصادية باستقلال بولونيا . لقد جرّت البورجوازية نبلاء الأراضي وراءها . كما أن ملاكي الأراضي المتوسطين منهمكون في صراع لا يتوقف من أجل البقاء . فبرنامجهم الاقتصادي بحاجة لمزيد من التسليف كي يستطيعوا الانخراط في الانتاج المكثّف. والبرجوازية الصغيرة ليست جماعة موحَّدة . ويعتمد بعض الأعمال اليدوية على السوق الروسية ساعياً للبدء بإنشاء تعاونيات للتسويق . إن هؤلاء ، والكثيرون غيرهم ، يربحون باتصالهم بالسوق الروسية ، كما وأنهم يتبعون قيادة البرجوازية الكبيرة . إن الصناعة الخفيفة ، التي دُمِّرت بسبب من الصناعة الروسية الثقيلة ، تبقى وحدها الملجأ الطبيعي للتحريض القومي البولوني ، إلا أنها عديمة القوة اقتصادياً . إن الفلاحين غير قادرين على اكتشاف حقيقة المظاهر السياسية . فحقدهم التقليدي على الاقطاعيين دفعهم إلى تأييد روسيا لأن القيصر قد حرّر الأقنان . **إن المثقفين ، الذين لم يندمجوا بالصناعة ، يتذمّرون بسبب استبعادهم عن السلطة المدنية، وهم يشكلون محور التحريض القومي.** غير أن توحيد بولونيا ثانية سيحطم اقتصاد المدن وقسماً كبيراً من اقتصاد الريف أيضاً[٥] » .

---

(٥) روزا لوكسمبورغ ، من مقال بعنوان : « الاشتراكيون الوطنيون في بولونيا » ، مصدر مذكور قبلاً ، ص ٤٦٤ — ٤٦٨ .

وتابعت روزا لوكسمبورغ قائلة : عندما استمر الانشقاق الأول، اعترف الاشتراكيون البولونيون بنفس أهداف الأحزاب الديمقراطية الاشتراكية في الأراضي البولونية التابعة ، إلا أنهم مالوا مؤخراً إلى التركيز أكثر فأكثر على التحريض القومي . لقد توجهوا إلى العمال اليدويين في المدن ، الذين تأثروا بشدة بالبرجوازية الصغيرة التي تشكل القاعدة الشعبية الرئيسية للشعور القومي . وهكذا مال الاشتراكيون البولونيون ، البعيدون عن الوعي العمالي الطبقي ، إلى الوقوع تحت تأثير البورجوازية الصغيرة ، وتبنّوا نفسيتها[٦] .

لقد تحدث ماركس وانجلس عن التهديد الروسي لأوروبا ؛ إلا أن الأمور قد تغيّرت اليوم (١٨٩٦) . لقد نوه انجلس ، منذ فترة وجيزة ، بأن من الصعب على روسيا خوض حتى حرب دفاعية ، كما أنها مفلسة سياسياً* [٧] . إن الحجة التي تقول بأن بولونيا الديمقراطية ستقف حاجزاً بين أوروبا وروسيا الرجعية غير قابلة للتطبيق الآن . فبولونيا موحّدة قد تضم جهدها إلى جهد روسيا القيصرية .

وعندما تستولي البروليتاريا على السلطة في دولة رأسمالية حديثة فإنها تجعل الانشقاقات فيها قليلة الاحتمال لأن الاقتصاد المركز وقوة البروليتاريا المتنامية داخل السلطة يسيران جنباً إلى جنب . هذا ما قالته روزا لوكسمبورغ التي نصحت الاشتراكيين البولونيين بالابتعاد عن الطوباوية المتمثلة بالدولة البولونية والعمل ضمن الأحزاب الاشتراكية أينما وجدت ، مُعتبرةً أن انتصار الاشتراكية سيؤدي إلى تحقيق مطالب الأمم المضطهَدة[٨] .

لقد عارضت روزا لوكسمبورغ عملياً حقوق القوميات الصغيرة في أوروبا

---

(٦) المصدر السابق ، ص ١٧٨ – ١٧٩ ، و٢١١ – ٢١٢ .

* انظر الفصل الثاني ، ص ٧٣ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٢١٢ ، نقلاً عن انجلس : « المؤلفات » ، المجلد ٢٢ ، ص ٣٨٧ – ٣٩١ .

(٨) المصدر السابق ص ٢١٣ – ٢١٦ .

الشرقية ، حتى بعد ثورة أوكتوبر عام ١٩١٧ ، إذ أشارت إلى أن الحركات القومية – كالحركة الأوكرانية مثلاً – « ليست سوى فقاقيع صابون وخداع كمشة من الفلاسفة والمحامين المهرجين » ، ودعت إلى القضاء على حركاتهم الانفصالية في المهد . إن هذه الحقبة تقع خارج إطار الدراسة الحالية . ولكن لا بد من التنويه بأن منزلة روزا الرفيعة كمنظّرة ماركسية هي منزلة لا جدال حولها ، وقد نظر إليها الكثير من معاصريها ، بما فيهم لينين، نظرة جد واهتمام .

لقد تولى هيكر الرد ، في مجلة « العصور الحديثة » ، على آراء روزا لوكسمبورغ ، التي أتهمها بأنها تهدف إلى تكوين عصبة وخلق نشاطات هدّامة داخل الحركة الاشتراكية البولونية . وأنكر هيكر أن يكون الحزب الاشتراكي البولوني قد اتّبع خطاً مغايراً للأحزاب الديمقراطية الاشتراكية في البلدان الأخرى ، وأشار إلى أن الأحزاب الديمقراطية الاشتراكية في كل من المانيا والنمسا لم تعارض البتة تأسيس حزب بولوني مستقل . واعترف بأن بولونيا الروسية قد خطت خطوة واسعة في تطورها الاقتصادي ، وأصبحت أكثر المناطق تصنيعاً في روسيا . ولكنه أضاف بأن السياسة القيصرية تميل، في الوقت الحاضر ، إلى تشجيع الصناعة في المناطق الأخرى ، وانها تفكر في الاستغناء عن الصناعة البولونية في النهاية[٩] .

وعادت روزا إلى الرد على هذا الهجوم بتحليل مفصّل للتركيب الطبقي البولوني ، فأكدت أن تبني البروليتاريا الشعارات القومية سيعني العودة إلى فترة ما قبل الرأسمالية ، وسيعني أيضاً تبني البرنامج الحالي للبورجوازية الصغيرة المحتضِرة وشعارات النبلاء الاقطاعيين القديمة . وأضافت قائلة ان على البروليتاريا الوقوف إلى جانب الحصول على الاستقلال الذاتي في ظل

---

(٩) هيكر ، ص ٣٢٥ ، و٣٢٩ – ٣٣١ .

الامبراطورية الروسية [١٠] .

ووافق كاوتسكي على أن الجامعة السلافية لم تعد تهدد أوروبا الغربية، لأن السلاف الغربيين نالوا المزيد من الحريات ، ولأن الحكومة القيصرية أصبحت أقل اهتماماً بالتنافس من أجل القسطنطينية لأنها بدأت تتوسع في أواسط آسيا والصين . ولذلك فإن مسألة إعادة توحيد بولونيا لم تعد تشكل نقطة خلاف بالنسبة للديمقراطية الاشتراكية الأوروبية الغربية ، كما كان عليه الأمر في زمن ماركس . وظل كاوتسكي يعتقد بأن مطلب استقلال بولونيا يجب أن يكون أحد مطالب الأممية . وقد ردّ على حجج روزا نقطة نقطة على النحو التالي :

١ . قالت روزا ان إعادة تكوين بولونيا أمر لا يمكن تحقيقه . رد كاوتسكي قائلاً : إن السؤال المطروح هو فيما إذا كان هذا المطلب منسجماً أم لا مع البرنامج الاشتراكي ومع مصالح الصراع الطبقي للبروليتاريا العالمية .

٢. قد تندمج الصناعتان الروسية والبولونية معاً، ولكن ذلك مجرد طور عابر . فالصناعة الروسية أخـــذت تتحدى ، كما قال كاوتسكي ، الصناعة البولونية في السوق الآسيوية الآن ، كما أن الحكومة القيصرية تفرض ضرائب ورسوماً أعلى على البضائع البولونية المنقولة بالسكك الحديدية .

٣ . لقد أكـّد كاوتسكي على الأهمية **السياسية** للبرجوازية الصغيرة الـــتي تحدثت عنها روزا بإحتقار ، وذلك لأن هذه البرجوازية قد ترمي بثقلها مع البروليتاريا كما تنبأ بذلك **البيان الشيوعي** . واتهم كاوتسكي روزا لوكسمبورغ بأنها أساءت أيضاً تقييم دور المثقفين الذين أنجزوا عملاً بالغ الأهمية ، في حقل السياسة بخاصة .

وأضاف كاوتسكي قائلاً بأن روسيا ، على المدى البعيد ، هي أقرب دولة إلى الثورة من أية دولة أوروبية أخرى .

---

(١٠) روزا لوكسمبورغ ، المصدر السابق ، ص ٤٦٧ — ٤٧٠ .

وعلى هذا فإن بولونيا المستقلة قد تصبح دولة طبقية (بروليتارية) بالرغم من روزا لوكسمبورغ . وبالرغم من أن كاوتسكي قد تمنى رؤية بولونيا مستقلة ، إلا أنه لم يؤمن إطلاقاً بأن الاستقلال القومي ينبغي أن يعطى « بدون شروط وفي كل الظروف » [١١] ، وبذلك عدّل موقف إنجلس الصريح عام ١٨٨٢ . (راجع ص ٣٣ ، ٣٤) .

وفي النهاية ، امتنع المؤتمر الاشتراكي الاممي ، الذي عُقد في مدينة لندن عام ١٨٩٦ ، عن المطالبة باستقلال بولونيا بخاصة ، إلا أنه أكد على حق كل الأمم في تقرير مصيرها . وبذلك ترك الطريق مفتوحاً أمام البولونيين والشعوب الأخرى التي تواجه نفس الموقف ، للعمل من أجل دفع مطالبها الاستقلالية إلى الأمام وذلك حسب الظروف . إلا ان الحق الديمقراطي في تقرير المصير قد أُقرّ بدون قيد أو شرط .

وكان عدد الذين عارضوا حق تقرير المصير قليلاً جداً حتى في زمن روزا لوكسمبورغ ، وتناقص بالتدريج منذ ذلك الحين لدرجة أنه لم يعد لأفكار روزا سوى قيمة تاريخية . إلا أنه ليس بإمكاننا إنكار هذه الأهميّة بالنسبة إلى مُنظّرة ماركسية مرموقة كروزا . أما مضامين مقالتها الأخيرة حول الموضوع فقد عرفها القراء الأوروبيون من خلال مناقشة لينين لها .

نظرية الدولة متعددة القوميات :

لقد استرشد برنشتاين ، كما رأينا ، بانجلس عام ١٨٨٢ فيما يتعلق بالموقف الذي يتعيّن اتخاذه من مشكلة سلاف امبراطورية النمسا – المجر . ولقد اطلع على الرأي الذي يقول بأن ليس للشعوب السلافية في امبراطورية النمسا – المجر أي مستقبل وان الالمان والمجريين سيمتصونهم باعتبارهم أكثر

---

(١١) « العصور الحديثة » ، المجلد ١٤ ، عدد ٢ ، ١٨٩٥ – ١٨٩٦ ، ص ٤٨٩ – ٤٩١ و٥١٣ – ٥٢٠ .

تطوراً[١٢] . ووافق كاوتسكي، الذي كان نصف تشيكوسلوفاكي ، على وجهة النظر هذه بدون جدال .

وتتبّع كاوتسكي في مقاله الطويل حول « القومية الحديثة » عام ١٨٨٧ الأسس الاقتصادية لهذه القومية واعتبرها فكرة برجوازية من حيث الجوهر[١٣] . إن بناء كيان للأمة كان أمراً لا بد منه للتجار ، حيث ترتدي الحاجة إلى وجود قوة تنظّم السوق الداخلية وتدعم مصالح التجار في الخارج أهمية بالغة ؛ وأكد كاوتسكي قائلاً بأن الشوفينية متفشية بين التجار في الخارج أكثر من تفشيها في أي مكان آخر .

إن فكرة الأمة الحديثة بوصفها نتاجاً للبورجوازية قد وردت في « البيان الشيوعي » ، كما تبنّاها كتّابٌ ماركسيون متأخرون ، كستالين مثلاً . إن الفكرة التي تقول بأن الدولة كبنيان (أو الدولة – البنيان) قد بدأت مع القومية الحديثة لا تستقيم ونظرية الشعوب غير التاريخية، التي لم ينكرها كل من ماركس وإنجلس . فالامبراطوريات القديمة تعتبر ، في مفهوم هيغل ، أمثلة للدولة – البنيان . إن بولونيا عام ١٧٧٢ ، التي تشوّق كل من ماركس وإنجلس ألى رؤيتها تُبعث من جديد ، لم تكن بورجوازية أبداً . وكانت النزعة التسلطية الحربية للارستقراطيات الزراعية قادرة على أن ترسم في ذهنها صورة للدولة التي تطمح إلى بنائها ، كما يقول ماركس ؛ واتجهت الطبقة الحاكمة إلى إرضاء عامة الشعب في حربها من أجل إثراء السادة وتوسيع سلطانهم . ولم يتردد كل من ماركس وإنجلس عن الحديث عن « أمم بربرية »[١٤] .

---

(١٢) رسالة انجلس إلى برنشتاين ، ٢٢ شباط ، ١٨٨٢ ، نشرت في « مراسلات انجلس وبرنشتاين » ، تحرير برنشتاين ، برلين ، ١٩٢٥ ، ص ٥٤ – ٦٤ .

(١٣) كاوتسكي : « القومية الحديثة » ، مجلة « الأزمنة الحديثة » ، المجلد ٥ ، ١٨٨٧ ، ص ٤٠٢ .

(١٤) « بيان الحزب الشيوعي » ، ١٨٤٨ ، المؤلفات ، المجلد ٤ ، ص ٤٦٦ .

قال كاوتسكي ان اللغة قد شكلت العامل الأساسي في بناء الأمّة . « لقد بيّن التطور الاقتصادي الحديث ، نسبياً ، الحاجة إلى اتحاد كل الذين يتكلمون لغة واحدة في دولة مشتركة »[١٥] . ولقد عارض كل من ماركس وانجلس هذا التأكيد القائل أن اللغة هي القوة الرئيسية في بناء الأمة[١٦] . وسببت هذه الفكرة الحرج لكاوتسكي ، ونوّه بذلك مراراً في المناسبات التي عاد فيها إلى هذه الفكرة وعدّل فيها . ويبدو أنه من الصعب الجمع بين موضوعته هذه وموضوعته الأخرى التي أطلقها في نفس الوقت ، والتي تقول أن التطور المستمر في وسائل الانتاج سيحدث اتساعاً في الدولة القومية من أجل تحقيق أهدافها[١٧] . لنفترض أن الحجم الذي تمليه الاقتصاديات يتجاوز القيود التي تفرضها اللغة ، فما هو الجواب ؟ جواب كاوتسكي كان غاية في البساطة : يجب أن تختفي القومية الأقل تطوراً بما فيها لغتها أيضاً ؛ لأن الرأسمالية ، كما يقول كاوتسكي ، تتطور بسرعة أكبر مما تستطيع القومية التشيكية أن تفعله ؛ كما أن اللغة التشيكية معرضة للزوال ، ولكن لا لصالح اللغة الالمانية بالضرورة[١٨] . لقد اعتقد كاوتسكي أن الظروف تستدعي تطوير وبناء لغة عالمية كونية ؛ وقد اقتُرحت لغة كونية بالفعل في نفس السنة (١٨٨٧) من قبل دكتور اوروبي شرقي يدعى زامينهوف ، الذي كان يكتب باسم « اسبيرانتو » المستعار .

---

(١٥) كاوتسكي : « القومية الحديثة » ، ص ٤٠٤ – ٤٠٥ .

(١٦) انجلس ، «الصحيفة الرينانية الجديدة» ، ١٩ آب ، ١٩٤٨ ، المؤلفات ، المجلد ٥ ، صفحة ٣٢١ . انظر أيضاً انجلس : « كفاح المجريين » ، نشر في « الصحيفة الرنيانية الجديدة » ، ١٣ كانون الثاني ١٨٤٩ ، المؤلفات ، المجلد ٦ ، صفحة ١٧١ ، أنظر أيضاً ماركس انجلس : « الايديولوجية الالمانية » ، ١٨٤٥ – ١٨٤٦ ، المؤلفات ، المجلد ٣ ، ٤١١ – ٤١٢ .

(١٧) كاوتسكي : « القومية الحديثة » ص ٤٤٦ .

(١٨) المصدر السابق ، صفحة ٤٤٧ – ٤٤٨ .

ولكن لنفترض أن الدولة تضم أناساً يتكلمون عدة لغات مختلفة ، فهل يعني ذلك تقسيم الدولة إلى عدة دويلات حسب عدد اللغات ؟ من الواضح أن نظرية كاوتسكي لم تُدخل في حسابها هـــذه الفكرة أبداً . إن الانحلال النهائي للامبراطورية النمساوية ـ الهنغارية، تبعاً لخطوط الاختلافات اللغوية، قد عَنَى التضحيات من وجهة نظر النمو الاقتصادي . ثم تصارع كاوتسكي طويلاً مع مضامين تعريفه ، خاصة بعد فشل اللغة العالمية في النمو السريع .

ان التناقض بين التجزؤ اللغوي والتمركز الاقتصادي قد حلّه كاوتسكي عن طريق مفهوم الأممية البروليتارية . وفي مقال نشر عام ١٩٠٥ ، حاجج كاوتسكي قائلاً : بمـــا أن الرأسمالية قد خلقت السوق العالمية ، لذا ليس باستطاعة أمة ما أن تتواجد أو تعيش بمفردهـــا . « يجب عدم التمييز بين الهدف الكلي للمجتمع الاشتراكي العالمي وحركة التحرر القومي ، فهما شيء واحد . يجب أن يدعم كل من الفرد والامة بعضهما البعض حسب حاجات الكفاح التحرري الأممي »[١٩] .

لقـــد بيّن ماركس وانجلس ببلاغة في « البيان الشيوعي » كيف تحطم الرأسماليةُ الحدودَ القومية . ووافق كاوتسكي على ذلك واعتبره نتيجة التأثير الشمولي للتغيرات التقنية في وسائل الانتاج عموماً (كالسكك الحديدية مثلاً) ، ولكنه قال بأن التأثير الأوّلي قد يكون عكس ذلك تماماً . إن السكك الحديدية قد أجبرت ، بعد « تثوير » الأساليب التقنية المنتجـــة في ايرلندا وأوروبا الوسطى ، ملايين الايرلنديين وسلاف الجنوب على ترك أراضيهم والبحث عن مورد للرزق في المدن الانكليزية والالمانية ؛ بيد ان استقبال الوافدين الجدد لم يكن حاراً البتة . وعلى هذا « فإن السكك الحديدية هي أكبر وسائل العصر الحديث لاذكاء الحقد القومي »[٢٠] . غير أن كاوتسكي

(١٩) كاوتسكي : «الوطنية والحرب والاشتراكية الديمقراطية» ، مجلة «العصور الحديثة» ، المجلد ٢٣ ، عدد ٢ ، ١٩٠٤ – ١٩٠٥ ، صفحة ٣٤٨ .

(٢٠) كاوتسكي : « العصور الحديثة » ، ١٨٨٦ ، ص ٥٢٢ – ٥٢٥ .

قد تبع المجلس في التنبؤ بأن الوحـــدة الاقتصادية ستقوّي الإمبراطورية النمساوية – الهنغارية ؛ وبقي كذلك لفترة طويلة حتى بعد أن وصلت الحركات القومية في المقاطعات السلافية في الامبراطورية ثنائية القومية إلى نقطة اللارجوع .

وفي عام ١٩٠٣ أعطى كاوتسكي تحليلاً جيداً للأسباب التي تجعل أوروبا الشرقية لا تتبع نفس طريق أوروبا الغربية في مسألة الاندماج القومي . لقد بدا واضحاً في تاريخ اوروبا الغربية أن التجارة قد أثرت في خلق عملية تمثل وامتصاص لغات معينة . فقد كان للبرجوازية المصلحة الأولى في العمل على توحيد الدولة القومية واندماجها . ولقد تحقق بالفعل هذا الاندماج فياوروبا الغربية . ولقد رأينا كيف سحقت أهداف الأقاليم الفرنسية في الاستقلال في ميدان اللغــة من قبل الثورة الفرنسية * (٢١) . أما الرأسمالية فقد قدمت إلى اوروبا الشرقية حاملة معها النزعة العسكرية والقومية .

وما دام كاوتسكي قد ذهب إلى هذا الحد ، فكان متوقعاً أن يدعو الى تصفية سائر امتيازات الأمم المسيطرة ، والاعتراف بالمساواة لجميع اللغــات في الامبراطورية ثنائية القومية ، والاستقلال الذاتي الاقليمي .

بيد ان الحزب الاشتراكي الديمقراطي النمساوي لم يوافق تماماً ، رغم مناداته باستقلال الثقافة القومية عام ١٨٩٩ ، على إلغاء سائر امتيازات القوميات كافة ، بالرغم من أن مبدأ حماية الأقليات محميّ ، افتراضاً ، من قبل القانون .

---

* يأخذ كاوتسكي هذه النقطة من مقال المجلس المنشور في « الصحيفة الرينانية الجديدة»، العدد ٣ ، أيلول ١٨٤٨ . راجع المؤلفات ، الجزء الخامس ص ٣٥٤ – ٣٥٥ . راجع أيضاً ص ٤٩ من هذا الكتاب .

(٢١) كاوتسكي ، « العصور الحديثة » ، المجلد ٢٢ ، عدد ١ ، ١٩٠٣ – ١٩٠٤ ، صفحة ٤١ – ٤٢ .

الحركة القومية في تشيكوسلوفاكيا :

لقد ذكرنا بعضاً من المآسي التي حصلت بين سلاف امبراطورية النمسا — المجر والجماعات الألمانية والمجرية الحاكمة . وكانت هذه المآسي مرتبطة ، الى حد كبير ، باللغة ، ونعني استعمال اللغة الرسمية في إدارات الدولة . كما ان المحاكم والمدارس قد جعلت الحياة صعبة بالنسبة لكل من يتكلم لغة غير اللغة الرسمية ، وبالنسبة لكل من يطمح الى أن يصبح موظفاً أو مرافعاً أمام القضاء أو مدرّساً أو كاتباً في الصحافة .

لقد اكتسبت المسألة القومية طابعاً جماهيرياً عبر تطوّرات عدة مرتبطة بالثورة الصناعية التي وفدت الى دولة النمسا ـ هنغاريا في الفترة التي بدأت في الستينات من القرن التاسع عشر. بيد أنها لم تتصنع تماماً ، كما أن وتيرة تطورها كانت بطيئة على وجه العموم ، إلا أن مدينتي فيينا وبراغ قد تطورتا بسرعة ، كما وأن بوهيميا كانت تتطور لتصبح منطقة صناعية . والمولّد الأساسي لهذه الظاهرة كان على علاقة بالمسائل القومية التشيكية التي كانت حادة جداً .

ان هزيمة النمسا أمام بروسيا عام ١٨٦٦ قد حدد مصير الحركة العمالية في النمسا ، بمعنى انه قد حـــدد انفصال هذه الحركة تنظيمياً — لا ايديولوجياً بالطبع — عن الحركة الرئيسية الالمانية . وقد كانت أفضل الوظائف آنذاك في أيدي العمال الذين يتكلمون اللغة الالمانية في المدن . وكان العمال الألمان أول من تنظم (واقترحوا ذلك على العمال التشيكيين) ولكن بدون نجاح . وكان هناك نوع من الاهتمام بين السياسيين بكيفية نجـــاح المجموعة الفوضوية الإرهابية في روسيـــا ، خاصة بعد أن أصبح الحزب الاشتراكي الألماني غير قانوني عام ١٨٧٨ . إلا أن حق الاقتراع صار أكثر اتساعاً ؛ كما أن العمال التشيكيين الذين ساندوا المرشحين البرجوازيين التشيكيين قد أدركوا أن هؤلاء المرشحين قد أخذوا يتعاملون مع أصحاب المعامل بعد انتخابهم ؛ وأدركوا أيضاً ان البرجوازية هي عدوتهم الحقيقية . وأُسست حركة عمالية

سياسية موحّدة ضمت عمالاً تشيكيين وألمان معاً . واختفى العنصر الفوضوي بعد العام ١٨٨٦، وتمّ خوض عدة إضرابات عنيفة تميزت ببسالة الطبقة العاملة ووحدتها[٢٢] . وانتخب عدد من ممثلي الحزب الاشتراكي الديمقراطي أعضاء في البرلمان البوهيمي ، بعضهم يتكلم الالمانية والبعض الآخر التشيكية .

وتطورت صناعة ضخمة تحت الرعاية الألمانية . وفي براغ ١٨٩٠ ، كان ٣ ٪ من عدد الشركات يشغل ٥٤ ٪ من عدد العمال . وأدى التنافس بين المشاريع والأعمال الكبيرة إلى تدمير بعضٍ من المشاريع متوسطة الحجم ، واستوعب ما تبقى من المشاريع الشغالة قسماً ملحوظاً من السكان . وكما سعى المنتجون المحليون في أوروبا لجعل السوق المحليـــة في قبضتهم بفرض تعرفات جمركية مرتفعة ، كذلك سعت المشاريع القائمة في دولة النمسا – هنغاريا لتأمين ذلك عن طريق شن الحملات القومية مثل : « اشتروا من التشيك » أو « تحرروا من فيينا » . وظهرت على المسرح طبقة برجوازية تشيكية ، كانت ضعيفة سابقاً ، قادت التحريض . ولكنها لم تنجح نجاحاً حقيقياً ؛ فحتى العام ١٩١٤ كان سُدس الصناعة القطنية ، وربع الصناعة الصوفية فقط في أيدي التشيكيين . إلا أنهم تسللوا إلى إدارات الدولة ودخلوا المهن الحرفية لدرجة أنه كان هناك فائض في المحامين التشيكيين[٢٣].

ان النبلاء النمساويين وكبــار الملاكين العقاريين قد اهتموا كثيراً ، على العكس من أمثالهم في بروسيا ، بالصناعة وعملوا مع الصناعيين . وكان لدى كبار الملاكين العقاريين بالطبع من الأسبـــاب الخاصة ما يجعلهم يُبقون على القوانين الزراعية المحلية كما هي[٢٤] . واعتقد الاشتراكيون الديمقراطيون

---

(٢٢) كاوتسكي ، مجلة « العصور الحديثة » ، المجلد ٨ ، ١٨٩٠ ، ص ٥٠ – ٥٦ ، و ٩٧ – ١٠٦ ، و ١٥٥ – ١٦٣ .

(٢٣) هانز مومسن : « الاشتراكية – الديمقراطية والمسألة القوميـــة في دولة آل هابسبورغ » ، فيينا ، ١٩٦٣ ، المجلد ١ ، ص ٢٤ – ٢٥ .

(٢٤) المصدر السابق ، ص ٤٤ .

الأوائل أنه من الممكن تحويل مملكة النمسا - هنغاريا ثنائيـة القومية إلى دولة متحدة مندمجة عبر إدخال التحسينات في وسائل النقل ، والضغط عليها بغية توحيد السوق . ومن المناسب التذكير هنـا بأن ماركس وانجلس قد فكرا في هذا الاحتمال من قبل . إلا أن التاريخ سار في اتجاه آخر . لم تنقسم الامبراطورية تبعا للخطوط القومية فحسب ، فالشريحة الدنيـا من الطبقة الوسطى ، بـدلاً من أن تذوب في صفوف البروليتاريا ، تطورت إلى عنصر تجاري صغير وصريح ، فنشرت المشاعر المعادية للسامية والمشاعر القومية ، كما انها لم تسهم في النضال من أجل تحرير الجهاز السياسي .

ولقد ارتدى تحريض التشيك القومي آنئذ وبعدئذ مظاهر ثلاثة : اقتصادية ، سياسية ، ثقافية . كان المظهر الاقتصادي حصيلة جهد البرجوازية في إبقاء البضائع الأجنبية خارجاً وضمان هيمنتها على السوق المحلية ، التي لم تضم أراضي بوهيميـا فقط (خارج أراضي السوديت) بل معظم أراضي مورفاريا وسلوفاكيا أيضاً ؛ والحقيقة إن كل الأقاليم التي يتكلم سكانها السلافية من الامبراطورية النمساوية - الهنغارية يمكن اعتبارها جزءاً من هذه المنطقة . أما المظهر السياسي فقد كان الصراع من أجل حقوق متساوية (أو متفوقة) للقوميات السلافية ، حيث اتفق هذا المطلب مع مطلب تحرير أوسع فئات الطبقة العاملة والفلاحين . أما المظهر الثقافي فتجلى في انتشار الثقافة الأدبية القومية بين الجماهير الشعبية الواسعة واستعمال اللغة الوطنية العامة رسمياً في إدارات الحكومة والهيئة التشريعية والمحاكم والمدارس . ونظر ممثلو الاشتراكيين - الديمقراطيين الألمان نظرة عطف إلى هذه الحركة القومية في البداية ، كما عبروا عن رغبتهم في مساعدتها على تحقيق هذه المطالب العادلة حيث سيكون للطبقة العاملة نصيب في المشاركة بها وممارستها أيضاً (٢٥) .

---

(٢٥) كاوتسكي : « كفاح القوميات في الدولة النمساوية » ، في « العصور الحديثـة » المجلد ١٦ ، عدد ١ ، ١٨٩٧ - ١٨٩٨ ، ص ٥٢٠ ، و٥١٦ - ٥١٨ .

لم يكن ممكناً بناء دولة موحـدة وحدوية في دولة النمسا – هنغاريا ، لأن هذا كان يعني سقوط الأقلية الحاكمة الالمانيـــة ـ الهنغارية . ففي الجزء الذي تشرف النمسا على إدارته ، زاد عدد السلاف على عدد السكان الذين يتكلمون الألمانية ، وحتى في هنغاريا أصبح المجريون يشكلون نسبة ٤٠ ـ ٤٥ ٪ من السكان فقط . وعلى هذا فإن النتيجة المنطقية للتحريض والنضال القومي السلافي في سبيل المساواة هي الإنفصال أي إلغاء الدولة ثنائية القومية ، التي ثمنها وتأسّى منها الاشتراكيون الديمقراطيون الألمان منذ البدء ، حيث كانوا يطرون الوحدات الاقتصادية الواسعة وقابليتها للنمو الاقتصادي ، حسبما نوه ماركس وانجلس[٢٦] . كما تحقق أيضاً انه ما دامت البروليتاريا ما تزال أقلية في المجتمع لذا فهي غير قادرة على الدفاع عن حقوقهـــا السياسية في الدول المتعاقبة حيث ستتعاون البورجوازية مع الكنيسة والقوات المسلحـة وذوي المصالح الزراعية . أما الفلاحون فلا يمكن اعتبارهم كقوة تقدمية[٢٧] .

وكان أول حلٍ تبناه الحزب الاشتراكي النمساوي هو إقامة إتحاد فيديرالي مع رسم حدود عدة دويلات حسب الهوية القومية . هذا البرنامج ، الذي تبناه مؤتمر برون عام ١٨٩٩ كحل وسط، لم يُرضِ أحداً. فاستمر التحريض القومي السلافي . والحقيقة أن الاتحـاد الفيديرالي كان صحيحاً حسب التقليد البوهيمي وذلك لأن « بالاكي » و« ريجر » قد أيّداه في فترة ١٨٤٨–١٨٤٩. واتهم الحزب الاشتراكي الديمقراطي النمساوي القوميين التشيكيين بأنهم قد تخلوا عن الاتحاد الفيديرالي لاعتقادهم بأنهم قد رأوا فرصةً لانتصار قومي[٢٨].

---

(٢٦) المصدر السابق ، ص ٧٢٤ .

(٢٧) كاوتسكي ، في « العصور الحديثة » العدد ١٧، المجلد ١ ، ١٨٩٨ – ١٨٩٩، ص ٢٩٦ – ٢٩٧ .

(٢٨) فيروس ، « كفاح القوميات في النمسا » ، في « العصور الحديثة » ، المجلد ١٦، عدد ١ ، ١٨٩٧ – ١٨٩٨ ، ص ٦٦٥ – ٦٦٦ .

ولكن بما أن دولة سلافية بوهيمية صغيرة لن تكون قادرة البتة على الصمود بمفردها ، فمن المحتمل أن تلجأ إلى الحماية الروسية . وقد كان ثمة ضربٌ من تلميح بأن بعض المفكرين التشيكيين يريدون الجامعة السلافية تحت قيادة القيصر الروسي . وهذا بالضبط ما كان ماركس يتخوف منه(٢٩) .

في النمسا – هنغاريا وتركيا ، كان النزوع الأساسي للتطور الاقتصادي يدفع لا نحو تحقيق الاندماج القومي ، كما في أوروبا الغربية ، بل نحو خلق أقليات جديدة. وفسر كاوتسكي هذه النتيجة بأنها ناجمة عن الهجرات الداخلية وهجرة الفلاحين للمدينة بخاصة ؛ فبدل أن يُمتصوا ، شأن المهاجرين الأجانب عادة ، احتفظوا بمشاعرهم وأصولهم، فازدادت الاحتكاكات والنزاعات(٣٠). ومن الجهة الأخرى، اعتقد بانيكوك أن دولة تشتمل على جماعات لغوية مختلفة يمكن أن تنقسم إلى عدة قوميات مختلفة ، لأن التنافس هو قانون المجتمع البرجوازي ، كما أن رجال الأعمال يسعون إلى تطوير الوعي القومي لأن ذلك يعطيهم سوقاً جاهزة . ولهذا قال بانيكوك أن الصراع القومي في دولة كهذه لا يعود بالضرورة إلى وجود الاضطهاد القومي ؛ فهو ليس إلا نتيجة الاختلافات اللغوية . واعتقد بانيكوك أنه فيما عدا الأماكن التي يكون فيها للعمال المهرة احتكار خاص للمهنة وحمايتها (ومن الواضح أن هذه لم تكن حالة العمال التشيكيين) ، لا يكون لدى العمال أي حافز اقتصادي لبناء أمة منفصلة(٣١) .

لقد حذر العمال إذن من أنه ليس ثمة فائدة من تأسيس دولة منفصلة إلا

---

(٢٩) ايغناز دازيبسكي ، في « العصور الحديثة » ، المجلد ١٦ ، عدد ١ ، ١٨٩٧–١٨٩٨ ، ص ٧١٩ .

(٣٠) كاوتسكي : « الأزمة في النمسا » ، ص ٤٥ .

(٣١) انطون بانيكوك ، « النضال الطبقي والأمة » ، نشرة ، ريشنبرغ ، ١٩١٢ ، ص ١٢ — ١٣ .

إذا جُرِّد عمّالُ قومية أخرى من امتيازاتهم . وكان العمال ما يزالون يفضلون الانضمام إلى الحركة القومية ؛ فانقسمت بالنتيجة الاتحادات النقابية العمالية ، بل التعاونيات ، في بوهيميا وفقاً للخطوط القومية . فهل كانت هناك مشاكل تنظيمية خاصة دفعتهم إلى تشكيل إتحادات منفصلة ؟

ليس ثمة شك حول وجود هذه المشاكل ، لا لأن العمال التشيكيين ، أحبوا الرأسماليين المحليين أكثر من الأجانب بكثير (رغم ان اجتماعاً جماهيرياً عمالياً في براغ قد تبنى في سنة ١٨٦٨ قراراً يقول « نحن نكره رأس المال بقدر ما يكون أجنبياً »)[٣٢] ، بل لأن ثمة شكاوى سُمعت في حوالي العام ١٨٩٦ تقول بأن تنظيم العمال التشيكيين قد أهمل ؛ ولقد انتسب ٤٠٠٠ عامل فقط (من أصل ١٨،٠٠٠ عامل تشيكوسلوفاكي منظّم) إلى «الاتحاد العمالي الألماني المركزي» ، حيث شعروا بأن هذا الاتحاد غريب عنهم ثقافياً . لذا أقام العمال التشيكيون إتحادهم النقابي الخاص الذي كان يدعو في برنامجه إلى التعاون الوثيق مع لجنة الاتحاد النقابي النمساوي . لقد كان من غير الممكن عملياً للجماعات التشيكية التي تعمل تحت قيادة « لجنة فيينا » أن تؤدي وظيفتها ، أو هكذا تأكد عملياً . فالأدب كان إما باللغة الألمانية ، أو اعتُبِر « كلاماً فارغاً » ، إذا ما كان باللغة التشيكية . ولم يكن هناك اعتبارٌ جديٌّ للقيادة التشيكية في الادارة . فإذا ما اقترحت الجماعات التشيكية عضواً ما في الادارة ، رفضه القادة الألمان بحجة أنه كان عضواً فعالاً في المنظمة التشيكية الانفصالية[٣٣] .

واعتقد بعض العمال الذين يتكلمون التشيكية أن صاحب العمل الألماني

---

(٣٢) فكتور ستين ، في « العصور الحديثة » ، المجلد ٢٠ ، عدد ٢ ، ١٩٠١ — ١٩٠٢ ، ص ٥٣١ .

(٣٣) رودلف تايرل ، في « العصور الحديثة » ، المجلد ٢٩ ، عدد ١ ، ١٩١٠ — ١٩١١ ، ص ٧٢٨ ، ٧٣٠ و ٧٣٢ .

يفضّل ترقية العمال الذين يتكلمون الألمانية ؛ كما اعتقدوا بأنهم يتلقون معاملة أفضل من أصحاب العمل الذين يتكلمون التشيكية . وعبر الصراع القومي الخطوط الطبقية عندما دعم عمال تشيكيون المنظمات القومية للطبقة المتوسطة، التي كانت تعمل في سبيل مصالحها الخاصة من الناحية الاقتصادية .

لقد كانت الخلافات في الحقل السياسي هي التي جعلت إمكانية مواصلة عمل « الاتحاد النقابي » كوحدة متماسكة أمراً مستحيلاً رغم الاعتراف العام بأن حركة عمالية موحدة ستكون أكثر قوة . وخلال سنوات عديدة كان ثمة اعتقاد بأن من الممكن لحركة نقابية موحدة أن تستمر رغم وجود أحزاب قومية سياسية منفصلة . بيد أن قادة الاتحاد التشيكي الذين كانوا يميلون إلى التعاون مع القادة والنقابيين والسياسيين « المركزيين » (كما كانوا يسمونهم) الناطقين بالألمانية قد طردوا وعوملوا معاملة غير عادلة من قبل المنظمات التشيكية الخالصة .

لقد شعرت الاتحادات ذات اللغة الألمانية بالمرارة إزاء التكتيكات التي استعملتها الاتحادات التشيكية، واتهمتها باستعمال شعور معادٍ للسامية وافشال الاضرابات والتشجيع المتعمد للصراعات القومية بين العمال . لقد لوحظ أن أصحاب العمل لم ينقسموا تبعاً للخطوط القومية . وكتب غوستاف إكشتاين في مجلة « العصور الحديثة » يقول مستخلصاً: « لم يعد للاشتراكية الديمقراطية اليوم من عدو أخطر من القومية » (٣٤) .

لم يقدّر كتّاب « العصور الحديثة » تقدمية الحركة النقابية التشيكية مأخوذة ككل ، كما أنهم لم يثمنوا عملياً الحركة الانفصالية التشيكية إجماليا . فبالرغم من قيادة البورجوازية لهذه الحركة ، إلا انها كانت تتمتع بدعامات شعبية، عمالية وفلاحية ؛ ولقد كانت ترجمة حديثة لظاهرة القومية التقدمية،

---

(٣٤) المجلد ٣٠، عدد ١ ، ١٩١١ — ١٩١٢ ، ص ١٠٤ — ١٠٦ ، بول امبريت في المصدر السابق ، ص ٤٧٠ — ٤٧٣ .

شأن الظاهرة التي عبرت عنهـا الثورة الفرنسية . ولكن بينما قُدّر للقومية الفرنسية الأولى أن تصون وتحمي حقوق الملكية الخاصة (عندما كانت تعتبر حركة تقدمية) ، فإنه قد كان للقومية التشيكية آفاق اشتراكية . وبالرغم من أن لينين لم يدرك ذلك في البداية ، إلا أن تشيكوسلوفاكيا ستصبح مثال التطبيق الناجح لتعاون الطبقة العاملة (الشيوعية) مع البرجوازية الوطنية التي تحولت عملياً (بعد الحرب العالمية الثانية) إلى الاشتراكية * .

حتى الحرب العالمية الأولى ، لم تكن المسألة بالنسبة إلى التشيكيين مسألة قومية أو لا قومية ، بل أي قوميـــة عليهم أن يتبنوا : التشيكية ، أم الألمانية ، أم النمساوية ــ الهنغارية ذات العنصر اللغوي الالماني . والواقع أن ما قدّمه لهم النمساويون ــ الألمـــان لم يكن عملياً سوى نسخة معدّلة عن الامبراطورية النمساوية ــ الهنغارية ، ولم يقدموا لهم دولة تقدمية . إن قراراً كذلك القرار لا يعتمد بالطبع على التشيكيين بمفردهم . إن الاضطراب من أجل تقسيم الامبراطورية ثنائية القومية كان أكثر تأججاً خارج حدودها منه في داخلها. ولكن حالة التشيكيين بالغة الأهمية لأن قوميتهم قد نمت ونضجت بشكل كامل داخل الوطن ؛ وتطورت في صميم الامبراطورية ثنائية القومية بالذات .

لقـــد قال أحد الكتاب في مجلة « النضال » (ديركامبف) الصادرة في فيينا : كان وهماً اشتراكياً مسبقاً مبتذلاً التفكير بأن ثمة امكانية لإلغـــاء القومية والصراع القومي على أساس اعتبارات قضايا الصراع السياسي[٣٥] .

---

* أصبح الجناح اليساري للحركة النقابية التشيكية شيوعياً في نهاية الحرب العالمية الاولى، وفي الحرب العالمية الثانية تم تشكيل حركة نقابية متحدة بقيادة تقدمية . لقد لعبت الحركة النقابية الدور الرئيسي في عملية الانتقال إلى الاشتراكية عام ١٩٤٨ .

(٣٥) هارتمان : « نقاش حول المسألة القومية » ، مجلة النضال ، ١٩١١ – ١٩١٢ ، ص ١٥٢ .

أوتوباور والاستقلال الذاتي الثقافي

كان مؤلِّف باور ، « مسألة القوميات والاشتراكية الديمقراطية » ، يعتبر أحد المؤلفات الرئيسية حول القومية ، وقد ظهر في العام ١٩٠٧ ، وما يزال يعتبر حتى اليوم أحسن بحث في هذا الميدان(٣٦) . لقد كان اهتمام باور منصبّاً على مسألة كيف يمكن لعدة قوميات في الامبراطورية النمساوية - الهنغارية أن تنال حقوقها دون أن تصل إلى حد الانفصال الكامل . لقد فشلت الجهود التي بذلت للمحافظة على الدولة ثنائية القومية ، إلا أن مجهوداته ومجهودات زميله كارل رينر ، الرئيس اللاحق للنمسا ، قد أسهمت جدياً في فهم هذا الموضوع * .

إن المدى المحدود نوعاً ما لاهتمامات باور ظاهر في تعريفه لهذا الموضوع . أما تعريفه هذا للأمة فكان كما يلي : الأمة هي جماعة من الناس يوحدهم مصير مشترك ويتمتعون بطابع (قومي) مشترك . فالمصير المشترك بيِّن في البحث عن معنى التاريخ المشترك قبل كل شيء ؛ كما ينطوي الطابع القومي بالضرورة على وحدة في اللغة . ومن الواضح أن هذا التعريف قد نسي الأرض المشتركة ، فضلاً عن ان الأرض المشتركة تسهم في تطوير وتنمية الطابع القومي المشترك والمصير المشترك . ان اعتبار التاريخ المشترك شرطاً أساسياً لاعتبار جماعة من الناس أمة يسقط من حسابه تلك الأمم الكثيرة التي ظهرت منذ عام ١٩٤٥ في آسيا وافريقيا ، والتي لم تتعد وحدتها أكثر من تجمعها الاعتباطي في مواجهة القوى الامبريالية في القرن التاسع عشر . إنها الأمم التي تكوَّنت في الصراع من أجل الاستقلال . حتى في أوروبا ، ثمة تساؤل فيما إذا كان السويسريون ، الذين يتكلمون ثلاث لغات ويتمتعون بتناظر

(٣٦) اوتو باور ، « مسألة القوميات والاشتراكية الديمقراطية » ، فيينا ، ١٩٠٧ ، اعيد طبعه مع مقدمة جديدة في ١٩٢٤ .

* كان رينر يكتب تحت اسم رودلف شبرنغر قبل الحرب العالمية الأولى .

متنوع في الشخصيات الثقافية ، يكوّنون أمّة بموجب تعريف باور ؛ ومع ذلك فقد حافظوا على وجود قومي مستقل خلال عدة قرون * [٣٧] .

لقد تعرض مفهوم « الطابع القومي » لهجوم علماء الاجتماع ، وذلك منذ أيام باور . وبالرغم من أنهم ليسوا على اتفاق تام ، إلا أنهم انتهوا إلى ان هذا المصطلح ، « الطابع القومي » ، غامض وخدّاع بحيث لا يمكن أن يخدم في التحليل السوسيولوجي . ان البروفيسور كارل ديتش ، الذي أضافت أبحاثه منذ العـــام ١٩٤٠ الشيء الكثير إلى معلوماتنا حول المسائل القومية ، يولي أهميّة للطابع القومي ؛ ولكنه يشير إلى أن استعمال باور لهذا المصطلح كان ملتبساً وأن باور لم يكن متماسكاً في تطبيق هذا المفهوم [٣٨] .

كما أن نقصان الدقـــة ملحوظ بجلاء بصدد مفهوم « المصير المشترك » . فـ « المصير » ذو وجهين مستقبلي ووراثي . فهو من الناحية المستقبلية يشير إلى مصير الجماعة الاقوامية . عندئذ يكون لهذه الجمـــاعة مصير مشترك إذ يتقاسم أعضاؤها نفسيَّة مشتركة وعملاً مشتركاً من أجـــل تعزيز الأهداف المشتركة . وبمفهوم كهذا تصبح « الأمة » « روحٌ متحدة » (رينان) ؛ أو بلغة زمن باور الأرفع مستوى : « توجد الأمة حالمـا تبدأ العناصر المكونة لها تعتقد أنها امة » . وفي هذا المفهوم مزايا كثيرة يمكن تزكيتها ، إلا أن هذا ليس مفهوم باور . ان فكرة باور وراثية تمامـاً بقدر ما هي مستقبلية تماماً : ان للجماعة فكرة مـا حول مصيرها **لأن** لهذه الجماعة تاريخاً ولغة مشتركين .

---

* راجع الفصل الثاني حول التعاريف المتنوعة للقوميـــة ، التي استخدمت في أوروبا الغربية والشرقية بالتتالي ، ص ٤٢ — ٤٣ .

(٣٧) المصدر السابق ، ص ١٣٥ ، و ١٣٣ .

(٣٨) كارل ديتش : « القومية والتواصل الاجتماعي » ، طبعة ثانيـــة ، كامبردج ، ١٩٦٦ ، ص ٢٠ .

إن الإقامة في منطقة ما وامتلاك لغة ما لا يشكلان وحدهما فقط تعريفاً كافياً للقومية بالنسبة لباور ؛ فمن الضروري أن يكون لهذه الجماعة المعنية تفاعلات مشتركة وحوافز خاصة وعادات مشتركة ومفهوم مشترك لمصير الجماعة . هذه التفاعلات والعادات والمفاهيم تكوّن بجملها الطابع القومي و « المصير » القومي . ولكن هذه المفاهيم هي بالضبط الأجزاء المكوّنة لما اعتُبِرَ عندئذٍ القومية . لقد عرّف القومية بمصطلحاتها الخاصة .

هذه الدورة في الاستنتاج تجد تعبيرها في الفقرات التالية ، التي ترفع عملياً نظرة باور غير المادية ، بل الصوفية : « بالنسبة للمادية القومية ، إن الأمة جزء من الجوهر المادي الوحيد الذي يملك قوة سحرية لخلق الطابع القومي الجماعي المشترك خارج نفسه » [٣٩] .

وفي دولة النمسا ـ هنغاريا ، ومن أجل أهداف عملية (وليس من أجل كل الأهداف حسب تعريف باور) ، فهمت القومية واللغة كأمرين لهما حدود مشتركة ، وهناك مناطق عديدة سيطرت فيها اللغة الألمانية ، بينما سيطرت اللغة المجرية (الهنغارية) في مناطق أخرى ، كما أن هناك ، أو كان هناك مناطق سلافية ورومانية من الوجهة اللغوية . قال كاوتسكي ان النمسا قد تألفت من تسع قوميات دون سيطرة أي منها على الأخرى . وحتى لو جرت محاولة من أجل تقسيم هذه المناطق حسب اللغات ، فإن هذه المحاولة لن تكون ممكنة ، نظراً إلى اختلاط السكان القوي بعضهم ببعض . لقد أدرك كل من باور ورينر هذه الصعوبات ، إلا أنهما اقترحا ، لعدة أسباب حُدّدت بأنها ثقافية ، تصنيف السكان حسب الهويّة القومية بغض النظر عن مكان الإقامة ؛ ويجب أن تشكّل القوميات داخل كل مقاطعة تتمتع بالاستقلال الذاتي (كان الاستقلال الذاتي هذا مطلب الاشتراكيين الديموقراطيين منذ عام ١٨٩٩) مجالس شعبية منفصلة لإدارة المدارس ولتقديم رعاياها أو

---

(٣٩) باور ، ص ١٢١ .

أعضائها من القومية ذاتها أمام المحاكم والسلطات العامة[٤٠] . كما ويحق لأفراد قومية ما ، الذين يقطنون خارج أراضي قوميتهم ، التصويت مع جماعاتهم القومية حول المسائل الثقافية .

غير أن هذا المبدأ ، مبدأ شخصانية الهوية القومية ، كان أمراً تكتنفه الصعوبات ، لأن ثمة قوميات كثيرة ، ينبغي تسجيل كل أعضائها فرداً فرداً ، ولقد أدرك باور ورينر ذلك[٤١] * .

إن مبدأ فيديرالية الحكم كحلٍ للمسألة القومية كان أكثر صواباً من المبدأ الأول . ولكن لم يكن هناك موافقة على الفيديرالية ، خارج الاشتراكيين — الديموقراطيين النمساويين — الهنغاريين على الأقل .

ويستحق باور الفضل الكثير لتوضيحه ، من خلال تاريخ التشيكيين ، كيف يستطيع شعب ما ، لم يكن له « تاريخ » ما (حسب تعبير هيغل) أو كان له تاريخ ما يوماً وانتهى، كيف يستطيع هذا الشعب تطوير قوميته . لقد وضع المجلس سلاف الجنوب في المرتبة الدنيا ، بسبب خضوعهم لفترة طويلة من الزمن للطبقات الحاكمة الألمانية والتركية والمجرية ، مع أنه ثمّن بروليتاريا الغرب ، وكانت خاضعة خلال مدة أطول بكثير ، تثميناً عالياً .

لقد أُزيح لوردات بوهيميا الناطقين باللغة التشيكية خلال حروب الـ « هوسيت » ، وحل محلهم لوردات ناطقون بالألمانية . ولقد قدر المجلس ان من الصعوبة بمكان أن تصمد وتبقى اللغة التشيكية ؛ كما توقع أن يتبنى

(٤٠) المصدر السابق ، ص ٥٣٢ — ٥٣٣ .

(٤١) المصدر السابق ، فصل ٢٢ .

* عندما جاء حزبهم إلى السلطة في النمسا بعد الحرب العالمية الأولى ، شرع باور ورينر في تحقيق هذا الهدف الذي عُدّل إلى حد ما ؛ ولكن الفكرة بجملها أصبحت خارج الزمن حيث ان الاتحاد الفيديرالي لم يتحقق وزالت امبراطورية النمسا ـ المجر، ثنائية القومية.

الفلاحون في بوهيميا ومورافيا لغة غزاتهم وان يُمتصُّوا ثقافياً وحضارياً بالنتيجة . لكن الأمور سارت بعكس ذلك ، إذ هاجر الفلاحون السلاف في دولة النمسا – هنغاريا إلى المدن ليشكلوا جسد الطبقة العاملة في كل أرجاء الامبراطورية ، بل تطوروا ، بالنتيجة ، إلى طبقة وسطى وأظهروا اقتداراً على بناء أمة ببنائهم عدة أمم عملياً .

هل شكل السلاف أمماً (أو قوميات) خلال الفترة التي كانوا خاضعين فيها لجماعة غريبة ؟ لقد أنكر انجلس عليهم ذلك ؛ ففي كتاباته خلال نصف قرن إشارات لاذعة إلى « بقايا الأمم الصغيرة » في جنوب شرق أوروبا . أما جواب باور على هذا السؤال فيكتنفه إلتباس . ويبدو أكثر وضوحاً في جداله حول اليهود .

بموجب تعريف باور ، يمكن اعتبار اليهود ، أصحاب قومية . فهم يتشاطرون « مصيراً » مشتركاً ويتمتعون بـ « طـــابـع » قومي ، حسب تعبير باور. لم يكونوا يملكون أرضاً معينة ولا يتكلمون لغة واحدة مشتركة، بيد أن تعريف باور لم يكن يعتبر هذين العنصرين ضرورة للقومية .

قال باور ان اليهود قد شكلوا في القرون الوسطى قومية منفصلة . لقد كانوا السماسرة الوحيدين والمرابين والمسلِّفين الماليين ــ بمعنى أنهم كانوا الممثلين الوحيدين للاقتصاد النقدي في مجتمع زراعي بوجه عام . لذا جمعهم مصير واحد مشترك .

وقال باور ، ان تطور الرأسمالية قد أوقف ذلك . فالبرجوازية الكبيرة اليهودية قد اندمجت في البرجوازية المسيحية التي بدأت تدخل الاقتصاد النقدي . وقد وصف ماركس هذه العملية بقوله : « إن المسيحيين أنفسهم قد أصبحوا يهوداً » . وحركة التمثُّل هـــذه قد أثرت ، فيما بعد ، على الانتلجنتسيا ، وتدريجاً على البرجوازية الصغيرة أيضاً . وفي رأي باور انه إذا كان ممكناً اعتبار اليهود أمة ، بيد انهم أمة لا تاريخية لأن طبقتها الوسطى ،

القادرة على أن تصون وتحمل الثقافة والحضارة، قد استوعِبت إلى حد كبير. ويرى باور انه رغم المحاولات الواسعة من أجل إحياء القومية بين اليهود، ولكن ُقدر لهم أن ُيستوعبوا لأنه لم يكن هناك مصدر احتياطي يمكّن من تجديد الخصائص والمشاعر القومية. ويشير باور إلى أن سيل الفلاحين الوافدين إلى المدينة كان من القوة والاستمرار بحيث أنه كان يجلب عدداً من المهاجرين الجدد الذين لا يعرفون سوى اللغة السلافية فحـــال دون تمثل الطبقة العاملة السلافية. ولم يكن هناك بالطبع فلاحون يهود. لقد جاء بعض اليهود إلى دولة النمسا ـ هنغاريا من الشرق، ولكنهم كانوا قلـّة، فاعتقد باور بأن عملية إمتصاصهم لن تطول كثيراً.

من الواضح أن باور قد بالغ بمدى امتصاص واستيعاب اليهود. ولكن النقطة هنا هي أنه بالرغم من تأكيده على أن الطبقة الوسطى هي القادرة على بناء الحضارة والثقافة القومية وحملها في العصر الحديث، إلا أنه نوه بأن الفلاحين يشكلون، بـ « لغتهم وعاداتهم المميزة »، مستودع ومذخر القومية.

ويتخلى باور هنا عن مضمون مسألته القائلة بأن البرجوازية هي وحدها القادرة على بناء ثقافة وحضارة. ألا تشكـّل الأغاني والحكايات والرقصات الشعبية القروية الفولكلورية مع لغتها ثقافة من وجهة نظر الأنتربولوجيا، حتى ولو لم تكن ثقافة متطورة؟ أليس فشل الفلاحين السلاف في تبنـّي ثقافة طبقتهم الحاكمة خلال فترة ألف سنة سبباً كافياً لإعطائهم ضرب من الصرامة في المقاومة؟ ولا يستطيع باور، حتى في تعريفه الذاتي الضيق للقومية، أن يجعل القومية حكراً لطبقة اجتماعية واحدة. فللعمال والفلاحين، بوصفهم أفراداً، قومية بالمعنيين الواسع والضيق[٤٢].

---

(٤٢) كاوتسكي: « الأمية والقومية »، في « العصور الحديثة »، ملحق المجلد ٢٦، العدد ١، ١٨ كانون الثاني ١٩٠٨.

لقد قلل باور من شأن المميزات أو الخاصيات « القومية » لثقافة أو حضارة التشيكيين. وقال انه بالاضافة إلى بعض من ذكريات معركتي « هس » و« وايت ماونتن » (الجبل الأبيض) ، فإن التشيك قد أخذوا ثقافتهم وحضارتهم عن الألمان * . يعترض المثقفون التشيكيون المعاصرون على هذه النظرة . قد تكون نظرة باور أقرب إلى الصحة في زمن « بالاكي » و« هافليسك » ، حيث اتصلت الثقافة التشيكية في القرن العشرين لا بالثقافة السلافية الغنية فحسب بل بالثقافة الأوروبية الغربية على وجه العموم ؛ لذا فالثقافة أو الحضارة التشيكية بعيدة عن أن تكون نتاجاً للثقافة الألمانية .

لقد قدم باور تحليلاً مطوّلاً ليبرهن أن التوسع العدواني القومي قديم ، وهو من صنع الرأسماليين المستغلين خلال المرحلة المعاصرة . ويدور تحليله بصورة رئيسية حول الحاجة إلى تحريك رأس المال بصورة مستمرة، أي إلى تدويره بشكل سريع [٤٣] . ولكن باور أدرك ، بعد أن درس كتاب هيلفردينغ « **رأس المال المالي** » ، أنه قد بالغ في تأكيد أهمية النواحي المالية الخالصة [٤٤] . إلا أنه قد لحظ أهمية تمركز رأس المال وإنشاء الاحتكارات في نمو الإمبريالية .

وقال باور : في أوج الليبيرالية الانكليزية رحّب التجار، الذين يسيطرون على الحكومة ، باستقلال الشعوب عن مضطهديهم الإقطاعيين لفتح الطريق للمتاجرة معها وجعلها أسواقاً للبضائع الانكليزية، رغم أن الانكليز لا يرغبون بالتأكيد في أن تصبح الدول التي تقيمها تلك الشعوب دولاً مصنعة . واليوم

---

* لقد كان البوهيميون خاضعين لعائلة هابسبورغ منذ العام ١٥٢٦ . وفي العام ١٦٢٠ قاموا بمحاولة مسلحة من أجل استعادة استقلالهم ، إلا أن قواتهم قد تشتتت عند الـ « وايت ماونتن » بالقرب من براغ . يقع نص باور في الصفحة ١١٨ .

(٤٣) باور ، الفصل ١٧ .

(٤٤) المصدر السابق ، مقدمة طبعة عام ١٩٢٤ ، ص ١١ .

(١٩٠٧) يكتشف باور ان اهتمام الامبريالية لا يكمن في اعطاء الأمم حريتها ، بل في إخضاع القوميات كي يتسنى للجماعة الحاكمة استغلال الآخرين داخل منطقة نفوذها الاقتصادية . « إن هدف الرأسمالية الحديثة لم يعد أبداً الدولة القومية ، بل دولة قوم مسيطر ، دولة يستغلها ويتحكم فيها سكان البلد المسيطِر ، بينما تستسلم الشعوب الاخرى لها بدون مقاومة . لم تعد الدولة القومية الانكليزية نموذجها ، بل أصبحت الامبراطورية الانكليزية العالمية هـــذا النموذج ... لم تعد الحرية سوى حلم أطفال ، سوى إرادة السيطرة على واجب أخلاقي »[٤٥] .

من الواضح أن ألمانيا هي البلد الذي كان ماثلاً في ذهن باور عندما كتب تحليله هذا ؛ فقد كانت تمزق امبراطورية النمسا – هنغاريا اضطرابات داخلية ذات طبيعة قومية لم تمكنها من اتباع سياسة توسعية إلا كتابع للرايخ الالماني الأقوى منها بكثير . لقد كان باور ورينر « أمميين » شأن ما كان يزعمه سائر الاشتراكيين ، إلا انهما كانا على موضوعية كافية جعلتهما يلاحظان نمو مشاعر لصالح الامبريالية في صفوف الطبقة العاملة . والحقيقة ان الجناح الشوفيني في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني كان عالي الصوت والضجيج بحيث لم يكن ممكناً تجاهله . وقد ذهب باور إلى أبعد من ذلك لكي يخترع الأسباب التي تجعل من الامبريالية أمراً مفيداً للطبقة العاملة . هذه النقطة لم تلق استحسان كثير من الكتاب اليساريين. لقد اعتقد باور ان التوسع أمر «جيد» بالنسبة لسائر طبقات الشعب بما فيها الطبقة العاملة . وفوائد الامبريالية بشكلها هذا أكثر من مساوئها أو انهما متعادلين على الأقل[٤٦] . ولكن مع مرور الزمن توصل باور إلى الاستنتاج بأن الامبريالية ضد مصالح الطبقة

(٤٥) المصدر السابق ، ص ٤٧٤ – ٤٧٥ .

(٤٦) المصدر السابق ، ص ٤٨٧ .

العاملة فعلياً[٤٧] .

ويصبح موقف الطبقة العاملة معادياً للامبريالية لا بسبب مفاعيلها الاقتصادية فحسب ، بل بسبب تهديد الديمقراطية الناتج عن إخضاع أعداد كبيرة من العمال والفلاحين الأجانب للحكم العسكري ، وبسبب تنامي المصالح القومية بشكل معادٍ للمصالح الأممية . وأعطى باور أمثلة عديدة من التاريخ الحديث لمعارضة الطبقة العاملة للامبريالية ، واستنتج بأن العمال كانوا معادين لها على وجه العموم* [٤٨] . ثم تناول رينر ، عكسياً وبشكل جدي موضوع الاتجاه المؤيِّد للامبريالية في تفكير الطبقة العاملة ، وهو التفكير الذي دُعي مؤخراً بـ « الإمبريالية الإشتراكية »[٤٩] . إن الخلافات القومية ، في نظر ماركس ، ستكف عن أن تكون مصدر نزاع بعد الثورة الاشتراكية . سيكون هناك تناقضات بين الامم الاشتراكية ، إلا أنها ليست تناقضات عدائية . لقد اعتقد باور ان انتشار التعليم والثقافة العامة في صفوف الطبقة العاملة يتجه نحو زيادة حدة الخلافات القومية ، كما سيؤدي إلى تقهقر في تضامن الطبقة العاملة على المستوى الأممي ، لا قبل الاشتراكية فحسب بل حتى بعد قيامها أيضاً . كتب قائلاً :

> « إن الرأسمالية الحديثة تُفرد ببطء وبوضوح الطبقات السفلى في مختلف الأمم عن بعضها البعض ، لأن لهذه الطبقات نصيبها أيضاً في الثقافة القومية والحياة الثقافية القومية ، واللغة القومية

---

(٤٧) اوتو باور : « الحركة العمالية والأمة » مجلة « النضال » ، ١٩١١ – ١٩١٢ ، ص ٤٠٣ .

* راجع الفصل السابع حول معارضة الاتحاد الاميركي للعمل للامبريالية .

(٤٨) اوتو باور ، حول « المسألة القومية » ، صفحة ٩٠ ؛ .

(٤٩) رينر : « الماركسية ، الحرب والأممية » ، شتوتغارت ، ١٩١٨ ، ص ٣٦١ وما يليها .

الفصحى ... إن المجتمع الاشتراكي ... نتيجة الاختلافات في الثقافة القومية ، ... سيميّز بشكل واضح شعوباً بأكملها عن بعضها البعض ، كما في عالم اليوم حيث انفصلت طبقة المثقفين في مختلف الأمم ، الواحدة عن الاخرى »[٥٠] .

لقد اعترف باور ورينر بحق القوميات في تقرير مصيرها ، شأن سائر فروع الحركة الاشتراكية آنذاك ؛ إلا انهما سعيا إلى منع الانفصال . ربما كان بالإمكان انقاذ النمسا ـ هنغاريا كدولة لو أن سياسة قومية أكثر وعياً وفهماً قد جرى تبنيها منذ منتصف القرن التاسع عشر ؛ إلا أن اقتراح باور ورينر حول منح الاستقلال الثقافي القومي قد تعرّض آنذاك لانتقادات وجهها كل من لينين وستالين .

نقد باور ونقد الردّ عليه

لقد أثار باور ، كتطوري ، ردّ فعل بَرِم من الجناح الثوري اليساري ، كما ان مضمون مشروعه حول إدارة المدارس كحل سريع يواجهه الاشتراكيون الديمقراطيون كان طفولياً إلى حد ما . إلا ان باور كان يدرك تماماً أن الصراعات من أجل الاستقلال الثقافي القومي الذاتي هي ، من الناحية المبدئية ، صراعات من أجل السلطة قبل أن تكون صراعات ثقافية[٥١] .

لقد وضع كاوتسكي تقييماً ونقداً مطوّلين لمؤلف باور . وتلخص نقاطه كما يلي :

١ . لقد عارض كاوتسكي تعريف باور للقومية . إن أي تكوين أو تنظيم اجتماعي يشكل جامعة مصير : القبيلة ، العشيرة ، الجماعة ، الدولة ، نقابة

---

(٥٠) باور : « حول المسألة القومية » صفحة ١٣٥ .

(٥١) المصدر السابق ، ص ٢٨٠ و ٥١١ .

التجار والصنع ، الاتحاد النقابي العمالي ، الحزب ، بل الأصناف المهنية . إن الكثير من هذه التنظيمات تخلق ثقافة مشتركة بل شخصية مشتركة بين أعضائها. إلا أن المصير المشترك والثقافة المشتركة لا يخلقان بالفعل عملية الفصل بين أمة وأخرى . إن السويسريين الفرنسيين والألمان رغم الاختلافات القومية القائمة في صفوفهم ، مرتبطون مع بعضهم البعض أكثر من ارتباط السويسريين الألمان بسكان فيينا أو هولشتاين مثلاً . ففي رأي كاوتسكي ، إن الصراعات القومية داخل أمة ما أكثر حدة من الاختلافات والصراعات الثقافية. ووجد أن نظرية باور ، التي تقول إن الأجزاء التي تؤلف أمة ما هي التي تملك ثقافة مشتركة، هي نظرية تنطوي على مفارقة كما إنها غير متماسكة ، إذ أن باور قد ذكر بأن الفلاحين يشكلون احتياط القومية ومدخرها . كما لاحظ أن الشعور القومي في الوقت الحاضر هو خاصيّة الطبقات كافة ، لا الطبقة الحاكمة أو المستغلـّة فقط [٥٢] .

وقد وجد كاوتسكي أن مفهوم « الطابع القومي » ينطوي على صعوبات عديدة . فعندما تتطور أجزاء مختلفة من الأمة أو القومية تطوراً متفاوتاً ، حيث يستمر جزء في العيش في ظروف شبه إقطاعية وجزء آخر يتطور باتجاه الرأسمالية المتقدمة ، فأيهما يمثل الطابع القومي ؟ لقد شدد تعريف كاوتسكي للقومية بقوة ، كما رأينا،على اللغة ـ لا بمعنى إن كل من يتكلم لغة ما ينتسب إلى القومية نفسها ، بل بمعنى أن لكل قومية لغتها الخاصة . لقد قرّع كاوتسكي باور لأنه قلل من شأن دور اللغة في توحيد الأمة . وخلافاً لباور . كان يعتقد أن الوجود القومي يصبح ممكناً فقط في ظل وجود أرض مشتركة . بيد أن الطابع القومي ليس ، في رأيه، شرطاً أساسياً في تكوّن الأمة ، لأنه صفة رئيسية للجماعات الصغيرة غير المتطورة التي تتجه إلى

---

(٥٢) كاوتسكي ، « القومية والأممية » ، صفحة ٢ - ٤ .

الزوال في حال توسع الأمة وإنقسامها إلى مهن وطبقات متنوعة . لقد تنبأ كاوتسكي بنمو ثقافة ولغة مشتركتين بين الشعوب كافة [٥٣] .

٢ . وناقش كاوتسكي بالمقابل مسائل «الدول مختلفة أو متعددة القوميات»، حيث تشكل دولة النمسا — المجر مثلها الوحيد ؛ وينتهي إلى الاستخلاص ان كل واحدة منها تشكل وحدة واحدة في حد ذاتها ؛ والدولة متعددة القوميات ليست نموذجاً ، كما قال باور . ان سائر الدول متعددة القوميات بقيت ذات بنيان أو تكوين داخلي متأخر وغير طبيعي .

٣ . يعتقد كاوتسكي أن باور ورينر قد قدما كثيراً من التنازلات لفكرة الاستقلال الذاتي القومي التي تتناقض والمركزية التي تتطلبها الظروف الاقتصادية الحديثة . ويشكك بقدرة الاستقلال الثقافي القومي ومبدأ شخصانية الهوية القومية على استهواء الحكام الألمان والمجريين في دولة النمسا — المجر ؛ وفي رأيه ، ان الثورة البروليتارية هي وحدها التي ستحقق الحرية القومية والمركزية في آن .

٤ . في رأي كاوتسكي إن الضعف الرئيسي في كتاب باور هو تقديره المبالغ فيه للدافع القومي وإهماله التام للدافع الأممي [٥٤] .

دافع باور عن نفسه ، ورد على انتقادات كاوتسكي ، مقترباً في نفس الوقت أكثر فأكثر من مواقف كاوتسكي . وقال : ان الأمة (القومية) هي الجماعة التي تملك تكويناً بسيكولوجياً مشتركاً يؤدي إلى حوافز وأساليب مشتركة في التفكير . في حين أن الجماعات التي أشار إليها كاوتسكي (الدولة ، النقابات ، الخ) إنما تنتظم أو تتوحد وتتجمع كفئات أو جماعات ذات أغراض محددة فقط .

---

(٥٣) المصدر السابق ، ص ٦ ، ٩ ، ١٧ .

(٥٤) المصدر السابق ، ص ٣٥ .

لقد ميّز باور ، دونمـا تنويه خـــاص بنظرية فرديناند توني* ، بين « الجماعة » Gemeinschaft وبين « المجتمع » Gesellschaft ، وهو التمييز الذي ورد ضمناً في دراسة ماركس : « **المسألة اليهودية** » . فالقومية هي « الجماعة » . أما الدولة السياسية والنقابة والأصناف المهنية والكنيسة فهي جميعاً من أنواع « المجتمعات » أو « التشارك المتَبَنْين » . وبما أن باور يولي الاهتمام للقومية في حد ذاتها ، فإنه يضفي عليها طابعاً حسناً . ولقد أسبغ عليها باور سمات من الأخوة التي نجدها في الكتابات الأخلاقية أكثر ممـــا نصادفها في الواقع العملي(٥٥) .

لذا كان من الطبيعي ، إلى حد مـــا ، أن يأتي الدخول الصريح لهذه المصطلحات في الأدب الماركسي عن طريق البحث في القومية nationality لا في الأمة nation . فكثيراً ما يختلط أو يمتزج مصطلح الأمة بمصطلح الدولة، فيستعمل أحدهما بدل الآخر ، لذا فثمة حـــاجة لجهد متأنٍّ لاستخدامهما في التحليل . بيد أن القومية ليست هي الدولة في دولة النمسا — هنغاريا وفي الدول الأخرى متعددة القوميات ، على الأقل أثناء معالجـــة باور للمسألة . ولهذا كان من الممكن مناقشة كل من الصفات المسندة للدولة أو القومية دون خوف من الاختلاط والالتباس .

لقد قبل باور الفكرة القائلة أنه يجب أن يكون لأفراد قومية ما لغة مشتركة بوصفها أداة للثقافة المشتركة، وأكد ان هذا هو ما قاله في كتابه بالدرجة الأولى

---

* سوسيولوجي الماني توفي عام ١٩٣٦ . مؤلف كتاب عنوانه : « الجماعة والمجتمع » Gemeinschaft und Gesellschaft صدر عـــام ١٨٨٧ . ميّز في الكتاب بين الرابطة الاجتماعية من النمط الطبيعي والعضوي (الجماعة) وبين الرابطة الاجتماعية الموجهة نحو هدف (مجتمع) . (عن « لاروس » — المترجم) .

(٥٥) باور : « ملاحظات حول المسألة القومية »، نشرت في مجلة « العصور الحديثة »، المجلد ٢٦ ، عدد ٢ ، ١٩٠٧ — ١٩٠٨ ، ص ٧٩٣ .

لا في تعريفه السابق . أما بالنسبة للفلاحين وصفاتهم « القومية » البالية ، فقد قال باور أنه لم يكن يفكر بهم عندما تحدث عن البرجوازية التي تبني الثقافة القومية ؛ فقد كان يفكر **بالأمة** الحديثة حيث ستزول الخصوصيات المحلية البالية . ووافق باور مع كاوتسكي على أن البروليتاريا ينبغي أن تقاتل من أجل إيجاد ثقافة أممية ، إلا أنه أكد بأن هذه الثقافة ليست عملية تجريدية ، بل يجب أن تكون العنصر الأممي في ثقافات قومية متعددة .

وأشار كل من كاوتسكي وباور إلى انهما عندما يؤكدان على الأممية إنما يسبحان عكس التيار المتجه بقوة نحو القومية . ولكن كانت هناك أيضاً قوىً تعمل من أجل الأممية بما فيها تلك التي وصفها كاوتسكي في مكانٍ آخر . ففي رأي كاوتسكي ان باستطاعة العمال ، كطبقة ، أن يزيدوا حصتهم بزيادة إنتاجية عملهم ، ويمكن التوصل إلى ذلك بشكل أفضل بواسطة الانتاج الجماعي عبر نشوء اقتصاد عالمي ، وهذا ما يتطلب – بالمقابل – تضامناً امميا[٥٦] .

لقد قصَّر باور في الإشارة إلى أن فرديناند توني ، الذي جاء بالمعالجة الكلاسيكية للتمييز بين « الجماعة » و « والمجتمع » ، لم يكن ماركسياً .

صحيح أن ف. توني قد تعاطف مع الطبقة العاملة وآمن بدورها ضد البرجوازية . ومن الواضح أنه قد أعجب كذلك بماركس واعتمد عليه وعلى إنجلس في تفسير التاريخ . كما ان ف. توني ، في نقده للدولة الحديثة ودعوته إلى وجوب استعادة روح الجماعة ، يبدو وكأنه يردد انتقادات ماركس ومطالب انجلس المشابهة ، وبخاصة في كتابه « **أصل العائلة والدولة والملكية الخاصة** » . لم يفكر انجلس بالعودة إلى طور الشيوعية البدائية ، بل حثّ الانسانية على العمل في سبيل شيوعية جديدة تتلاشى فيها كل الطبقات

---

(٥٦) كاوتسكي ، « الوطنية والاشتراكية الديمقراطية » ص ٧ – ٨ .

وتتحقق في اطارها المساواة بين البشر . واعتبر الشيوعية الطور الأعلى في الاشتراكية .

أما ف. توني فقد كان بعيداً جداً عن مواقع الدفاع عن الشيوعية . ان ما وصفه بالجماعة Gemeinschaft، وما اعتقده باور بكل وضوح بديلاً للدولة القائمة أو المجتمع Gesellschaft هو مجتمع طبقي مع ذلك . لقد وصف توني مجتمع الطبقات المغلقة في القرون الوسطى باعتباره جماعة على أساس اعتماده بالأحرى على إرادة فطرية لا على إرادة عقلانية .

لقد فشل ف. توني ، الذي رُبط مفهوم الجماعة عنده بالدولة الطبقية ، في تتبع المفهوم الذي طرحه ماركس في كتابه « المسألة اليهودية » . ان السوسيولوجيا الماركسية يمكنها أن تعتبر مفهوم الجماعة مثمراً إذا أعيد تحديده وأصبح ينطوي على المساواة الحقّة . قد يتحدث الجناح اليميني من الاشتراكيين الديمقراطيين ، الذي قبل الدولة الطبقية ، بشكل عفوي ومرتجل عن الجماعة في مجتمعه القادم، ولكن قصدهم سيعني أن على العمال أن ينموا شعور المشاركة مع أسيادهم . وسيصرّ الجناح اليساري من الاشتراكيين والشيوعيين على اتخاذ موقف مغاير لذلك وأفضل منه .

تحدث باور عن « جامعة التربية والتعليم والعمل » وعن المتعة الثقافية ، التي تربط الأمة بعضها ببعض »[٥٧] . فإذا كان ذلك كل ما أراد أن تتضمنه المساواة الداخلية في أمة المستقبل التي يتطلع إليها ، فسيكون عندئذ مع مضامين توني لا مع ماركس بالتأكيد . إن الأمة كما هي قائمة الآن ليست الجماعة أبداً بل المجتمع . وهذا ما لاحظه توني[٥٨] .

لقد أدرك ماركس ، كما رأينا ، استمرارية الأمة وقدرتها على النمو

---

(٥٧) باور ، « حول المسألة القومية » ، ص ١٢٠ .

(٥٨) توني ، « تطور المسألة الاجتماعية حتى الحرب العالمية الاولى » ، ليبزيغ–برلين ، ١٩٢٦ ، ص ٣٢ .

والحياة كمبدأ منظّم حتى بعد زوال الدولة الاستغلالية . قال رينر : « لقد وجدت الأمم قبل الدول وستستمر بالوجود بعد زوال هذه الدول »[٥٩] . وفي نظر ماركس، إذا كانت الأمة التي ستنبثق من حطام الدولة شيئاً مختلفاً، شيئاً له أهدافه الخاصة في الاستمرار كمؤسسة اجتماعية ، فعلى هذه الأمة أن تتطهّر لا من الاستغلال القومي فحسب ، بل ومن الاستغلال الطبقي أيضاً .

إستنكر باور بشدة النزوع القومي في النمسا والمانيا . وقال : « إن واجبنا الأساسي اليوم (١٩٠٩ – ١٩١٠) إنما يكمن في الكفاح والنضال ضد القومية » . لقد آمن باور بهذه الحقيقة رغم ان « امية متصلبة » قد تجفّل حشداً من الرفاق على حد زعمه . أثار هذا الاستنتاج اعتراض جوزيف ستراسر ، وهو أممي نمساوي آخر ، الذي نوّه بخبرته في مدينة ريتشنبرغ الملاصقة للحدود الالمانية في مقاطعة السوديت البوهيمية . ذكر ستراسر أن الهجوم العنيد هناك على القومية ، السائدة آنذاك ، قد أفزع بعضاً من الرفاق حتى القلّة من الاشتراكيين–الديمقراطيين . ومع ذلك فإن حصيلة ذلك كانت تربية الأعضاء على مواجهة مخاطر الشوفينية ، وازدياد أصوات الاشتراكيين الديمقراطيين مع مرور الزمن « إن لم يكن بسبب الموقف المتصلب للحزب ، فبالرغم منه على أية حال »[٦٠] .

ان الصعوبة البالغة لحل المشكلات القومية داخل « إطار الدولة القومية » النمساوية – الهنغارية قد اتضحت خلال المناقشة التي دارت بين رينر وألفرد ميسنر حول موضوع المدارس المنفصلة للأطفال التشيكيين . لقد اقترح رينر أن يكون للأقليات القومية الحق في إنشاء مدارس منفصلة إذا كان باستطاعتها

---

(٥٩) كارل رينر ١٩٠٩ – ١٩١٠ ، ص ٣١٤ .

(٦٠) باور ، في « النضال » ، المجلد ٣ ، ١٩٠٩ – ١٩١٠ ، ص ١٠٧ ، جوزف ستراسر ، في المصدر السابق ١٩١٠ ، ص ١٥٢ – ١٥٤ .

تمويل هذه المدارس . فردّ ميسنر قائلاً : ان وظيفة الحكومة المركزية هي حماية الضعيف ، وألحّ على ان المعاملة المتساوية يجب أن تؤمن من قبل الخزينة المركزية[٦١] .

حوالي العام ١٩١٤،وصلت القوميات العديدة في الامبراطورية النمساوية-المجرية إلى ما يشبه المأزق حيث أصبح التشريع البنّاء مستحيلاً تماماً . فكان لكل من الأقليات الرئيسية القدرة الكافية ، منفردة أو متحالفة مع اخرى، لكسر أي اقتراح تقدمه قومية أخرى . ولقد وصف باور بشكل محزن هذه الحالة بـ « الاستقلال الذاتي السلبي »[٦٢] .

التعريف الستاليني لمسألة الأمة :

عرّف ستالين ، في دراسة للمسألة القومية ظهرت عام ١٩١٣ ، الأمة كما يلي : « الأمة هي جماعة ثابتة من الناس تألفت تاريخياً على أساس جامعة اللغة والأرض والحياة الاقتصادية والتكوين النفسي الذي يجد تعبيراً عنه في الثقافة المشتركة »[٦٣] ، وهذا التعريف الذي يستند إلى القومية لا إلى الأمة - الدولة ، يختلف عن تعريف باور بتأكيده على أن الأرض المشتركة المتواصلة المتماسكة ، لا اللغة المشتركة فقط ، هي التي تشكل جزءاً أساسياً من الصورة .

ولقد انصب اهتمام ستالين على دحض نظرة الاشتراكيين الديمقراطيين النمساويين التي تضمنها برنامجهم في « برون » عام ١٨٩٩ . ويشير إلى ان باور وسبرنجر (رينر) يستعملان تعبير « الاستقلال الذاتي الثقافي القومي »

---

(٦١) الفريد ميسنر ، في « النضال » ، المجلد ١ ، ١٩٠٧ - ١٩٠٨ ، ص ٢٧٣ .

(٦٢) باور : « برنامجنا القومي وتكتيكنا » ، في « النضال » ، مجلد ١ ، ١٩٠٧ - ١٩٠٨ ، ص ٢٠٥ .

(٦٣) جوزيف ستالين : « الماركسية والمسألة القومية » ، الدار الأممية ، ١٩٤٢ ، ص ١٢ .

(الذي أيّداه) ، كمرادف لحق الامم في تقرير مصيرهـا . إلا ان ستالين ، بقبوله مبدأ تقرير المصير ، إنما كان يعارض معارضة قوية الاستقلال الثقافي القومي . وأعتقد أن هذا الشعار غير عملي وغير مرغوب فيه معاً. وبخصوص ممارسة الاستقلال الثقافي القومي ، كتب ستالين مشيراً إلى روسيا : « هل من الممكن أن نتصوّر ان بامكان ألمان المقاطعات البلطيقية وألمان عبر القوقاس أن يلتحموا في أمة واحدة ؟ »(٦٤) .

لقد وجد ستالين الاستقلال الثقـافي القومي أمراً غير مرغوب فيه لعدة أسباب : أولاً ، لأن الجماعات الثقافية القومية هي جماعات متداخلة طبقياً ، حيث يفترض بالبروليتاريا والبرجوازية أن يكونا أكثر تجانساً فيما بينهما من تجانسهما مع الطبقات الاجتماعية الأخرى من باقي السكان . إن القومية مبدأ بورجوازي على حد قوله : « إذا ما زُرعت في صفوف العمال ، فإنها ستسمم الجو وتنشر أفكاراً هدامة من عدم الثقة المتبادلة والإنعزال بين القوميات المختلفـة » . ثانياً ، رأى ستالين ان الاستقلال الثقافي القومي يشكل نصف المسافة في الطريق إلى الفيدرالية وبالنتيجة نحو الانفصال ، وهذا ما كان يحزنه ، وجاء بحالة التشيكيين كمثل كريه(٦٥) . وفضّل ، كباور ، أن تبقى القوميات الصغيرة ضمن الدولة متعددة القوميات ؛ إلا أن الآلية التي يحبذها ، والتي تفترض عدم ممارسة هذه القوميات حقهـا بالانفصال ، إنما تعني الاستقلال **الاقليمي** الذاتي فحسب .

لقد كُتب كرّاس ستالين في شباط عـام ١٩١٣ ، ونشر في مجلة « بروسفيشتينيه » في آذار – أيار من عـام ١٩١٣ . ولقد جاء تفنيد لينين لرأي باور في تعابير مشابهة إلى حد ما لتفنيد ستالين لباور ، علماً انه كتب في أيار وحزيران عام ١٩١٣ . لقـد لاحظ لينين ان باور بالذات قد حبّذ

---

(٦٤) المصدر السابق ، ص ٣٦ .
(٦٥) المصدر السابق ، ص ٣٩ ، ٦٥ – ٦٦ .

وحدة منظمات الحزب الاشتراكي الديمقراطي على مستوى محلي ، وقال ان فكرة باور ـ رينر الخاصة بالاستقلال الثقافي القومي « صورة مثالية انتهازية لشعب خسر الامل في بناء مؤسسات ديمقراطية متماسكة »[٦٦] .

وافق لينين على إستنتاجات ستالين الأخرى ؛ والحقيقة لقد وافق لينين على كل ما ورد في مقالة ستالين . إن هذه الواقعة، وواقعة الاعتراف بستالين كمنظّرٍ للبولشفيك حول مسألة القومية ، قد رفعتا مقاله عام ١٩١٣ إلى نص تعليمي في المسائل القومية ، للحركة الشيوعية العالمية برمتها . وهذا شرف لا يستحقه ستالين . إن كتابات باور ولينين حول هذا الموضوع هي أكثر شمولاً من كتابات ستالين، كما أن لينين بوجه خاص كان أكثر وضوحاً ومرونة في معالجته لهذا الموضوع . إن تعريف ستالين للأمـــة ، رغم تفوقـه على تعريف باور ، إلا أنه يقاسمه بعض نواقصه لأن كليهما قد توجه لمعالجة المسائل الخاصة بأوروبا الشرقية في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى ، ولم يكن أي منهما على معرفة واسعة تغطي الحقل بأكمله . صحيح أن القوميات كانت تنمو آنذاك رغم عدم توفّر وحدة اللغة أو الأرض أو التاريخ ؛ كما أن كثيراً من القوميات الأخرى ، التي تملك عين التركيب المتفـاوت ، ستتطور فيما بعد . وينوه جون . ش كاوتسكي قائلاً : « إذا تحدثنا عن الدول المتأخرة على وجه العموم فإننا لا نرى أي عامل إيجابي (في القومية) على الإطلاق ، بل مجرد كره لعدو مشترك ، للقوة الاستعمارية[٦٧] » . وبهذا المعنى تبـدو القومية كالطبقة الاجتماعية . وقال ماركس في هذا الصدد : « إن الأفراد المنفصلين (في البروليتاريا) لا يشكلون طبقة إلا إذا خاضوا معركة مشتركة ضد طبقة

---

(٦٦) مشروع بلاتفورم للمؤتمر الرابع للحزب الاشتراكي الديمقراطي الليتواني ، أيار ١٩١٣ ، « وملاحظات حول المسألة القومية » ، حزيران ١٩١٣ .

(٦٧) جون كاوتسكي : « القومية والشيوعية والتحول السياسي في البلدان المتخلفة » ، نيويورك ، ١٩٦٢ ، ص ٣٨ .

أخرى ؛ وإلا فإنهم سيكونون على طرفي نقيض كمتنافسين فيما بينهم »[٦٨] .

تبدو الصعوبات التي تواجه كلا التعريفين، حتى في ظروف أوروبا الشرقية، هائلة ، لأن كل دولة أُنشِئت أو ستنشأ ستحوي ، كما أشرنا سابقاً ، أقليات هامة من « قومية » أخرى ، لذا ستتنامي مبادلة الأقليات القومية أو يُطرد الذين لا ينتسبون إلى الجماعة القومية المسيطرة .

إن تعريف باور للقومية ، في شكله الأصلي، إنما ينطوي على قبول اعتبار اليهود أمة ؛ إلا أنه أقنع نفسه ، في مناقشة متكلفة إلى حد ما وكما رأينا سابقاً ، بأن اليهود يقعون خارج محاجّته . زد على ذلك ، أن باور قد اقترب ، بتنازلاته لنقاده ، إلى مواقفهم أكثر فأكثر . فتبنى وجهة نظرهم القائلة بأن لغة مستقلة وأرضاً محددة تشكلان خاصتين متميزتين ضروريتين في تكوين الأمة . أما ستالين ، الذي نظر إلى اللغة المشتركة والأرض المشتركة بوصفهما عنصرين ضروريين في تكوين الأمة ، فقد وضع اليهود خارجاً ونفى عنهم صفة الأمة أو القومية .

---

(٦٨) ماركس وانجلس : « الايديولوجية الألمانية » ، ص ٦٨ — ٦٩ .

٧

لينين وصياغة نظرية ماركسية في القومية

إن النواقص الواضحة في معالجة ستالين المسائلَ القومية قد قادت في السنين القريبة الماضية إلى دراسة ما كتبه لينين حول الموضوع من جديد . يمكننا الآن أن نرى أن لينين لم يصحح تعريف ستالين للمسألة في ذلك الوقت ، بيد أنه أفسح مجالاً في معالجته للموضوع لأمكنة وأزمنة أخرى غير أوروبا الشرقية قبل الحرب العالمية الأولى . لقد ملأ الكثير من الثغرات في دراسة ستالين ؛ وقدم المواد من أجل فهم الدور الجديد الذي تلعبه القومية في القرن العشرين . أما في تطبيقه الماركسية على مشاكل الاتحاد السوفياتي (وهذا موضوع يقع لسوء الحظ خارج نطاق هذه الدراسة) فقد افترق افتراقاً كلياً عن ستالين .

لقد شارك لينين في صياغة موقف «الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي» حول مسائل القومية في ١٩٠٣ ، ولعدة سنوات تلت بقي التحليل أو القرار الذي جرى تبنّيه آنذاك يحظى بتأييد جميع أجنحة الحزب ؛ كما أيده بليخانوف والمنشفيك على نحو لا يقل قوة عن تأييد لينين والبلاشفة له . لقد كان موقف الحزب يقضي بدعم مبدأ حق تقرير المصير دعماً لا تحفظ فيه وتطبيقه على قوميات روسيا القيصرية ، وتحقيق المساواة بين سائر القوميات

في الامبراطورية ، والضمان غير المشروط لحماية حقوق الأقليات القومية ، وعارض تنظيم الاتحادات النقابية على أساس الانتماء القومي[1] .

إلا أن المسألة القومية برزت في الحزب الروسي عندما انتشر نفوذ أفكار أوتو باور وكارل رينر في صفوف المنشفيك ، إلى درجة أعلن فيها مؤتمر لأعضاء الجناح اليميني، عقد في آب ١٩١٢ ، وقوفه إلى جانب « الاستقلال الذاتي الثقافي – القومي » . فبدأ لينين ، الذي كان حتى ذلك الحين ينظر بشكل رئيسي إلى المسألة القومية في علاقتها بحركة المستعمرات الصاعدة من أجل الاستقلال ، يعطي موضوع حق تقرير المصير في أوروبا اهتمامه الجدي ، وعاد في سلسلة من المقالات والاطروحات ، امتدت خلال فترة ١٩١٣ إلى ١٩١٦ ، إلى مراجعة موقف ماركس وانجلس وصياغة اقتراحاته الخاصة .

القومية كمقولة تاريخية

بما أن لينين كان يعتقد (على خطى ماركس) إن المبادىء العامة نسبية في الزمان والمكان ، لذا ناقش أفكار ماركس حول المسائل القومية والانتماء القومي على أساس ثلاث حقبات متمايزة، كلها حديثة. **الحقبة الأولى، ١٧٨٩–١٨٧١**، تمثل الخط الصاعد للبورجوازية، للحركات البورجوازية ـ الديمقراطية عموماً والحركات البورجوازية القومية بشكل خاص . انها حقبة الانهيار السريع لمؤسسات الحكم المطلق الاقطاعية البالية . **والحقبة الثانية ، ١٨٧١–١٩١٤** ، هي حقبة سيطرة البورجوازية التامة وتقهقرها ، وتحولها من طبقة تقدمية إلى طبقة رجعية بدرجة شرسة، بقيادة رأس المال المالي. لقد دعا بعض المؤرخين ، وفي عدادهم بعض الماركسيين ، هذه الحقبة بالحقبة الامبريالية ، وكان لينين يكتب أحياناً وكأن الامبريالية قد وصلت إلى أوجها في حوالي

---

(١) اسحق دويتشر « الاتحادات النقابية السوفياتية » ، لندن ١٩٥٠ ، ص ٩ .

العام ١٩٠٠ . بيد أنه جعل ، في تصنيفه الاصطلاحي ، عصر الامبريالية يبدأ في العام ١٩١٤ مع اندلاع الحرب العالمية الأولى ، التي توقع ، عن حق ، بأنها ستكون بداية مرحلة من الاضطرابات ، ستنتهي بإسقاط الرأسمالية في بلد بعد الآخر (٢) .

الامبريالية **كنظام** ، المتطابقة في الهوية مع الكولونيالية ، قد سبقت بالطبع بزمن طويل أولى حقب الكولونيالية . لذلك استعمل لينين تعبير « الحرب الامبريالية » لوصف الحروب الفرنسية والهندية (التي تعرف في أوروبا بـ « حرب السنوات السبع ») في فترة ١٧٥٦ — ١٧٦٣ ؛ وعلق قائلاً أن الحرب الامبريالية « أمر ممكن على أساس العبودية ، وعلى أساس الرأسمالية البدائية ، كما هي الحال على أساس الرأسمالية المعاصرة عالية التطور » (٣) .

كان لينين يعتقد ان القومية كانت ، في الحقبة الأولى من الحقب التي تكلم عنها ، (١٧٨٩ — ١٨٧١) قوة تقدمية ، كما هو عليه الأمر ، حيثما سعت الرأسمالية الصاعدة إلى إزاحة القيود الاقطاعية ؛ فتستخدم شكل الدولة القومية . وافترض أن سائر الامم ستتبع التطور ذاته ، وان الهند والصين ستتبعان « الطريق القومي » ، وتنتظمان في دولتين قوميتين (٤) . وفي الحقبة التي انتهت بعام ١٨٧١ « كان من الطبيعي تماماً أن تسترشد عناصر الديمقراطية الحديثة ، التي كان ماركس ممثلها ، بمبدإ لا جدال حوله ، مبدإ دعم البورجوازية التقدمية ... ضد الاقطاعية » (٥) .

---

(٢) لينين ، « في ظل راية مسروقة » ، المؤلفات الكاملة ، مجلد ٢٨ ، لندن ١٩٣٠ ، ص ١٢٦ — ١٢٧ . كتب في شباط ١٩١٥ .

(٣) كراس « يونيوس » ، المؤلفات الكاملة ، مجلد ١٩ ، ص ٢٠٤ . كتب في آب ، ١٩١٦ .

(٤) لينين : « البروليتاريا والحرب » ، محاضرة ألقيت في ١٤ تشرين أول ١٩١٤ ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٧ ، ص ٦٩ .

(٥) لينين : « في ظل راية مسروقة » ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٨ ، ص ١٢٨ .

وكان انجلس قد أكد في مقاله « البو والراين » أن « الامم الاوروبية العظيمة المليئة حيوية وقوة » قد امتصت عدداً من الامم الصغرى التي فقدت حيويتها، وأن حدود الامم العظمى أصبحت تتحدد « أكثر فأكثر » بواسطة « اللغة ومشاعر » السكان . لقد كان لدى انجلس ، كما لاحظنا قبلاً ، نزعة امبريالية الدول العظمى إلى حد ما في أيامه الأولى ، وقد أعذره لينين جزئياً على هذا الموقف على أساس أن الدول العظمى كانت تقدمية آنذاك ، وعلى أساس أن « لغة السكان ومشاعرهم » قد أُخذ بها افتراضاً . وهذه وسيلة لرسم الحدود اعتبرها لينين ديمقراطية [٦] . ان هذه الطريقة هي بالأحرى طريقة غير وافية لحسم هذه المسألة الشائكة ، ذلك أنه لم يكن واضحاً ان انجلس كان ينصح فعلاً بمبدأ تقرير المصير الذي أيده لينين بوجه عام . وقد تبنى لينين رأياً لماركس وانجلس يدين فيه التشيكيين لدورهم الرجعي الذي لعبوه في العــــام ١٨٤٨ ، لكنه استبعد الآراء التي لم تكن في صالح سلاف الجنوب عموماً ، أو التشيكيين في مرحلة تالية .

لم يدافع لينين عن معالجة انجلس الأولى للجزائر ، أو عن معالجة ماركس وانجلس للحرب المكسيكية عـــام ١٨٤٧ . لم يناقش المقالة الأولى اطلاقاً . وكل ما قاله عن الثانية ، في أحسن الحالات ، هو أن ماركس وانجلس قد غيرا رأيهما فيما بعد .

ان الاسس التي ارتكز عليها لينين للوصول إلى هذا الرأي كانت بالتأكيد مهزوزة بعض الشيء ، وكان يمكن أن تزجه في صعوبات لو انه حملهـا إلى نهايتها المنطقية . فهو قد وافق كاوتسكي على أن خطاب ماركس إلى « الاممية الاولى » حول الحرب الفرنسية – البروسية يشكل إدانة للحروب العدوانية ، ويوحي ضمناً ، بالتالي ، بإدانة العدوان الأميركي على المكسيك .

---

(٦) لينين « خلاصة المناقشة حول تقرير المصير » ، المؤلفات الكاملة ، مجلد ١٩ ، ص ٢٧٠ – ٢٧١ ، كتب في تشرين الأول ١٩١٨ .

الأمر المتقلقل حول هذا التفسير هو أن ماركس لم يكن ، رغم إدانته في البداية لنابوليون الثالث بسبب عدوانه (لم يكن ماركس حينذاك على علم ببرقية إيمس) ورغم تحذيره العمال الالمان من تأييد ضم الالزاس واللورين ، يملك فلسفة عامة في معارضة الحروب العدوانية . ان وجهـــة النظر العامة للمجتمع الديمقراطي كانت تعارض الحروب العدوانية، وقد استجاب ماركس لوجهة النظر هذه . لكن النظرية الماركسية حول الحرب تقول أن الحكم على أية حرب يجب أن يرتكز على خصائصها ؛ فتلك الحروب التي تساهم في التقدم ينبغي تأييدها ، والاخرى ينبغي شجبها وإدانتها .

من الممكن أحياناً أن تكون الجهة البادئة بالحرب ، كما كان ماركس يعلم جيداً ، هي التي تعمل من أجل التقدم . بيد أنه كان من الصعب مثلاً أن يوافق ماركس وانجلس على غزو ايطاليا للحبشة في ١٨٩٦ ؛ نعم ، لقد وقف جميع المعادين للامبريالية إلى جانب « مينليك » (امبراطور الحبشة) عندما هاجم الجند الايطالي وطرده خارجاً . لكن مسألة تحديد وتعريف سمات حروب العدوان مسألة محفوفة بالمهاوي ، كما تبين خلال فترة الحرب العالمية الأولى ، وقد ابتعد لينين تماماً ، وبحق ، عن الذهاب بعيداً في تطوير مضامين هذه الفكرة . وعلى أية حال ، لم يَتَبَنّ لينين ، في تأملٍ لأحداث الماضي ، الغزو الأميركي للمكسيك في العام ١٨٤٧ .

وقال لينين ، في مناسبة أخرى ، إن ماركس كان على حق في ذلك الوقت، لكن ينبغي تغيير موقفه مع تغير الأزمنة . ذلك كان تفسيره لتحول موقف ماركس من المسألة الايرلندية ، التي ناقشناها في الفصل الأول . كان ماركس وانجلس في الاربعينات يعتقدان أن ايرلندا سوف تربح أكثر مما تخسر بارتباطها مع انكلترا المتقدمة، خاصة وانهما توقعا من الشارتي « فيرغوس اوكونور » أن يقود الطبقتين العاملتين في كل من انكلترا وايرلنـــدا إلى

الديمقراطية ، ثم إلى الاشتراكية[٧] . وفيما بعد ذلك ، في الستينات ، تراجع ماركس وانجلس عن موقفهما وعملا بدأب من أجل الاستقلال الايرلندي .

تبنى لينين هذا التراجع على أساس : (١) أن الثورة الاجتماعية المتوقعة في انكلترا ، والتي كانت ستجعل من الحركة البورجوازية الديمقراطية والحركة القومية عموماً في ايرلندا أمراً غير ضروري ، لم تحدث ؛ (٢) لأن حركة قومية عامة قد نمت في إيرلندا في الستينات ، وكان على العمال البريطانيين أن يدعموها أو أن يدعموا على الأقل ما هو تقدمي فيها[٨] .

ولكن من الممكن لدارسي التاريخ الايرلندي أن يتساءلوا عمّا إذا كانت هناك حركة قومية شاملة عامة في الأربعينات لا تختلف من حيث المبدأ عن حركة الستينات ، وعمّا إذا لم تكن أقل استحقاقاً للدعم . نعم لقد تواجدت في الأربعينات حركة ثورية (« ايرلندا الفتية ») . وإلى حد كبير قرر ماركس في الستينات ان موقفه الأول كان على خطأ ؛ والنصوص التي يستشهد بها لينين تُظهر ذلك التحوّل بوضوح[٩] . وقول لينين أن ماركس وانجلس كانا متماسكين في معالجتهما المسألة الايرلندية ، وانهما اتبعا « سياسة بروليتارية منسجمة ومتماسكة » هو قول لا ينطوي على حذر علمي كافٍ . لقد كان لينين على يقين من أن ماركس وانجلس لم يكونا قانعين بالعمل كذَنَب للبورجوازيين الصغار الفينيانيين ؛ وكان يعتقد أنهما شجعا حركة ثورية يقوم بها (جميع) الشعب الايرلندي ويدعمها العمال البريطانيون[١٠] . يمكن

---

(٧) انظر أيضاً رسالة « الرابطة الديمقراطية في بروكسل » إلى « الديمقراطيين الأخويين في لندن » ، لندن ، ١٣ شباط ١٨٤٨ ، ومن بين الذين وقعوها نائب الرئيس ، كارل ماركس ، نشرت في « نجم الشمال » ، ٤ آذار ١٨٤٨ . المؤلفات الكاملة ، مجلد ٤ ، ص ٢٧٩ .

(٨) لينين ، المختارات ، مجلد ٤ ، ص ٢٧٩ .

(٩) رسالتا ماركس إلى انجلس ، ٢ تشرين الثاني ، و٣٠ تشرين الثاني ١٨٦٧ ، انظر أيضاً رسالة ماركس إلى انجلس ، ١٠ كانون الأول ١٨٦٩ .

(١٠) لينين ، المختارات ، مجلد ٤ ، ص ٢٧٩ — ٢٨٠ .

تسمية ذلك بالتفسير البنّاء . ربما كان أكثر الأمور أهميـة بالنسبة للظروف اللاحقة هو رأي لينين الذي يقول بأن الموقف الذي يجب أن تقفه البروليتاريا في بلد متقدم من مسألة ما إذا كانت مستعمرة ما يجب أن تستقل، إنما يتوقف على وجود أو عدم وجود حركة تحرر قومي في تلك المستعمرة .

إن حالة بولونيـــا دليل قويّ على موقف لينين ، ذلك أنها تبين أنه هو نفسه لم يتردد في تبني موقف مختلف عن موقف ماركس وانجلس ، عندمـا اقتنع بأن الشروط أو الظروف الأساسية قد تغيرت . لقـد عاش ماركس وانجلس في زمن كانت فيه الارستقراطية البولونية كلها راغبة في دعم مطالب الانفصاليين الجمهوريين في إقامة حكم ديمقراطي حر في بولونيا . أما الآن ، كما قال لينين ، فقد أخذت الارستقراطية تدعم الطبقة الحاكمة حيثما وُجدت وفي كل البلدان . هكذا تكون الطريق الوحيدة إلى استقلال بولونيـــا هي طريق الثورة الاشتراكية . ويستشهد لينين ، مستحسناً ، بنص لميهرنغ، الذي قال في ١٩٠٢ : « إن نهضة بولونيا اليوم ممكنة فقط من خـــلال الثورة الاشتراكية ، حيث ستحطم البروليتاريا الحديثة قيودها » . واستشهد لينين باستحسان أيضاً بنص لكاوتسكي، الذي كان قد كتب مؤيداً استقلال بولونيا، جاء فيه : « ان الاستقلال القومي ليس مترابطاً ترابطاً لا انفصام فيه بالمصالح الطبقية للبروليتاريا المناضلة بحيث يصبح الكفاح من أجله بدون شروط وفي ظل جميع الظروف أمراً ضرورياً »[١١] . ويضع لينين المسألة بالشكل التـالي :

« لا شك ان التناقض الطبقي قد دفع الآن [١٩٠٣] المسائل القومية إلى الوراء ، بيد أنه ... لا يمكن التأكيد بشكل قطعي أن بعض مسائل قومية خاصة لا يمكن أن تظهر ظهوراً مؤقتـــاً في

(١١) كاوتسكي ، في « الأزمنة الحديثة » ، ١٨٩٥ – ١٨٩٦ .

واجهة الدراما السياسية »[١٢] .

لقد كان للحزب الاشتراكي الديمقراطي البولوني الحق في أن يحرض في سبيل الاستقلال الكامل ، بل نُصح بأن يفعل ذلك ؛ لكن لينين أضاف : « اننا نُخضع لمصالح الصراع الطبقي دعمنا لمطلب الاستقلال القومي »[١٣] .

كانت فرنسا والمانيا وايطاليا أمثلة على البلدان التي كانت القومية فيها قوة تقدمية في فترة ١٧٨٩ – ١٨٧١ ، كما قال لينين . ويمكن للقوميـة أن تبقى قوة تقدمية في أجزاء أخرى من العالم بعد تلك الحقبة إذا توفرت فيها ظروف مشابهة لتلك الظروف . ففي حين أن البورجوازية الأوروبية أصبحت رجعية ، إلا أن البورجوازية في آسيا « ما زالت تسير إلى جانب الشعب وضد الرجعية » ، كما كتب في عام ١٩١٣[١٤] .

وبموجب نظرية لينين حول القومية ، ليس من سبب يقضي بأن لا تكون القومية قوة تقدمية في أي جزء من العالم وصلت فيه التطورات الاجتماعية – الاقتصادية إلى الطور الذي وصلته كل من الصين والهند . وقد بدا للينين ان نمو دول منفصلة قومياً في أوروبا الشرقية ظاهرة طبيعية . وأشار إلى أن الوصول إلى تحقيق انتصار كامل للانتاج السلعي يوجب على البورجوازية أن تسيطر على السوق المحلية ، وأن تشرف على أرض موحـدة سياسياً ويتكلم سكانها لغة واحدة ، في حين تزول جميع العقبات التي تقف بوجه تطور تلك اللغة وصهرها أدبياً . « إن تشكيل دول قومية هو إذن الإتجاه الذي تتبعه كل حركة قومية ... وتمثل الدولة غير المتجانسة قوميـاً حالة متأخرة أو استثنائية »[١٥] .

---

(١٢) لينين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٦ ، ص ٤٥٤ – ٤٦٣ .

(١٣) المصدر السابق . الفترة هي ١٩٠٢ – ١٩٠٣ .

(١٤) « أوروبا المتأخرة وآسيا المتقدمـة » ، نشر في « حركة التحرر الوطني في الشرق » ، موسكو ١٩٦٢ ، ص ٦٢ . كتب في أيار ١٩١٣ .

(١٥) المختارات . المجلد ٤ ، ص ٢٥٠ – ٢٥١ ، و٢٥٤ .

لقد كان لينين يعلم علم اليقين بوجود القومية كقوة صاعـدة بل تقدمية في أوروبا الشرقية . وكتب يقول :

« فيما يخص الأوكرانيين والروس البيض ، لم تصل الحركة القومية بعد إلى اكتمالها ... إن استيقاظ الرغبة لدى الجماهير في أن تمتلك لساناً قومياً وأدباً قومياً ما زال يسير قدماً هناك ... « والدفاع عن الوطن الأم » في هذه البلدان ما زال ممكناً أن يكون دفاعاً عن الديمقراطية واللسان القومي والحرية السياسية ضد الأمم الظالمة وضد الاقطاعية »[١٦] .

لقد استبعد لينين اقتراح باور الخـاص بـ « الاستقلال الذاتي القومي — الثقافي » باعتبـاره أداة بورجوازية يمكن أن تؤدي إلى شق صفوف العمال . « نحن نفضل الثقافة **الأممية** لا الثقافة القوميـة لمختلف البورجوازيات » . لكنه وقف على كل حال إلى جانب « الحكم والاستقلال الذاتيين عميقي النفوذ في مختلف الأقاليم التي يفترض فيهـا أن تنال ، إلى جانب أشياء أخرى ، حدوداً تتطابق مع الفوارق القوميـة »[١٧] . لقد كان المقصود بذلك هو الاستقلال الذاتي **الثقافي** ، بشكل لا يدع مجالاً لإعاقة النمو الاقتصادي للبلد ككل[١٨] . وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن لينين كان على العموم ذا نزعة مركزية قوية ، فإن هذا التنازل يبين مدى جدية اهتمامه بالمسألة القومية . وقد طرأ على موقف لينين والحزب البولشفي فيما يتعلق بالاتحاد الفيديرالي تغيير . فحتى عام ١٩١٧ كانا يعارضان بثبات الاتحاد الفيديرالي ؛ لكن لينين تكلم في صيف ١٩١٧ للمرة الأولى عن جوازية الاتحاد الفيديرالي ، وهكذا

(١٦) لينين ، « خلاصة المناقشة حول تقرير المصير » ، المؤلفات الكاملة ، مجلد ١٩ ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(١٧) « مشروع برنامج لمؤتمر الحزب الاشتراكي — الديمقراطي في لاتفيا » ، ١٩١٣ .

(١٨) « ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية » ، ١٩١٣ ، ص ١٦٧ .

مُهد الطريق أمام الاتحاد الفيديرالي لكي يكون المبدأ الموجه للاتحاد السوفياتي حين إقامته . وحول التمثل ، أجاب لينين باسم البوند اليهودي : أن أحسن الناطقين باسم اليهود ما كانوا يخافون التمثّل إطلاقاً ، وكان يجري على الدوام من خلال هجرة الفلاحين إلى المدن[١٩] .

أما فيما يتعلق ببعض المسائل التي كانت تحظى باهتمام الماركسيين النمساويين ، فإن لينين قدم الجواب التالي : جمهور السكان المحليين هو الذي يقرر حدود الوحدات المستقلة ذاتياً ، وجهاز الحكم في الدولة يثبّت ذلك . ينبغي انتخاب المجالس العامة للمدارس ديمقراطياً[٢٠] . أجهزة الادارة المحلية والمجالس التشريعية ذات الاستقلال الذاتي هي التي تقرر اللغة التي تستخدم في تصريف شؤون مؤسسات الدولة والمؤسسات الاجتماعية . وفي الاجراءات القضائية يحق لكل أقلية أن تجيب باللغة التي يقدم فيها الالتماس[٢١] .

لقد كان لينين يعارض بشكل مبدئي تقسيم الحزب إلى « فروع قومية » لكنه برهن على اقتدار رجل الدولة عندما أشار إلى أنه ينبغي الاحتفاظ بعدد معين من المقاعد في المؤتمر القومي لصالح تلك المناطق ، حيث كانت تنظيمات منفصلة قائمة بالفعل[٢٢] . واعتقد أيضاً أن المركزية في الحزب أمر ضروري لصالح الصراع القومي بالذات .

حق تقرير المصير

لم يكن لينين مؤيداً لتقرير المصير كمبدأ مطلق . وقد أكد على أن ليس

---

(١٩) المصدر السابق ، ص ١٤٩ — ١٥٠ .

(٢٠) رسالة إلى « شوميان » في باكو ، أيار ١٩١٤ ، « رسائل لينين » ، نيويورك ١٩٣٧ ، ص ٣٢٨ .

(٢١) مشروع لائحة حول المساواة في حقوق الأمم وحول الدفاع عن حقوق الأقليات القومية ، كتب في عام ١٩١٤ .

(٢٢) المصدر السابق ، ص ٣١ .

من مطلب ديمقراطي مطلق ؛ « ينبغي أن ينظر إلى المطلب الديمقراطي لا منعزلاً بل في نطاق العالم » . « كل مطلب ديمقراطي (بما في ذلك تقرير المصير) يخضع ، بالنسبة إلى العمال الواعين طبقياً ، إلى المصالح الاشتراكية العليا » . وقد أكد أيضاً أن : « مصالح عدد من الأمم الكبيرة جداً في أوروبا تحتل مكاناً أعلى من مصالح حركات تحرير الأمم الصغيرة » ؛ وأنّب الاشتراكيين – الديمقراطيين البولونيين بسبب تبنيهم القومية والانفصال كجزء من برنامجهم [٢٣] .

لقد أدّى تعرّض لينين للمسألة البولونية إلى تحديد موقفه من حق الأمم في تقرير مصيرها، هذا الحق الذي أثارت حوله روزا لوكسمبورغ التساؤلات، كما رأينا سابقاً . وكانت حجتها : عندما تدعم الحق بالانفصال فإنك تدعم القومية البورجوازية في الأمم المضطَهدة . فرد لينين قائلاً إن الأمر لم يكن كذلك :

> « **بقدر** ما تكافح بورجوازية الأمة المضطَهدة ضد المضطهِدة ، **بقدر ذلك وإلى هذا الحد** ، نحن دائماً ، وفي كل حالة ، وبحزم أشد من حزم الآخرين كلهم ، نقف إلى **جانبها**، لأننا أكثر أعداء الاضطهاد صلابة وانسجاماً ... إن للقومية البورجوازية في **كل** بلد مضطهَد محتوى ديمقراطياً عاماً موجهاً **ضد** الاضطهاد، واننا ندعم هذا المحتوى دعماً **مطلقاً** ، مميِّزين إياه عن الاتجاه البعض نحو الاستبعاد القومي لكل من هو خارج قوميتهم ، ومحاربين ضد اتجاه البورجوازية البولونية نحو اضطهاد اليهود ، الخ ، الخ » .

قال لينين ان البروليتاريين ضد الامتيازات الخاصة لأية أمة ، لذلك فهم يقفون أيضاً إلى جانب بورجوازية الأمة الخاضعة للاضطهاد . « البروليتاريا...

---

(٢٣) « خلاصة المناقشة حول تقرير المصير » ، ص ٢٨٥ – ٢٨٦ ، « كاريكاتور الماركسية والاقتصادية الامبريالية » ، ١٩١٦ ، المؤلفات الكاملة ، مجلد ١٩ ، ص ٢٤٣ .

تقيِّم كل مطلب قومي، وكل انفصال قومي، **من زاوية** نضال العمال الطبقي». ولكن لينين لم يكن لديه شك في أن صيانة الحق بالانفصال، والمبدأ العام في حق الأمم في تقرير مصيرها أمر سليم: «إن هناك ألفاً من العوامل، التي لا يمكن رؤيتها، ستقرر ما إذا كان مصير أوكرانيا، مثلاً، سيؤول إلى دولة مستقلة. وبصرف النظر عن أية تخمينات لا طائل وراءها، فإننا نتمسك بأمر لا مجال للشك فيـــه، وهو حق أوكرانيا في أن تشكل دولة خاصة»[٢٤].

إن المبدأ العـــام، أي «الحق المطلق» الذي كان لينين يؤكده، ليس «الحق الطبيعي» الخاص بتقرير المصير، لكن الحق بمقاومة الاضطهاد الذي يتطابق دائماً مع مصالح العمال في نضالهم من أجل الاشتراكية والحرية. لذا يبدو أن كونو القومي، الذي سخر من لينين لاعتقاده «بالحقوق الطبيعية» حسب المعنى الذي كان سائـــداً في القرن الثامن عشر، قد أخطأ النقطة الرئيسية عند لينين[٢٥].

نعم إن هناك حدوداً معينة، تقيد حق تقرير المصير، حسب رأي لينين.

ففي مقالته «أطروحات حول المسألة القومية»، التي كتبها في حزيران، ١٩١٣، قال لينين: «إن على الاشتراكيين الديمقراطيين (قاصداً الحزب في روسيا برمتها) أن يقرروا في كل حالة مفردة ما إذا كان من صالح الحركة البروليتارية الأممية أن تمارس أية جماعة قومية حقها في تقرير المصير وتنسحب من الوطن الأكبر». وأضاف أن البولونيين والفنلنديين كانوا «الأكثر تطوراً على الصعيد الثقافي والأكثر تحرراً» من سائر القوميات التي تتألف منهـــا الامبراطورية

---

(٢٤) المختارات، مجلد ٤، ص ٢٦٥ — ٢٦٨.

(٢٥) انظر كاوتسكي: «تحرر الأمم» في «العصور الحديثة»، ١٩١٦ – ١٩١٧، ص ١٤٦.

الروسية. وإن بامكان هذين الشعبين أن يمارسا بشكل سهل وطبيعي « أكثر من غيرهما حق الانفصال »[26] . يبدو هذا الموقف مشابهاً إلى حد بعيد للحجج التي يستخدمها المدافعون التبريريون التقليديون عن الكولونيالية ، هؤلاء الذين يؤكدون عادة أن ثمة مستعمرات « ليست مهيأة » لأن تحكم نفسها بنفسها . بيد أن لينين قد دعم بالممارسة العملية حصول فنلندة على استقلالها ، ووافق في النهاية على استقلال بولونيا أيضاً .

وقد جاء لينين أيضاً بقيد آخر يحد من حق تقرير المصير . وقال لنفترض أن هناك « عدداً من الأمم على أهبة الانطلاق في ثورة اشتراكية ... بينما تلعب أمم أخرى دور الحصون الرئيسية للرجعية البورجوازية – عندها يتوجب علينا أن نقف إلى جانب الحرب الثورية ضد هذه الأمم الأخيرة ، بغية سحقها وتحطيم جميع مواقعها ، أياً كانت الحركات القومية الصغيرة التي تظهر أو تنشأ فيها » (جيورجيا ؟)[27] .

بيد أن لينين أعلن بصراحة تامة، تكراراً ، إن الاشتراكيين الديمقراطيين في البلدان الكبيرة ملزمون بواجب القتال ضد كل شكل من أشكال الاضطهاد القومي وبدعم حق كل قومية في تقرير مصيرها . ولم يكن ماركس وانجلس قد ذهبا إلى هذا الحد الذي ذهب إليه لينين .

لم يكن هذا الإصرار مفتقراً إلى الانسجام مع تشديد لينين على فكرة الوحدات القومية الكبرى . فالأمر هو ، كما جاء في كراس تم طبعه خلال الحرب ، « إن الدفاع عن هذا الحق [حق تقرير المصير] لا يعني التشجيع بأي شكل على تشكيل دول صغيرة ؛ بالعكس ، إنه يقود إلى تشكيل حكومات واتحادات حكومات أكبر وأكثر حرية وأكثر شجاعة ، وبالتالي

---

(٢٦) المؤلفات ، المجلد ٢٤ ، ص ١٠٢ – ٣٠٣ .

(٢٧) « خلاصة المناقشة حول تقرير المصير » ص ٢٨٧ .

أوسع وأكثر شمولية »[٢٨] .

إن اتحاد الدول فيما بينها يجب أن يتم طوعياً ، « على أساس ديمقراطي وأممي حقيقي ، **ولا يمكن التفكير** بذلك دون حرية الانفصال »[٢٩] . والاشتراكي الذي ينتمي إلى أمة كبرى أو أمة تمتلك مستعمرات ولا يدافع عن هذا الحق هو شوفيني »[٣٠] .

لا شك ان لينين كان يعتقد ، مع ماركس ، أن الأممية الحقة يمكن أن تتحقق مع الاشتراكية فحسب ؛ لكنه تبنى أيضاً الحق بالانفصال كأمر يسبق الثورة الاشتراكية . وكان عارفاً قبل ١٩١٧ أن نجاح الثورة الروسية يمكن أن يحدث تحولاً في موقف القوميات الصغيرة في روسيا القيصرية ، وسعى إلى أن ينال معاونتها النشيطة في أحسن الأحوال ، وحيادها الودي في أسوأ الأحوال . إلا أن موقفه هذا حول هذه النقطة كان يرتكز على شيء أبعد من الانتهازية ؛ لقد كانت له جذور مبدئية .

نظرية الطبقة « القومية » *

لم يكن لينين ، الذي كان ينطق باسم البروليتاريا الثورية ، معارضاً من حيث المبدأ سائر التحالفات ، بل تلك التحالفات التي تتم مع تجمعات رجعية . وحينما دخل حزب الطبقة العاملة في اتحاد مع البورجوازية التقدمية ، فالأحرى أن يتم ذلك من وجهة نظر تهدف إلى **قيادة** التحالف **لا** التبعية لقيادة البورجوازية . وقد شرع في وضع هذا الجزء من نظريته موضع التنفيذ

---

(٢٨) زينوفييف ولينين ، « الاشتراكية والحرب » ، منشور ، ١٩١٥ ، المؤلفات ، مجلد ٢٨ ، ص ٢٣٥ .

(٢٩) « البروليتاريا الثورية وحق الأمم في تقرير المصير » ، ١٩١٥ ، في المصدر السابق ، ص ٣٧٣ .

(٣٠) « الاشتراكية والحرب » ، ص ٢٣٥ .

* راجع الفصل الثالث ، ص ١٠٤ .

حالما عاد إلى روسيا في شباط ١٩١٧ ، وقد نجمت عن ذلك نتائج أثرت على تاريخ العالم . فالسير وراء البورجوازية سيكون مثلاً على « الذيلية » ، التي كان يدينها دائماً . ولينين لم يفسر إشارات ماركس العـــابرة إلى « الطبقة القومية » بمعنى يدعو حزب العمال إلى التخلي عن استقلاله أو قدرتـــه على الإمساك بزمام المبادرة .

إن لينين قد اعتبر ، انسجاماً مع فكرته القائلة بأن الأمم ستجتاز نفس الطريق، البلدان الآسيوية هي بالضبط في بداية مرحلة تكون فيها البورجوازية طبقة تقدمية ، ويمكن للبروليتاريا أن تدخل في تحالف مناسب معها . ففي الصين بوجه خاص حيث «توجد الآن بورجوازية ليبيرالية» حققت ، بتحالفها مع « الديمقراطية الفلاحية » ، بعض التقدم ، رغم أن البروليتاريا إما غير موجودة أو عاجزة تماماً (١٩١٢) . وبالمناسبـة ، لا يوجد في ملاحظات لينين حول الصين أية مواقف أبوية ؛ فقد كتب قائلاً في معرض حديثه عن أفكار صِن يات صِن : « اننا إزاء إيديولوجية عظيمة حقـــاً لشعب عظيم حقاً »[٣١] .

يقال أحياناً : حيث يوجد بلد متأخر ليس فيه طبقة بورجوازية ، يتمثل الخط الماركسي السليم في المساهمة في خلق طبقة كهذه ثم السير خلف قيادتها. إننا لا نجد في أي من كتابات لينين دعوة إلى تبني هذا الخط ؛ وبالفعل فإن هذا الخط يبدو لنا متعارضاً مع روح تعاليمه . فهناك حيث لا ينعدم وجود البورجوازية وحسب ، بل طبقة الكسبة أيضـاً ، ما زال أمراً صحيحاً ، حسب آراء لينين، أن يُرفع شعار حق تقرير المصير. إن مثل هذه الشعارات إنما تُرفع « من أجل جميع الشعب العامل ، من أجل جميع الشعب ... وحتى بالنسبة إلى تلك البلدان المستعمرة حيث لا يوجد عمال ، وحيث يوجد عبيد

---

(٣١) « الديمقراطيـــة والشعبية في الصين » ، و « الصين تولد من جديد » ، نشر في ١٩١٢ ، المختارات ، المجلد ٤ ، ص ٣٠٥ – ٣١١ و ٣١٢ – ٣١٣ .

وملاكو عبيد فقط ، الخ ، فإن رفع شعار « حق تقرير المصير » ليس أمراً **غير** منافٍ للعقل وحسب ، بل **ملزم** لكل ماركسي » [٣٢] .

حروب المقاومة ضد الامبريالية

عندما تكون البورجوازية طبقة تقدمية تبني الأمة ، وتحطم الاقطاعية ، وتناضل للقضاء على الامبريالية أو تحاول التخلص منها ، فإنها تستحق تأييد ودعم كل من الطبقات العاملة في البلد المعني وفي البلد الامبريالي : هذا ما ارتآه لينين دون أي تردد أو تساؤل . ومن ناحيـــة أخرى ، عندما تناضل ضد الامبريالية طبقة رجعية ، لا تعود المسألة على مثل هذه البساطة .

إن مراعاة مبدأ حق تقرير المصير تؤدي إلى التسليم بالوقوف إلى جانب التمرد القومي . « نحن نقف إلى جانب التمرد **القومي** » ، هكذا قال لينين ، ولكنه أردف : بيد أننا لسنا إلي جانب كل تمرد ، ولسنا ، بشكل خاص ، إلى جانب تمرد الولايات الجنوبية في الولايات المتحـدة في العام ١٨٦٣ [٣٣] . حتى التمردات ضد الامبريالية يجب أن تكون قوميـــة حقاً لكي تنال الحق بالتأييد . وقد كتب لينين : « **ليس** من واجبنا أن ندعم كل صراع ضد الامبريالية . إننا **لن** ندعم صراع الطبقات الرجعية ضد الامبريالية ؛ إننا **لن** ندعم انتفاضة الطبقات الرجعية ضد الامبريالية والرأسمالية » [٣٤] .

بيد أنه انتهى في نفس المقال إلى القول : « [نحن لا نستطيع] أن **نمتنع** عن دعم أي نضال **شعبي جدي** ضد الاضطهاد القومي » [٣٥] . المضمون واضح هنا ، بمعنى أنه حتى ولو كانت الطبقات الرجعية هي المبادرة في الصراع

---

(٣٢) لينين : « كاريكاتور الماركسية » ص ٢٥١ .
(٣٣) رسالة إلى نيكيدزه ، تشرين الأول ، ١٩١٦ ، المؤلفـــات ، مجلد ١٩ ص ٢٦٦ .
(٣٤) « كاريكاتور ...» ، ص ٢٥٠ .
(٣٥) المصدر السابق ، ص ٢٤٨ .

ضد الامبريالية في بلد مستعمَر أو شبه مستعمَر ، فإن واجب العمال دعم هذا النضال منذ اللحظة التي يحظى فيها بدعم جماهيري هـام في كل من البلد المتخلف والبلد الامبريالي .

هل كان ممكناً أن يستنكف لينين عن دعم عبد القادر ، الشيخ البدوي الرجعي ، في الجزائر حين قبض الفرنسيون عليـة في ١٨٤٨ ؟ نعيد التذكير هنا بأن انجلس قد امتنع عن دعمه . أو هل كان لينين سيهاجم الفرنسيين كامبرياليين ، كما فعل انجلس بعد عشر سنوات من ذلك ؟ هل كان لينين سيمتنع عن تقديم الدعم للانتفاضة الهندية في ١٨٥٧ – ١٨٥٩ ، على أساس انها كانت بقيادة الطبقات الرجعية ؟ يبدو أن بالم دات ، الماركسي الهندي – البريطاني المعاصر ، بعيد عن تأييدهـــا ، كما يفهم من نظرته إلى الأحداث الماضية ، إسوة بما فعله ماركس بالذات . أو هل كان لينين سيحييها كحرب استقلال ويتخذ منها موقف العطف ، كما سيفعل معهد ماركس – انجلس – لينين في موسكو بعد وقوع الحادثة بمئة عام ؟ ليس لدينا دليل محدد سوى مدى التأييد الشعبي الذي حازته الحركات التي نحن بصددها .

لم يكن لينين ، بالتأكيد ، ليرغب في أن يرى الشيوعيين يضعون أنفسهم لأي سبب كان تحت أمر حـــاكم سينزع سلاحهم فيما بعد وسيرمي قادتهم بالرصاص كما حدث مؤخراً في أحد بلدان الشرق الأوسط. لكننا لا نستطيع إلا أن ننوه بأن الماركسية في القرن العشرين تقضي بمعارضة الامبريالية كنظام وبمعارضة العدوان الامبريالي حتى ولو كانت الطبقـة التي تقود تلك المعارضة طبقة رجعية . فلا التأييد للطبقات الرجعية بل المعارضة للامبريالية هو بكل تأكيد الشعار الملائم في هذه الحالات . يجب أن نتغاضى عن انجلس التبريري الامبريالي وننظر إلى انجلس المعادي للامبريالية ، شأن لينين عندما تغاضى عن حكم ماركس وانجلس حول عدوان الولايات المتحدة على المكسيك في ١٨٤٧، وأخذ بإدانة « الأمميـة الأولى » للحرب العدوانية بعد ذلك بثلاثة وعشرين

عاماً . لقد أيد لينين بشدة الحروب القومية ضد الدول الامبريالية ؛ واعتبر هذه الحروب حروباً **تقدمية وثورية** (التشديد للينين) .

إن واحدة من أقوى الحجج المؤيدة لحروب المستعمرات من أجل التحرر، والمؤيدة بشكل عام للحركات المعادية للامبريالية ، تقول أن هذه الحركات تعني مهاجمة الرأسمالية في أضعف مواقعها . لكن نظرية الحلقة الأضعف تنتمي إلى حقبة متأخرة . فقبل الثورة الروسية كان الاعتقاد السائد يقول إن على الحركات المعادية للامبريالية أن تجتاز الطريق حتى نهايتها – أي أن تصل إلى أعلى نقاط تطورها – قبل تحولها إلى الاشتراكية . ولهذا ، فقد كان السؤال في الحقبة التي نبحث على الشكل التالي : هل ستؤدي الحركات المعادية للامبريالية إلى الاسراع بالتطور الرأسمالي أم إلى إعاقته ؟ لقد اتجه المراجعون (التحريفيون) في حججهم إلى القول التالي : لما كانت هذه الحركات تعيق تطور الرأسمالية تطوراً كاملاً ، فإنها تميل في الواقع إلى تأجيل مجيء الاشتراكية، التي ما زال هؤلاء المراجعون يدّعون الإيمان بها . وحاجج لينين في اتجاه معاكس :

« المعارضة للسياسة الكولونيالية وللنهب العالمي ، من خلال تنظيم البروليتاريا ومن خلال الدفاع عن حرية النضال البروليتاري ، لا تحد من تطور الرأسمالية بل تسرع به ، لأنها تجبر الرأسمالية على استعمال وسائل وأساليب أكثر مدنية وأعلى تقنية »[٣٦] .

وكانت روزا لوكسمبورغ قد حاولت أن تبرهن بأن شكل الدولة الأكثر ملاءمة لتطور الرأسمالية هو الدولة اللصوصية . فردّ لينين بأن هذه الحجة تتناقض مع التجربة في آسيا ، حيث كانت اليابان بالضبط ، وهي البلد الذي

---

(٣٦) رسالة إلى غوركي ، ٣ كانون الثاني ١٩١١ .

حافظ على استقلاله ، هي المكان الذي شهد التطور الرأسمالي الأكثر سرعة [٣٧] .

الطبقة العاملة والقومية

في حين أن لينين قد اعترف ، على الصعيد النظري ، أن هناك حالات معينة يكون فيها للطبقة العاملة حق، بل واجب المساهمة في الحركات القومية الانفصالية ، إلا أن موقفه كان في الحالات العيانية دائماً تقريباً موقف الاستنكار لمساهمة الطبقة العاملة في الحركات القومية ، إن لم نقل الادانة الشديدة .

في العام ١٩٠٣ كان لينين قد لاحظ وجود تنافر أو تباعد قومي بين صفوف الطبقات العاملة ، واعتبر ذلك جزءاً من التراث الأوتوقراطي [٣٨] . وكتب بعد ذلك بعشر سنوات توجيهاً للجنة المركزية للحزب وجهته إلى عمال جميع القوميات في روسيا ، دعت فيه « إلى معارضةٍ في منتهى الصلابة والحسم لعدوانية قومية الرجعيين ، وإلى النضال ضد جميع مظاهر القومية بين صفوف الجماهير العاملة » . وفي مناقشته لأفكار ماركس حول المسألة الايرلندية ، علق قائلاً إن الطبقة العاملة « يجب أن لا تجعل من المسألة القومية صنماً » . وفي مقاله « ملاحظات نقدية حول المسألة القومية » (كانون الأول ١٩١٣) قال إن الماركسية « متضاربة مع القومية » . وذكّر البروليتاريا في ١٩١٤ بواجبها الذي يقضي « بالقتال ضد كل نزعة قومية ، وقبل كل شيء ضد النزعة القومية لدى الروس الكبار » .

---

(٣٧) حول حق الأمم في تقرير المصير ، شباط ، ١٩١٤ ، المختارات ، مجلد ٤ ، ص ٢٥٣ .

(٣٨) لينين : « المسألة القومية في برنامجنا » ، ١٩٠٣ ، المؤلفات ، مجلد ٤ ، ص ٤٦٢ .

هناك سبب خاص جعل لينين يجد في النزعــة القومية أذى تنظيميــاً . إذ كانت تشق الحزب المركزي الموحد الذي كان يحاول بناءه وتجعله فروعاً أو قطاعات قومية محتربة ، فينجرف كل قطاع (كما اعتقد هــو) في تيار بورجوازيته . وأخذ يميل إلى النظر إلى النزعة القومية بوصفهــا أوهاماً أو أحكاماً بورجوازية مسبقة قبل كل شيء ، وقدم أكثر من تأييد لفظي لفكرة باور القائلة أن القومية الحديثة من خلق البورجوازية .

واعتقد لينين أن الحركة القومية في أوروبا الغربية قد كفت عن أن تكون قوة بناءة ؛ إنها لم تعد تستطيع أن « تخلق أي شيء تقدمي ، أي شيء قادر على رفع جماهير شعبية جديدة إلى حياة اقتصادية وسياسية جديدة »[٣٩] . « الآن تخاف البورجوازية من العمال ، وتسعى للتحــالف مع ... الرجعية ، وتخون الديمقراطية ، وتؤيد اضطهاد الأمم أو تعارض مساواتهــا ، وتضعف معنويات العمال بالشعارات **قومية النزعة** »[٤٠] . لقد أصبحت البورجوازية « طبقة رجعية منحطة ، فاسدة وميتــة داخلياً » ، وأصبحت أطر الدول القومية — البورجوازية عقبة أمام النمو الحر لقوى الانتاج[٤١] . ولما كان الناطقون الرسميون باسم الحركة الماركسية في الغرب يستخدمون ذات التحليل والتعابير ، فإنــه قد بدا كأمر لا يمكن تصوره بالنسبة للينين أن يسير البروليتاريون الواعون طبقياً إلى الحرب بقيادة البورجوازية .

كان كاوتسكي قد حاول أن يضع « الدافع الأممي » عند العمال في مقــابل الدافع القومي . ولم يكن نجاحه كبيراً . وكان لينين مهتماً بالتأكيد أيضــاً بالأممية ، لكن ما إن اندلعت الحرب حتى واجــه الأمر بشجاعــة معلناً أن القرار الخاص بما سيكونه الموقف الواجب اتخاذه من الحرب هو قرار يتخذ

---

(٣٩) المؤلفات ، مجلد ١٩ ، ص ٢٢٥ .

(٤٠) المؤلفات ، مجلد ٢٧ ، ص ٩٥ .

(٤١) المؤلفات ، مجلد ١٨ ، ص ١٢٩ .

محلياً ، وأطلق شعار « هزيمة الوطن الامبريالي » ، وتحويل الحرب الامبريالية إلى حرب أهلية (طبقية) . لم تكن هذه النظرة بلا سابقة ، إذ أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي لم يولِ اهتماماً بالحرب الروسية – اليابانيـة ؛ وكان لينين قد أشار إلى « مغامرة القيصر المجرمة المخزيـة في منشوريا » ، في العام ١٩٠٤ .

ربما اعتقد البعض أن لينين في مواقفه غير الحيادية بل المعارضة معارضة نشيطة للسلطة انما كان يواصل بكل بساطة مواقفـه التي أصبحت مغروسة فيه خلال عقدين من النزاع مع النظام. ومع ان هذا التفسير لا يمكن استبعاده كلياً ، إلا أنه ينبغي أن نلاحظ أن بليخانوف ، الذي لم يمضِ وقتاً مريحاً في ظل حكم القيصر رغم اعتداله النسبي ، قد عارض انتفاضات ١٩٠٥ ، فقدم بذلك مساعدة موضوعية لحكومة القيصر في الحرب الروسية – اليابانيـة ؛ أما نزعته الوطنية في العام ١٩١٤ وبعده فكانت على درجة من الشهرة جعلته مرشحاً مفضلاً لدى الجنرال كورنيلوف لاحتلال مقعد وزاري (٤٢) .

في آب ١٩١٤ اشتبكت اثنتان من الدول الثلاث العظمى في القرن التاسع عشر في قتال حاد . وكانت المسألة ، كما وضعتها روزا لوكسمبورغ ، كالتالي : إما الامبريالية أو الاشتراكية . وربحت القومية الجولة الأولى ، كما كان انجلس قد تنبأ ؛ لكن توقع انجلس المتشائم حول تأثيرها في الحركة الثورية في روسيا لم يتحقق ، إذ لم يكن للقومية الكلمة الأخيرة .

لقد اعترف كل من ماركس ولينين بوجود مشاعر حب الوطن ، لكنهما لم يدينا هذه المشاعر في حد ذاتها ، بل استحسناها بالأحرى بوصفها مشاعر نبيلة ، شرط ألا توضع البتة في خدمة الطبقة المستغلة . لم يـكن للأممية العمالية احتكاك بالعامل الفرد إلا بشكل غير مباشر . وكان ممكناً تجسيد

---

(٤٢) لويس ميناش ، مجلة « العلم والمجتمع » مجلد ٣٩ ، عدد ٣ ، صيف ١٩٦٥ ، ص ٣٤٢ .

الأممية العمالية التي اقترحتها الأممية الثانية من خلال تنظيمات قومية فقط ، فاندحرت بسهولة ، في محاولتها استقطاب الولاء ، أمام المزاعم القومية .

الجواب على السؤال فيما إذا كانت الماركسية قبل الثورة الروسية قد بسطت أو طوّرت أية فلسفة حول النزعة الوطنية في الدولة الاشتراكية يجب أن يكون بالنفي . إن كلاً من ماركس ولينين قد اعتقد أن الثورة الاشتراكية سوف تحدث بشكل متزامن تقريباً في البلدان الصناعية المتقدمة، التي لن تواجه مشكلة الدفاع عن نفسها كمشكلة مباشرة .

تقرير المصير القومي في ظل الاشتراكية

كان لينين نافد الصبر بالأحرى مع أولئك الذين يتساءلون عمّا إذا كانت الاشتراكية ستراعي رغبات السكان عندما تُخطط الحدود . وكانت ردة الفعل الأولى لديه : « بكل تأكيد ! » . وكانت ردة الفعل الثانية : أن الأمر لم يكن ذا أهمية خاصة في أية حال :

« عندما تنظم الاشتراكية الانتاج **دون** اضطهاد طبقي وعندما تضمن العيش الكريم **لجميع** أعضاء الدولة ، فإنها تفسح **المجال كاملاً** « لعواطف » السكان ، وبفضل ذلك بالضبط تسهل وتعجِّل بدرجة كبيرة إقامة التآلف والاندماج بين الأمم »[٤٣] .

اعتقد لينين أن جاذبية الدولة الكبيرة تحت لواء الاشتراكية ستكون قوية بشكل يمكن أن تزول فيه تقريباً مسألة الانفصال . لكنه أضاف ، بما يملك من توازن رائع كان الصفة المميزة لجميع كتاباته : « إن كره – وهو كره مشروع تماماً – الأمة الخاضعة للاضطهاد لمضطهديها **سيستمر** إلى وقت ما »[٤٤] . كان ماركس ولينين على ريبة بالنزعة الوطنية ، التي دعاها

---

(٤٣) « خلاصة المناقشة حول تقرير المصير » ، ص ٢٧١ .

(٤٤) المصدر السابق ، ص ٢٥٥ .

باكونين بـ « المشاعر الضيقة ، المتنفجة ، المعادية للانسانية ، والوحشية في بعض الأحيان »[٤٥] . وقد لاحظ لينين المرة تلو الأخرى أن الظروف أو الشروط الاجتماعية والاقتصادية التي تولد المالك الصغير تعطي ثباتاً خاصاً لواحدة من « أكثر الأوهام أو الآراء المسبقة العميقة الجذور للبورجوازية الصغيرة ، أي أوهام الأنانية القومية وضيق الأفق القومي »[٤٦] .

يميل الانسان إلى أن يتجه بولائه بشكل أساسي بالأحرى نحو الجماعة التي ينتمي إليها لا نحو هدف محدد . وقد حاول كاوتسكي ، في نقده لباور ، أن يستنتج أن الاتحاد النقابي والحكومة والطائفة المهنية ، وكل تشارك أو تجمع إنساني في الواقع هي جماعة Gemeinschaft. وأجاب باور أن كاوتسكي قد أساء فهم معنى التعبير ، وأنه — أي باور — على حق : ما دام استمرار البقاء هو القانون الأول للطبيعة ، لذا يتجه الناس في وقت الأزمة إلى العمل جماعةً بالطريقة التي تحافظ بشكل أكثر فعالية على بقاء أنفسهم وعائلاتهم . فالنقابة ، والتنظيمات الأخرى التي ذكرها كاوتسكي ، قد بُنيت من أجل هدف معيَّن ، ولا تستحق كامل ولاء الانسان .

ولكن هل تستحق الأمة ذلك ؟ من الواضح أن الأمة الحديثة ، بمعنى سكان دولة معينة ، لا تستطيع أن تدّعي هذا الحق ، على نحو الولاء الذي كانت تطالب به القبيلة البدائية اللاطبقية أفرادها . وذلك لأن الدولة الحديثة دولة طبقية ، والولاء لهذه الدولة ، أو للأمة (وهي الصياغة البديلة للدولة) ، هو ولاء لأغراض وأساليب الطبقة الحاكمة في النظرية الماركسية . لذا فإن العمال وإنْ محضوا ولاءهم لدولة معينة ، إلا أن هذا الولاء يبقى محدوداً في الزمان والمكان .

---

(٤٥) باكونين « الدولوية والفوضوية » ، ص ١١ .

(٤٦) المؤلفات (بالروسية) ، المجلد ٣١ ، ص ١٢٨ .

لقد اقترح ماركس أن يكون ولاء الطبقة العاملة الرئيسي للأممية العمالية، وقبل باكونين بهذه الفكرة. لكن هـــذا المفهوم أمر صعب. فالفكرة الأصلية في الجماعة Gemeinschaft هي التشارك وجهاً لوجه، حيث يعرف كل عضو الأعضاء الآخرين معرفـة شخصية من جميـع الجوانب. ودعا لينين إلى ولاءٍ للطبقة العاملة بمعناه الثوري، أي للثورة البروليتارية؛ ومن هنـا جاء شعار « هزيمة الوطن الامبريالي »، باعتبار ان هذا الوطن بالذات يعمل ضد مصالح البروليتاريا. وللسبب عينه، سيكون ولاء العمال بعد الثورة لمصالح الثورة. ولم يستطع لينين أن يفهم كيف يمكن للعمال في أي بلد، كبولونيا مثلاً، أن يقدموا ولاءهم (لبورجوازية) بلدهم على ولائهم للثورة.

وفيما تبقى، لم يتقدم لينين إلى موقف خاص يتعدى الموقف الذي نلقاه في ثنايا مفاهيم ماركس، كما لخصناها في نهاية الفصل الثالث.

القومية في عصر الامبريالية

كان لينين يكتب في عصر الامبريالية، وكان يعي ذلك. أما ماركس وانجلس فقد حررا « **البيان الشيوعي** » عندما كانت البورجوازية المتاجرة تفتح السوق العالمية، وتحطم الحدود القومية في سبيل ذلك. كتب لينين في عصر أخذت البورجوازية تصبح فيه،فضلاً عن مواصلة إندفاعها التوسعي، أكثر تنفجاً وأشد قوميةً؛ وبرز « ليست »، بطل الحماية الجمركية، ليصبح أسلوبه موضة سائدة تحل مكان آدم سميث والتجارة الحرة. وجمعت طبقات رجال الأعمال صفوفها في بعض الحالات لتقاتل الطبقات العاملة على مستوى عالمي، كما جاء في وصف ماركس وانجلس؛ بيد أن الطبقات البورجوازية كانت، إلى جانب ذلك، تلجأ أكثر فأكثر إلى مخاطبة الطبقات العاملة، كلٌ في بلدها، كي تساعدها في صراعها مع بورجوازيات البلدان الأخرى. وتغيرت طبيعة المسألة القومية تغيراً جوهرياً. ولم تكن الماركسية متأخرة في رؤية هذا التغير؛ فبيَّن رودولف هيلفردينغ في كتابه «**رأس المال المالي**» الأساس الاقتصادي للرأسمالية المعاصرة على نحو لم يستطع أن يفعله أي كاتب

آخر في ذلك الوقت. وقد اعتمد لينين اعتماداً كبيراً على فلسفة هذا الكتاب عندما كتب دراسته الشهيرة حول الامبريالية في العام ١٩١٦ .

ولقد بيّن هيلفردينغ في مقطع فائق الروعة كيف كانت الايديولوجية العنصرية والقومية بجملها متصلة بانبثاق الدولة المندمجة الحمائية ـ الامبريالية. وقال إن انتصار الحمائية هو انتصار الطبقات المالكة. ويرافق الحمائية تمركز أقوى وأسرع، وتنامي قوة تنظيمات رجال الأعمال، وتصاعد حدة التناحرات القومية، وازدياد التسلح، وتزايد وطأة الضرائب، وارتفاع كلفة المعيشة، وتضخم سلطة الحكومة، وإضعاف الديمقراطية، وتصاعد إيديولوجية معادية لحركة العمال وموالية للسلطة[٤٧] .

وأضاف هيلفردينغ أن الرأسمالية لا يمكن أن توجه قواها في غير اتجاه الامبريالية * .

ويطرأ على سلطة الدولة، التي يحتاجها صراع التنافس في السوق العالمية، وموقف البورجوازية من الدولة تغير جوهري. فالفكرة القومية، التي وجدت حدودها الطبيعية في حدود الدولة، قد تحولت الآن إلى فكرة تفوّق أمة على أخرى[٤٨] . وتتحول فكرة المساواة بتأثير نمو الاحتكار إلى فكرة الامتياز؛ ويُعزى التفوق الاقتصادي لأمةٍ ما إلى خصائصها العنصرية. وتكرّس المصلحة الخاصة بوصفها المصلحة الاجتماعية العليا، وتصبح شرطاً لكل إيديولوجية اجتماعية قابلة للتطبيق؛ وتتوحد الدولة المعادية للشعب مع الأمة نفسها في كل واحد، وتأخذ الفكرة القومية مكانها كقوة محركة في خدمة السياسة السائدة[٤٩] .

---

(٤٧) رودولف هليفردينغ: « رأس المال المالي »، فيينا، ١٩١٠، ص ٤٧٩ .

* هؤلاء الذين اعتادوا أن ينسبوا إلى هيلفردينغ القول ان الامبريالية خطة للرأسمالية أكثر منها ضرورة واقعية مدعوون إلى تأمل هذا المقطع، ص ٤٧١ .

(٤٨) هيلفردينغ يعترف بالفضل هنا لباور، ص ٤٩١ وما يليها .

(٤٩) هيلفردينغ، ص ٤٢٣ — ٤٢٩ .

لا يتضمن كتابا لينين الشهيرين ، « **الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية** » و«**الدولة والثورة**» ، بشكل مباشر ، نظرية حول الأمة والقومية ، ولكنهما ينطويان ضمنياً على نظرية كهذه ، وبهذا دُحض نهائيـاً رأي هؤلاء الذين يقولون إن الماركسية **غير قادرة** على معالجة المسألة القومية .

إن كتاب لينين « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » إلى جانب نظريته الهامة جداً حول التطور غير المتكافىء، التي صاغها بشكل أدق في أماكن أخرى ، يبرزان فهم لينين الواضح للتحول الكامل الذي طرأ على موقف البورجوازية من الدولة في عصر الاحتكار والاستعمار الجديد . فهو يوافق على رأي هيلفردينغ الذي يدرج الأسباب الجديـدة للتأكيد على دور الدولة، ويضيف إلى ذلك فكرات ومواد جديدة كثيرة .

وتبرز أهميـة كتاب « الدولة والثورة » بسبب ما لا يحويه كما بسبب ما يحويه . فمن الصعب أن نتصور أن يقوم ماركس وانجلس بوضع برنامج من هذا النوع دون أن يتضمن في مكان ما تنويهاً بالنضال الأممي الذي تقوم به البروليتاريا، كما نرى في « البيان الشيوعي » . لم يكن أمل لينين قد انقطع، في ذلك الوقت (١٩١٧) ، من إمكانيات نضال من هـذا النوع ، لكنه كان في طريقه للوصول بعد وقت قصير إلى نقطة لا يعتبر فيها ذلك النضال ضرورياً بشكل مطلق ؛ فالصراع الطبقي هو « **في المقام الأول** » صراع قومي ، كما قال ماركس وانجلس . إن صورة البروليتاريا وهي تضع يدها على آلة الدولة لكي تعيد بناءها على أساس جديد هي صورة يُراد لها التطبيق على صعيد عالمي ، والحقيقة أن لينين لم يتوقع إن هـذا الجزء الأخير ، أي تلاشي الدولة، سيتحقق أو سيكون بالإمكان أن يتحقق حيث تكون الدولة الاشتراكية محاطة بدول رأسمالية معادية .

لقد كان ماركس يؤكد تأكيداً متواصـلاً على نمو الاحتكار وزوال المنافسة الحرة الذي بدأ يظهر في أيامه ؛ لكنه لم يشاهد مسبقاً صعود دول امبريالية شديدة الإندماج ، تحيط نفسها بحماية جمركية خاصة ويسيطر عليها

رأس المال المالي وتندفع إلى توظيف الفائض من رساميلها في الخارج ، الأمر الذي يفسد علاقاتها مع دول امبريالية أخرى . هـذا المفهوم برمته ، الذي استخلصه هيلفردينغ في العـام ١٩١٠ ، لم يكن جزءاً من نظرة ماركس ، بيد أنه لم يكن غريباً عنها . ولهذا فإن هيلفردينغ ، ولينين من بعده ، كانا يتجاوزان ماركس وانجلس إلى مـدى بعيد عندمـا حللا القوى المحركة في النظام الامبريالي الحديث . ولهذا السبب بالذات تبوّأت الدولة القومية ، التي لم تحتل سوى دور ثانوي في تفكير ماركس وانجلس ، مكانة مركزية للمرة الأولى تقريباً .

عندمـا تتلاشى الدولة ، ما الذي ستتركه وراءها ؟ ذلك سؤال لم يعط ماركس أو لينين جواباً واضحاً عنه ؛ فلم يكن عند أي منهما الوقت الكافي لإنشاء طوباويات خيالية أو رسم مخططات للمستقبل البعيد . لكن الواضح في كتابات كليهما (لينين في « **الدولة والثورة** » ، وماركس في « **المسألة اليهودية** ») ان العلة التاريخية الرئيسية للدولة البورجوازية هي ضبط نظام الملكية الخاصة . فمع زوال ذلك النظام وإقامة الاشتراكية بشكل كامل على صعيد العـالم كله ستصبح الدولة السياسية أثراً من الماضي ، وتزول معها المشاحنات القوميـة والاستلاب والحرب والفقر . ستفقد النزعة القومية حدتها ؛ أما الثقافات القومية فستبقى وستنتج تنوعـاً مثيراً للاهتمام . كتب لينين :

« ان إسقاط البورجوازية سيؤدي إلى تعجيل هائل في انهيـار سائر أنواع **الحواجز** القومية ، دون إنقاص « التمايز » أو « التخالف » بين البشرية ، بل سيؤدي على العكس من ذلك إلى زيادة هذا التمايز ملايين المرات ، إذا أخذنا ذلك بمعنى الغنى والتنوع في الحيـاة الروحية والاتجاهات الفكرية والميول والتلاوين »[٥٠] .

---

(٥٠) المؤلفات ، مجـلد ٢٨ ، ص ١٩١ ، كتب في حزيران ، ١٩١٥ ، نشر في ١٩٢٤ .

في جوانح لينين مشاعر حبٍ للوطن اعترف بها ، بيد أنها ليست من ذلك النوع الذي يوصف بـ « الأنانية الجماعية » . فقد كتب لينين، في ١٩١٤، يناقش الكرامة القومية لدى « الروس الكبار » :

« أمامنا تيار فكري واسع جداً وعميق جداً ، جذوره على صلة وثيقة بمصالح السادة كبار ملاكي الأراضي والرأسماليين في الأمم المسيطرة في الدولة الكبيرة » .

« ونحن ، البروليتاريين الروس « الكبار » ، هل نحن براء من شعور الكرامة القومية ؟ كلا بالطبع ! نحن نحب لغتنا ، ونحب وطننا ... نحن مفعمون بالكرامة القومية . ولذلك بالذات نمقت أشد المقت خنوعنا الماضي ... وخنوعنا الحاضر »[٥١] .

لقد أشرنا قبلاً إلى الاختلاف بين الكتاب الماركسيين حول مسألة ما إذا كان للطبقة الحاكمة والطبقة العاملة سوية ثقافة واحدة أم ثقافتان مختلفتان — ما إذا كانتا تشكلان « أمتين » بالمعنى الذي أعطاه دزرائيلي لهذا المصطلح في روايته الشهيرة . لقد اعتقد المراجعون (التحريفيون) أن الثقافة هي نفسها بالنسبة لسائر الطبقات ، أو أنها تميل لتصبح هكذا ، بينما أكد بعض المتطرفين مثل أ . ب . سوب ان ثقافة الطبقة العاملة ، بل لغتها ، مختلفتان[٥٢] . وفي حين أن لينين لم ينكر ان أشكال التعبير عند الطبقة العاملة تختلف في نواحٍ عديدة عنها عند الحكام ، وذلك في كتابه الرائع « ما العمل ؟ » (١٩٠٢) ، إلا أنه نصح العمال بالحصول على كل ما يمكن من الثقافة ، الثقافة الحقة لا الثقافة السطحية . يجب على مثقفي الطبقة العاملة أن يعتادوا الوقوف على أرجلهم بأنفسهم ، يجب أن يتحاشوا وصاية أحد عليهم . وفي نفس الوقت ، كان واضحاً في ذهن لينين أن ثقافة المستقبل

---

(٥١) « الكرامة القومية عند الروس » ، ١٩١٤ ، المؤلفات ، مجلد ٢٨ ، ص ٩٩ — ١٠٢ .

(٥٢) سويب : « القومية والأممية » ، منشور ، الهايغ ، ١٩١٥ .

الخاصة بالطبقة العاملة لن تكون قومية بأي معنى ضيق أو متنفج ، بل أممية .

هل من الصحيح إذن أن لينين ، لم يترك توجيهات واضحة أو مقنعة لخلفائه حول معالجة القومية ؟ * يمكن اعتبار معارضة لينين الشديدة لقومية الدول الكبرى توجيهاً واضحاً مقنعاً ، وان شكلاً من سياسة المعارضة هذه يبرز أكثر فأكثر إلى الصدارة كبديل وحيد لدمار عام. لكن من لا يكتفي، من خلفاء لينين هؤلاء ، بهذا التحديد السلبي يمكنه العودة إلى فلسفة حقبة مبكرة ، والأخذ بموقف ماركس وانجلس الذي يقول أن القومية أداة يمكن أن تستخدم بشكل ملائم في سبيل قضية عادلة ؛ وهذا ما جرى بالفعل ، وعلى نطاق واسع ، في الاتحاد السوفياتي خلال الحرب العالمية الثانية .

لقد كان لينين في البداية ، وحتى الثورة الروسية ، يقدر عمق الشعور القومي لدى العمال الأوروبيين أقل من قدره ، وتجلى ذلك من خلال الدهشة والكدر اللذين أصاباه عندما رأى ردود الفعل إزاء اندلاع الحرب العالمية الأولى . وربما كان أيضاً قد بخس قدر الإمكانيات البناءة لدى الحركات القومية في أوروبا الوسطى عندما ثبط من همة النزعة الانفصالية لدى القوميات التي كانت تضمها امبراطورية النمسا – هنغاريا . لكن لينين قد تعلم من التجربة ، وتوصل قبل موته إلى أن يكتشف اكتشافاً لم يدرك ستالين كنهه ، بالرغم من عمق خبرته المزعومة . مؤدى هذا الاكتشاف : ليس لدى مواطني الأمم المظلومة إحساس بأية قضية قدر إحساسهم بالمسألة الخاصة بمساواتهم . وفي حين كان معتاداً أن يعارض « القومية البورجوازية » بالأممية البروليتارية ، فإنه قد أظهر من خلال ترحيبه الحار بالحركات القومية في البلدان المستعمَرة أن هناك مكاناً في تفكيره لمقولة ثالثة : القومية البروليتارية . ففي البلدان التي ما زالت الحركة القومية فيها فتية يمكن لهذه الحركة أن تسير « يداً بيد » مع الديمقراطية والاشتراكية كما كان الأمر

* كما أكد لويس فيشر في « منبر جامعة كولومبيا » (نيويورك : ١٩٦٤)، ص ٦ .

في أوائل القرن التاسع عشر في أوروبا . وقد لاحظ لينين أيضاً ، ببصيرة نافذة ، أن القومية يمكن أن تكون قادرة على نقل الفلاحين ، الذين يغلب عليهم الطابع المحافظ في الحالات الأخرى ، إلى طريق التقدم والثورة الاجتماعية .

وفيما يتعلق بالتضارب بين الحركتين الاشتراكية والقومية ، لا نستطيع أن نقوم بما هو أفضل من الرجوع إلى افكار لينين في « الدولة والثورة » . هذا الكتاب ، الذي حرره لينين قُبيل استلام البلاشفة للسلطة ، يبين بقدر كافٍ من الوضوح فكر لينين حول مستقبل الدولة القومية ، وحول مشاعر النزعة القومية الملتصقة بها: «ستتلاشى» كلتاهما في آن بعد الثورة البروليتارية. وبما أن لينين لم يشاهد فترة متطاولة من المنافسة بين الدول الرأسمالية والاشتراكية ، فإن مشاكل عديدة قد برزت ، ولم يغطِها كتاب لينين . ومن الصعب لوم لينين على ذلك ، كما أنه من الصعب أن نتهمه بقولنا أنه صاحب نظرية خاطئة حول القومية لأنه لم يقدر مدى القوة التي بلغتها النزعة القومية قبل العام ١٩١٤ ، أو مدى عمق تغلغلها في وجدان الطبقة العاملة الأوروبية .

والحقيقة ان تفاؤل لينين المُصّر حول احتمالات أو إرهاصات الثورة البروليتارية كان بمثابة عامل تصحيح لتشاؤم انجلس في السنين السابقة لذلك . إنّ تأثيرات التعصب القومي والشوفينية ، التي كان انجلس يخافها خوفاً كبيراً ، تؤدي في الواقع إلى إرباك المعارضة عند إندلاع حربٍ ما ؛ لكن هذه التأثيرات لم تكن ذات مدى بعيد كما توقع انجلس . فالولاء للدولة التي تستخدم مثل هذه التكتيكات هو ولاء هش على الأرجح ؛ فالتحرر من الوهم يمكن أن يعقب الإفراط في الإثارة الوطنية .

لقد قال هيغل إن الدولة ضرورية بسببٍ من نظام الملكية الخاصة . وفي ظل نظام من الأنانية العامة ، سيتفتت المجتمع إلى نتف بلا حكومة مركزية قوية . أو كما قال انجلس :

« هذا المجتمع ... منشق إلى تناقضات لدودة يقف عاجزاً عن إزالتها . لكن لكي لا تستهلك هذه التناقضات ، أي الطبقات ذات المصالح الاقتصادية المتعارضة ، نفسها في صراع عقيم ، فإنه يصبح ضرورياً أن تقف سلطة بشكل ظاهري فوق المجتمع ، والغرض من هـذه السلطة هو أن تخفف من حده التناقض وتبقيه ضمن حدود « النظام » ؛ وهذه السلطة ، التي تصعد من المجتمع لكنها تضع نفسها فوقه وتنفصل عنه انفصالاً متزايداً ، هي الدولة »[٥٣] .

كان ماركس قد شرع باستنباط فلسفة حول كيفية الحفاظ على المجتمع في حالة تماسك بعد أن يحرر المجتمع نفسه من الدولة الاستغلالية . إن القوة التي ذكرها ماركس (ويبدو أن لينين قد فاته هذا الجزء من نظرة ماركس) هي الأمة : الشعب باعتباره كلاً عضوياً ، بمعزل عن جهاز الحكومة ، وفي مجتمع اشتراكي لا طبقي (شيوعيّ) .

كتب سيدريك بلفريج في معرض مراجعة نقدية لكتاب في جريدة « الحارس القومي » (ناشونال غارديان) في ١٨ كانون الأول ١٩٦٤ :

« إن الثورة الأولى على صعيد عالمي تراوح في خطوها إلى أمـام وإلى وراء ، كالعادة ، ولكنها ستؤدي في النهاية إلى **دفن تلك المؤسسة البالية الهدامة، أي الدولة القومية كما هي معروفة الآن ...** فالتجربة تقود العديد من الناس إلى الاستنتاج (خاصة بعد النازية وكوابيسها وحملات الارهاب الفكري التي تلت الحرب) أنها الخيانة الوحيدة التي يمكن للمرء أن يقترفها كعضو في الجنس البشري » . [التشديد من إضافتنا — المؤلف] .

قال قارىء في رسالة إلى هذه الجريدة ، ان هذه : « لماركسية جيدة ،

---

(٥٣) انجلس ، « أصل الأسرة والملكية الخاصـة والدولة » ، المؤلفات ، مجلد ٢١ ، ص ١٦٥ .

أساسية ، جوهرية وأولية »[٥٤] . لكن الماركسية الحقة تحافظ على التمييز بين القوميــة والدولة . والعدو الحقيقي ، بالنسبة إلى ماركس ولينين ، هو نظام الملكية الخاصة — الرأسمالية . والقومية كانت أداة لنظام الامتيازات . أو لنقلْ عوضاً عن ذلك أنها يمكن ، بالتأكيد ، أن تكون أداة لنظام آخر ، أو أنها يمكن أن تُنبذ عندما لا تعود تخدم غرضاً مفيداً . لقد اعتبر لينين أن الخطأ الرئيسي الذي ارتكبه الاشتراكيون الديمقراطيون قبل الحرب العالمية الأولى لا يتمثل في أنهم قصروا عن النضال ضد النزعة القومية (وربما كان عليهم أن يفعلوا ذلك أيضاً) ، بل في أنهم قصروا عن النضال ، أو عن النضال بمثابرة وصلابة كافيتين ، **ضد الرأسمالية ومن أجل الاشتراكية** ، أي الاشتراكية الماركسية .

ربما ، لم يترك لينين مجموعة من التوجيهات لخلفائه ، لكنه ترك لهم ما هو أكثر قيمة بكثير . ترك لهم سابقة . ورغم أن الأمر لا يدخل ضمن إطــار بحثنا الآن ، إلا أننا لا نستطيــع إنهاء البحث دون ذكر قضية المتمردين الجيورجيين الشهيرة ، هؤلاء الذين سحق ستــالين تطلعاتهم نحو قومية مستقلة دون شفقة في العام ١٩٢٢ . تلك حادثة هامة جداً ، إذ أنها لا تتعلق بأية مسألة نظرية ؛ فمن المفترض أن يكون لدى لينين وستالين الأفكار ذاتهــا حول القومية ؛ والنقطة الوحيدة في الموضوع هي نقطــة إدارية ، إذ انتقد لينين ستالين نقــداً شديداً دون رحمــة في وثيقة لم تطرح على الجمهور حتى عام ١٩٥٦ ، أي بعد موت ستالين بثلاثة أعوام . في هــذه الوثيقة بعض المقاطع ذات الدلالة الكبيرة بالنسبة لموضوعنا . لذا سنجتزىء منها المقاطع الطويلة التالية :

« ... إن الحديث عن القومية بوجه عام ، بصورة مجردة ، ليس فيه أية

---

(٥٤) برنارد غاليتز ، رســالة إلى المحرر ، « ناشونال غارديان » ، نيويورك ، ٢ كانون الثاني ، ١٩٦٥ .

فائدة مطلقاً . فمن الضروري التمييز بين قومية الأمة الظالمة وقومية الأمة المظلومة ، بين قومية الأمة الكبيرة وقومية الأمة الصغيرة .

ونحن ، أبناء أمة كبيرة ، نقترف بصورة دائمة تقريباً في الواقع التاريخي عدداً لا يحصى من أعمال العنف حيال قومية النوع الثاني ، أضف إلى ذلك اننا نقترف دون أن نلاحظ عدداً لا يحصى من أعمال العنف والاهانات ...

ولذلك فالأممية من جانب الأمة الظالمة أو المسماة بـ « العظمى » (وان كانت عظمتها لا تتجاوز أعمال العنف ، لا تتجاوز « عظمة » دجيموردا) لا تستقيم بمجرد مراعاة المساواة الشكلية بين الأمم ، بل بنوع من عدم المساواة يعوض من جانب الأمة الظالمة ، من جانب الأمة العظمى ، عدم المساواة التي تتكون في الحياة فعلاً . ومن لا يفهم ذلك ، لا يفهم الموقف البروليتاري الحق في المسألة القومية ، ويبقى في الجوهر على وجهة النظر البورجوازية الصغيرة ، ولذلك ينزلق لا محالة في كل لحظة إلى وجهة النظر البورجوازية .

... إن أبناء الأمة الصغيرة « المهانين» لا يحسون شيئاً كما يحسون المساواة والإخلال بالمساواة من قبل رفاقهم البروليتاريين ، حتى ولو جاء هذا الإخلال نتيجة لعدم الانتباه ، حتى ولو جاء بشكل مزاح . ولذا فإن الزيادة في اتجاه التساهل واللين حيال الأقليات القومية هي في هذه الحالة خير من النقص ... »[٥٥] .

خلاصة

تحمل النظرية الماركسية حول القومية ، كما تطورت حتى أيام الثورة الروسية ، شبهاً بسيطاً ، في جوانب عديدة ، بأفكار ماركس وانجلس . والتغييرات التي طرأت إنما جاءت جزئياً عبر نبذ الصيغ التي أصبحت غير

---

(٥٥) لينين : « مذكرة حول مسألة القوميات أو الحكم الذاتي » ، أملاها لينين في ٣١ كانون الأول ١٩٢٢ .

ملائمة أو غير صحيحة ، وجزئياً عبر تطوير هذه النظرية تطويراً متوافقاً مع الواقع الجديد . فالتأكيد الجديد على حق تقرير المصير لم يكن نتيجة إعادة التفكير في المواقف الأساسية أو مراجعة لها (فنظرة لينين الأساسية كانت لا تكاد تختلف، في صيغتها عن نظرة ماركس وانجلس) بقدر ما كان عائداً إلى الاعتراف بنشوء ونمو حركات قومية في غضون ذلك . فتبني الفكرة القائلة إن الحركات القومية تستحق الدعم حين تمثل عملاً تقوم به طبقة تقدمية ضد الاضطهاد هو خطوة إلى الأمام ، كما هو الأمر بالنسبة إلى معارضة الامبريالية والدعم الصريح للحركات القومية في المستعمرات* . إن التأكيد على النضال الطبقي الداخلي أكثر منه على النضال الطبقي الأممي هو موقف تم تبنّيه الى حد ما ، بكل أسف ، كنتيجة لانهيار « الأممية الأولى » ، و« الأممية الثانية » بعد ذلك أيضاً . لكن النظرية الماركسية كانت قد هيأت نفسها لهذا التغيُّر في مناقشتها الأساسية لطبيعة الدولة في عصر الامبريالية الجديد. فالنزاعات القومية الناجمة عن الصراع في سبيل الأسواق والمستعمرات قد بلغت في النهاية درجة احتلت فيه مركز الاهتمام . فالاحتكار والحمائية أخذا يعززان التأكيد الجديد على النزعة القومية . لكن منطويات أو مضامين تصاعد مكانة النزعة القومية لم يكن قد نما نمواً كاملاً بعد .

الحلول الوسطية لا تكفي في النضال ضد الرأسمالية في عصر الامبريالية . فالاضراب العام ضد الحرب والمطالبة بميليشيا من المواطنين، وتبني نزع السلاح هي فكرات تداولها الماركسيون ، مثلما تداولتها بقية الحركات العمالية والاشتراكية ؛ وسيتم نبذها باعتبارها مبادرات رمزية فقط . فعُدِّل تعريف الحرب الدفاعية ، بل نُسخ وأُبطل بالأحرى . وهكذا تم انشقاق آخر عن خط ماركس وانجلس .

---

* إن التحول من القبول بالامبريالية إلى معارضتها هو خطوة قام بها ماركس نفسه بالطبع ؛ انظر الفصل الثالث ، ص ٩٦ .

إن التغير الأكبر الذي أصاب النظرية الماركسية كان الاعتراف بأن « النزعية الأممية » ، كما بشرت بها الأممية الثانية ، سراب خادع . هذا التغير يمكن أن يعتبر « ارتداداً » بالفعل إلى النظرية الماركسية « الخالصة » ، ذلك أن مفهوم ماركس حول الأممية كان يقضي ، كما رأينا سابقاً ، بأن تقوم البروليتاريا بعمل مباشر على صعيد عالمي . وفي حين كان الناطقون باسم الأممية الثانية مستمرين بالكلام عن الأممية فإن الاقتراحات الخاصة التي تؤدي إلى تنفيذ أعمال معينة كانت تُرفض واحداً بعد الآخر ؛ وعلى هـذا النحو كانوا يتكلمون عن أممية رأسمالية بيّن لينين بجلاء أنها غير واقعية إطلاقاً وذات نظرة غير ماركسية . لكن النزعة الأممية البروليتارية ، التي يمكن من خلالها للطبقة العاملة في بلدان مختلفة أن تتحد لتقاتل الامبريالية ، قد بقيت جزءاً من النظرية الماركسية .

لم يستقر رأي ماركس وانجلس البتة وبشكل نهائي حول الموقف الذي ينبغي اتخاذه من القومية في حد ذاتها . لقد حافظ انجلس على قدر من التثمين الدافىء للثقافة القومية الألمانية ، بينما كان ماركس يفضل الحديث عن نفسه كمواطن في هذا العالم . وكان لينين ، مثل باكونين ، يشعر بالتعلق باللغة والأرض الروسيتين، رغم أن فترات نفيه الطويلة ومساهمته النشيطة ومعرفته بالحركات الاشتراكية في بلدان وقارات عديدة قد جعلت منه أممياً، عملياً، كما كان ماركس وانجلس من قبله . وقد بذل جهوداً كبيرة لكي يتلافى رجحان مشاعره الروسية في حكمه حول ما سيكون في مصلحة الحركة الثورية العالمية .

لقد بذل باور وريز جهـداً كبيراً من أجل الإبقاء على دولة النمسا ـ هنغاريا كدولة قومية ؛ كانا قوميين بصراحة ، لكن ليس بالمعنى المتنفج ، العدواني ؛ ولم يكن هناك أثر للتعصب القومي أو للشوفينية في كتاباتهما . وانحرف بعض الكتاب « الاشتراكيين » الماركسيين الزائفين عندمـا تبنوا النزعة القومية البورجوازية العسكرية وخرجوا على الحركة الماركسية .

ومع أن الماركسيين الحقيقيين استمروا في الإعراب عن مشاعرهم القومية

على المستوى الثقافي ، إلا أنهم اقتربوا مع قدوم ١٩١٧ – وربما مؤقتاً – من اللحظة المعادية للنزعة الوطنية التي وقفها ، فيما يتعلق بالأمور التي تهم البلدان الرأسمالية ، هيرفيه و« الاتحاد العام للعمل » الفرنسي و « اتحاد عمال العالم الصناعيين» الأمريكي. ولا يمكن تفسير شعار لينين « هزيمة الوطن الامبريالي » بطريقة أخرى . إلا أن هذا الموقف ليس « عدمية قومية » ، بل يرتبط بوقت معين ومكان محدد ، وكان يخدم غرضاً على قدر كبير من الأهمية ألا وهو توضيح التمايز بين الوطنيين المزيفين والوطنيين الحقيقيين .

ومن سخرية القدر أن تضطر الماركسية ، في هذا الحقل كما في غيره ، إلى أن تتعرّج في هذه الدرب الطويلة من أجل الوصول إلى أهداف مجتمع لا طبقي فوق قومي super-natiral . فكما أن قادة الاتحاد السوفياتي وجدوا أنفسهم مضطرين إلى التشديد على أن عدم المساواة العملية في المداخيل بعد الثورة هو الطريق المباشر أكثر من غيره للوصول نحو الشيوعية ، كذلك أكد القادة أنفسهم على القومية بشدة ، شأن الآخرين ، عندما تُستخدم في سبيل قضية نبيلة . لقد لاحظنا قبلاً أن ذلك موقف ماركسي ، مع أن ماركس لم يعط أية قيمة خاصة للأمة في حد ذاتها في عصر الرأسمالية . فالمسألة في مجملها هي مدى النفع ، أو غيره من الأمور ، الذي تؤديه تلك الفكرة في تحقيق أهداف الثورة الأممية البروليتارية . بعد زوال الرأسمالية ستستمر القومية ، لكنها لن تكون من نمط قومية « الجماعة الأنانية » ، بل سنجد بدلاً منها مباراة ودية تشمل سائر جوانب الحضارة الانسانية .

إن القبول بمبدأ حق تقرير المصير على يد ماركسيين مثل لينين لم يأت كاملاً وتاماً البتة ؛ وروزا لوكسمبورغ ، كما رأينا من قبل ، لم تقبل به أبداً. ولكن بقدر ما ساروا في تبني هذه الفكرة بقدر ما أُضعِفت تأكيدات ماركس وانجلس حول تفوق مطالب الأمم الكبرى ، واقتربوا بدرجة أكبر من فكرة المساواة الشكلية بين الأمم . لكن حدود هذه الفكرة ما زالت تقف عند المصالح العليا للثورة البروليتارية الأممية .

غالباً ما يظن الماركسيون الذين كتبوا حول القومية أنهم عندما يجدون تفسيراً اقتصادياً للظاهرة تنتهي مهمتهم . والحقيقة أن المسألة أبعد من ذلك، ومن المفروض أن تكون دراستنا هذه قد جلت الموضوع . ومع ذلك فإن الأدبيات الماركسية حول القومية تبـدو متفوقـة إذا قورنت بأية مدرسة فكرية أخرى في عصرنا ، وذلك بسبب وضوح تحليلها ، وإدراكها الشمولي ، وبسبب نظام قيمها القاعدي الأساسي بالطبع . إن نظاماً نظرياً يبقى قائماً أو يسقط لا على أساس معتقدات جامدة ماضية ، بل على أساس قدرته على مجابهة المسائل الجديدة كما تظهر أمامه ، وقدرته على تقديم حلول صـالحة للعمل . وبهذا المعنى ثبتت الماركسية والطريقة الجدلية إلى حد كبـير . والمسألة ليست ما إذا كان الماركسيون يقترفون أخطاءً ما ، بل ما إذا كانوا يملكون الوسائل والارادة لتصحيحها . إن حيوية المدرسة الماركسية وقدرتها على تجاوز الأخطاء التي بدت قاهرة في حينها قد أعطتنا أساساً للاعتقاد ان من الممكن تذليل هذه المسألة الكبرى بمساعدة تحليل ماركسي سليم ووضع القومية في خدمة أغراض مفيدة عوضاً عن تدمير البشرية .

فهرس

صفحة

القومية والاشتراكية

لم يصدر بعد باللغة العربية كتاب يحوي دراسة مفصلة ومنهجية تتناول تاريخ الفكر الماركسي في تناوله للمسائل المتعلقة بالأمة والقومية وعلاقتها بالاشتراكية . هذا الكتاب ، الذي ألفه الدكتور هوراس دايفيس الكاتب التقدمي الأمريكي المعروف ، والذي ترجم إلى عدة لغات ، قد سد هذه الثغرة .

ولا تقتصر دراسة دايفيس على عرض وتحليل الأفكار الماركسية في تناولها المسألة القومية والمسائل الاخرى المرتبطة بها ، بل تبيّن أيضاً علاقة هذه الأفكار بالمجتمعات التي انبثقت عنها ، وكيف انعكست تطورات العلاقات الاجتماعية في صياغات جديدة للنظرية الماركسية في القومية . ولقد اضطر ماركس وانجلس إلى تعديل فكراتهما الأولى المبكرة حول القومية على ضوء الأحداث والتطورات، ثم قام لينين بصياغة ثورية لوجهة نظر الماركسية بكليتها .

في كتاب « القومية والاشتراكية » يجمع هوراس دايفيس ويقدم إسهامات العديد من كتّاب ومفكري الحركة العمالية عموماً والماركسيين خصوصاً في في بسط وتطوير وإنماء النظرية الاشتراكية في القومية حتى العام ١٩١٧ . ولا يقف الكتاب عند هذا الحد ، بل يقدم عرضاً وتحليلاً شاملين لمواقف الحركات العمالية والسياسية الاشتراكية الأوروبية عن المسألة القومية والوطنية والشوفينية والحروب والأممية ...

•

صدر عن دار الحقيقة :

- الأمة ، المسألة القومية ، الوحدة والماركسية — مكسيم رودنسون
- الماركسية اللينينية أمام مشكلات الثورة في العالم غير الأوروبي — ستيوارت شرام ...
- ماركس وانجلس — حياتهما وأعمالهما الفكرية (مجلدان) — أوغست كورنو
- في الفكر اللينيني — روجيه غارودي ...

دار الحقيقة للطباعة والنشر في بيروت

ص. ب ٨١٤٧

الثمن : ٦٠٠ ق. ل.